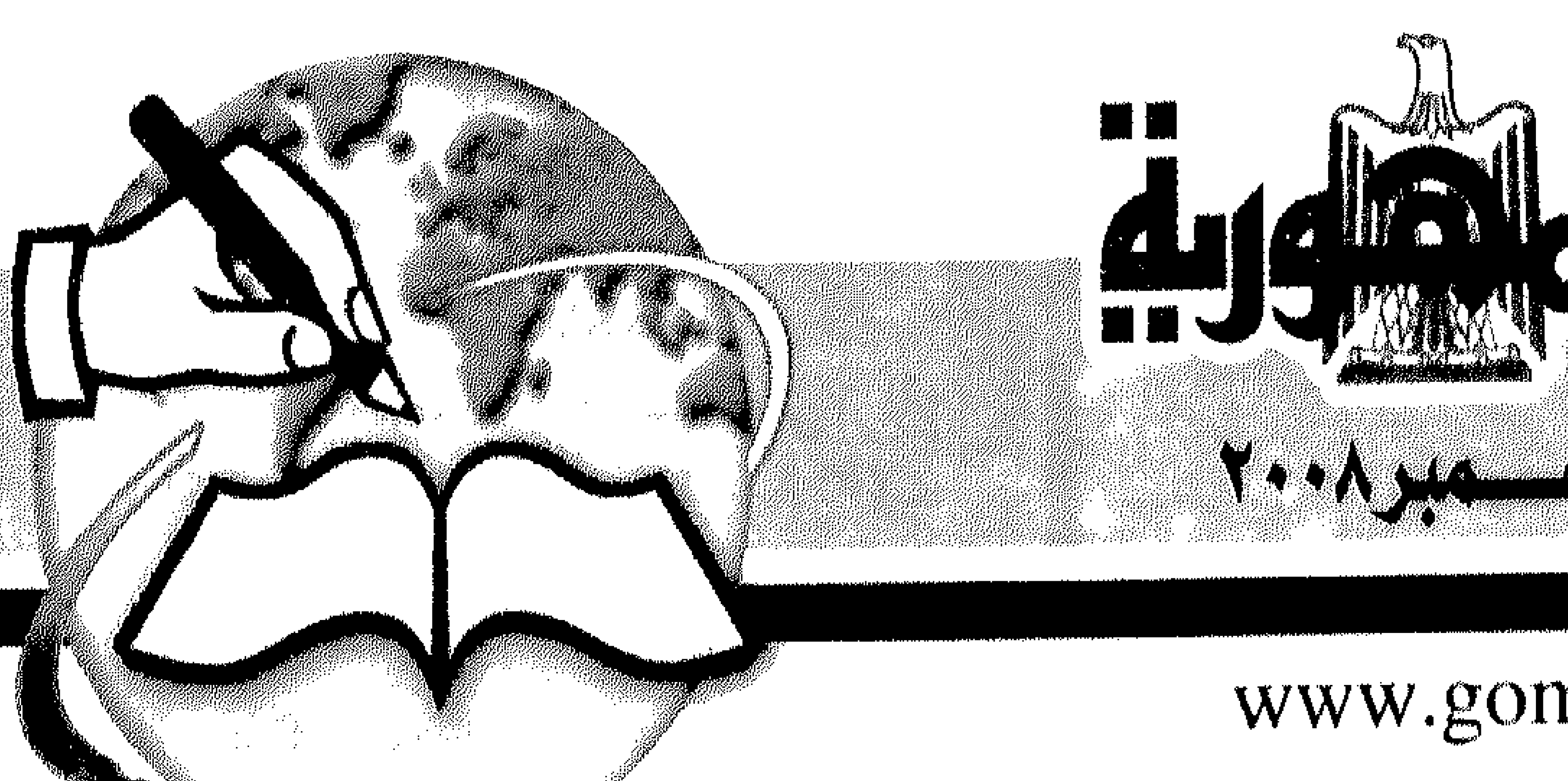


مصطفى كامل

شاب من مصر



نشأت الديهى



كتاب الجمهورية
ديسمبر ٢٠٠٨
www.gombook.net.eg

رئيس مجلس الإدارة
محمد أبو الحديد
E-mail:abuelhaded@eltahrir.net

رئيس التحرير
على هاشم
E-mail:aly_hashem@gitc.com.eg

مصطفى كامل

شاب من مصر

نشأت الديهي

دار الجمهورية للصحافة
١١١ ـ ١١٥ ش رمسيس
ت : ٢٥٧٨٣٣٣٣

إذا وجدت أى مشكلة
فى الحصول على
«كتاب الجمهورية»
وإذا كان لديك أى مقترحات أو
ملاحظات
فلا تتردد فى الاتصال على أرقام :
٢٥٧٨١٠١٠ ٢٥٧٨٣٣٣٣

http://www.eltahrir.net

ديسمبر ٢٠٠٨

أسعار البيع فى الخارج

سوريا	١٠٠ ل.س
لبنان	٤٠٠ ل.ل
الأردن	١٫٥ دينار
الكويت	١ دينار
السعودية	١٠ ريال
البحرين	١ دينار
قطر	١٠ ريال
الإمارات	١٠ درهم
سلطنة عُمان	١ ريال
تونس	٢ دينار
المغرب	٣٠ درهم
اليمن	٣٠٠ ريال
فلسطين	٢ دولار
لندن	٢ جك
أمريكا	٥ دولار
استراليا	٥ دولار استرالى
سويسرا	٥ فرنك سويسرى

الاشتراك السنوى

داخل جمهورية مصر العربية
٦٠ جنيهاً
الدول العربية ٣٠ دولاراً
أمريكيا
اتحاد البريد الافريقي وأوروبا
٣٨ دولارا أمريكياً
أمريكا وكندا
٤٥ دولارا أمريكياً
باقى دول العالم
٥٨ دولارا أمريكياً

مصطفى كامل
شاب من مصر
نشأت الديهى

تصميم الغلاف الفنان : صالح صالح

سكرتير التحرير
سيد عبد الحفيظ

مصطفى كامل
شاب من مصر

نشــأت الديهى

استئذان

ليأذن لى شباب اليوم أن أقدم لهم
هذه الصفحات المضيئة من تاريخ
العمل الوطنى نموذجًا وقدوة .

(نشــــأت)



«لا شىء يرفع حال مقام الوطنيــة فى بلادنا مثل إحياء ذكرى الرجـال الذين أخلصـوا فى خدمتهـا، وقضوا أعمارهم فى العمـل لإعلاء شأنها وتحقيق آمالها ولا شىء يميت الوطن والوطنية مثل تمكن داء النسيان فى أمة وجهلهـــا لتاريخها، وعـدم تقديرها للرجال المخلصين فى خدمتها».

مصطفى كامل

قبـــل أن تقـــرأ

فى عصر خلف المثقفون فراغاً واسعاً بين الأجيال الجديدة وتحول التاريخ إلى بضاعة (راكدة) وضعفت ذاكرة الأمة، فاهتزت معانى الأنتماء لدى الشباب، لغياب القدوة الحقيقية، وبعدُ معين الموروث الحضارى وأصبحت الشخصية المصرية في حاجة إلى استجلاء.. وإعادة اكتشاف.

لهذا بدأت رحلة البحث عن بديل.. وصادفت مرور مائة عام علي رحيله.. هو ذلك الشاب المفعم بالحياة وحب الوطن.. هو تراث من الوطنية الصادقة والجهاد المخلص في سبيل الوطن.. رأيت أن أقدمه لشبابنا عله يدرك.

فمن خلال أوراق مبعثرة وملفات ممزقة للتاريخ المصرى، وضعت يدى على صفحات ناصعة وبراقة ومشرقة لزعامات وطنية حقيقية ، ولأننى أبحث عن شخصية مرجعية أقدمها للأجيال الجديدة من الأبناء والإخوان فكان لزاما علىّ ان أختار هذا الرجل الذى رفع لواء النضال والكفاح والوطنية وهو ابن السادسة عشرة من عمره.. لقد جاء إلى الدنيا وغادرها وهو ابن الرابعة والثلاثين ربيعا تاركا خلفه صفحات مضيئة من تراث العمل الوطني، ينظر إلى الحياة على أنها رسالة فيقول :

" الحياة جهاد والعمر قصير، وخير الناس من جاهد فى سبيل بلاده وعمل لخيرها وناضل عن حقوقها " .

لكنه يؤمن بالأمل إيمانه بالحياة ذاتها فيقول " الأمل دليل الحياة ورائد الحرية ، والوطنية شعور ينمو فى النفس، ويزداد لهيبه فى القلب ويرسخ فى الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه ".

بيد أن أعظم ما تأثرت به نفسى من أقوال هذا الزعيم الشاب هو قوله:

" ألا أيهــا اللائمــون انظروها وتـأملوها وطوفــوها، واقــرأوا صــحف ماضيها، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض، هل خلق الله وطنا أعلى مقاما، وأسمى شأنا، وأجمل طبيـعة، وأجل آثارا، وأغنى تربة، وأصفى سماء وأعذب ماء، وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ؟ اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد.. إن مصر جنة الدنيا، وإن شعبا يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها " .

يقــول عن نفـسـه " إن روحى تتـغـذى من حب الوطن وبغـيـره لا أستطيع الحياة، إذ لا قيمة للحياة بغير هذا الحب الرائع العظيم الذى يفيض على المرء كل سلوى وكل سعادة " .

لقد كانت له أقوال وأفعال خالدة ظلت باقية على مر التاريخ ومن أقواله " أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا "، و"إنى أترفع أن أدافع عن بلادى بالطعن والسباب " .

"قد يكون الرجل صادق الوطنيـة فقيرا فى المال، ولكنه يعيش ويبـقى فى التاريخ من أكبر سراة الوطن " .

" لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة "

" ليـست الحـرية بعـزيزة على قـوم يعـملون للحـصـول عليـهـا ويجتـهدون فى نوالها وليس بعزيز على المصريين أن يفكوا قيود بلادهم ويعيدوا إليـهـا استقلالها ومجدها فالصخرة الضخمة تذوب وتتفتت بسقوط المياه عليها نقطة بعد نقطة ".

" إذا لم نقتطف ثمرة عملنا وجهادنا فى حياتنا، فإننا على الأقل نضع الحجر الأول لمن يأتى بعدنا "

" بلادى بلادى لك حبى وفؤادى لك حياتى ووجودى، لك دمى ونفسى، لك عقلى ولسانى لك لبى وجنانى، فأنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك يا مصر".

" إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليـهـا الأمم فى مـاضى الأيام وحـاضـرها، وأعلى مطلب ترمى إليـه فى مستقبلها، فلا الدسائس تخيفنا، ولا التهديدات توقفنا فى طريقنا، ولا الشتـائم تؤثر علينا ولا الخيـانات تزعجنا، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية.. نعم لو أخذنا الموت من هذا الدار واحدا بعد واحدٍ لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا : كونوا أسعد حظا

منا، وليبارك الله فيكم ويجعل الفوز على أيديكم، ويخرج من الجماهير المئات والألوف للمطالبة بالحق الوطنى والحرية الأهلية والاستقلال المقدس " .

لقد كانت أهم إنجازاته الباقية هو الدعوة لتأسيس أول جامعة على أرض مصر وهى الآن جامعة القاهرة وكذلك تأسيس أول حزب سياسى فى مصر وهو الحزب الوطنى القديم (حزب الجلاء) وإصدار صحيفة اللواء وصحيفتى ذى إيجبشيان باللغتين الفرنسية والإنجليزية.

واللافت للنظر أن كل هذه الإنجازات قد تمت على يدى هذا الشاب فى ظروف سياسية واجتماعية غاية فى الصعوبة حيث الاحتلال الإنجليزى الذى قام ببناء حائط من الإحباط واليأس حجز خلفه جموع الشعب المصرى، فساد الإحباط وعم اليأس والقنوط والاستسلام بين الجميع، كانت الظروف فى مجملها قاتلة للهمم.. لقد كانت المهمة شاقة وتقترب من المستحيل، لكن همم الرجال وعزيمة الأبطال أبدا لا تعرف المستحيل.

لكل ما سبق كانت فكرة هذا الكتاب .

لكنه ليس كتاب «تاريخ» وليس سيرة ذاتية وليس ترجمة شخصية لكنه فكرة بسيطة لبناء حائط من الثقة والأمل والطموح من خلال تقديم القدوة.. هذه القدوة لا أقدمها لشباب اليوم فحسب بل أقدمها للأمة بأسرها.

إن مرور مائة عام على رحيل الزعيم مصطفى كامل دون احتفال رسمى أو شعبى لشئ يدعو لأسى، لكن الرجل نفسه علمنا أنه لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس، لكن يجب ألا ننسى ما قاله الرجل نفسه وهو يشارك فى إحياء ذكرى فقيد المعارف على مبارك " لا شئ يميت الوطن والوطنية مثل تمكن داء النسيان فى أمة وجهلها لتاريخها، وعدم تقديرها للرجال المخلصين فى خدمتها " .

إننى أقدم كتابا أدعو الله أن يكون خطوة جادة نحو إحياء ذاكرة الأمة.

نشأت الديهى

القاهرة ٢٠٠٨

الفصل الأول



النشأة والتربية.. غراس الوطنية

من مدينة القاهرة وفى الرابع عشر من أغسطس عام ١٨٧٤ انطلق قطار الحياة السريع الذى أقل مصطفى كامل من محطة الميلاد إلى محطة الوداع.

نشأ مصطفى كامل نشأة جادة حيث كان والده ضابطا بالجيش المصرى وتربى على المبادئ والأخلاق الشرقية الأصيلة، وبدت عليه مبكرا ملامح الفطنة والذكاء، واتسمت شخصيته بالجرأة والشجاعة والإقدام.

وفى عام ١٨٨٧ حصل على شهادة الدراسة الابتدائية وفى نفس العام التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية التى شهدت الميلاد الحقيقى لزعامة مصطفى كامل، حيث بدأ شعوره الوطنى ينمو ويزدهر، ففى السادسة عشرة من عمره أصبح أميرا فى دولة الخطابة والفصاحة والبيان وأسس جمعية أدبية أسماها جمعية الصليبية الأدبية جمع فيها زملاءه وأقرانه المميزين فى المدرسة ثم انضم إلى جمعية أخرى تسمى جمعية الاعتدال تعرف من خلالها على العديد من الشخصيات الفاعلة، ثم أسس جمعية اسماها «إحياء الوطن» لقد تعلق قلب وعقل مصطفى كامل بالوطن وأصبحت الوطنية تجرى منه مجرى الدم فى العروق، فبدأ فى إلقاء الخطب مساء كل جمعة، وكانت أول خطبة يلقيها فى حياته عن مؤسسات المجتمع المدنى والجمعيات الأهلية وكانت بعنوان:

«فضل الجمعيات فى العالم» فنال مصطفى كامل احترام وتقدير الجميع خاصة على مبارك باشا الذى كان وزيرا للمعارف فى تلك الفترة وكان من أشد المعجبين بمصطفى كامل وبشره بأنه سيكون ذا شأن عظيم و كان يقول له «إنك امرؤ القيس».

لقد بلغت جرأته وشجاعته ذروتها حينما كان تلميذا فى الصف الأول الثانوى وكان عمره أقل من ستة عشر عاما، و وقف أمام وزير المعارف فى صرامة وجدية واعتزاز بالنفس وقال للوزير **«إننى لا أطلب منك إلا ما وجدت أنت من مثلك يوم كنت تلميذا مثلى، وما يدريك ألا أكون عظيما أخدم وطنى غدا بأكثر مما تخدمه أنت اليوم»** .

ويقص على بك فهمى شقيق الزعيم مصطفى كامل ثلاث قصص فى كتابه تظهر قوة الصلة بين على باشا مبارك وبين مصطفى كامل حيث يقول إن العلاقة بينهما بدأت ومصطفى تلميذ فى السنة الاولى فى الدراسة الثانوية، ففى هذه السنة تم رفع نسبة النجاح وترتب على ذلك رسوب زملاء مصطفى وكان هو من الراسبين فلم يستسلم لليأس وقصد من توه إلى مكتب الوزير فأراد الحاجب أن يرده عن الباب فصاح فيه " كيف تمنعنى وأنا ابن الوزير" فأفسح الحاجب الطريق فورا فقال مصطفى وهو فى طريقه إلى الوزير فى حجرته.. ابنه فى العلم.. وعرض مصطفى مظلمته على على باشا مبارك فى جرأة وثبات لفت نظره وأثار اهتمامه ولكنه أراد أن يداعب هذا الصبى الصغير فقال " ولكن ماذا أنت فاعل لو أصررت على القرار الذى تتظلم منه ".. فقال التلميذ الصغير:

" أعوذ برجوعك إلى الحق من إصرارك عليه " فقال الوزير " دعك من الاستعاذة بالعدل الذى أعزه من الجور الذى أكرهه، وربما كان ذلك القرار تخفى الحكمة فى وضعه على مثلك ومثل إخوانك واقتضت مشيئتى ألا أعدل عنه فماذا يكون منك ؟ فقال مصطفى أنصرف من حضرتك وأذهب إلى إخوانى فأقول لهم إن الجالس على كرسى وزارة المعارف نسى الأبوة ولم تكف سعة علمه ونزاهة نفسه فى تحوله عن شئ اتضح له الخطأ فيه.. وقد عدل بعد ذلك القرار وخفضت نسبة النجاح.

بيد أن مرحلة المدرسة الثانوية شهدت تشكيل الوجدان الوطنى لمصطفى كامل وبدا النهر العظيم يشق مجراه وسط الصخور ولم يعبأ بالمصاعب والعقبات، وعندما انتهى مصطفى كامل من دراسته الثانوية أرسل فى الثانى عشر من يوليه عام ١٨٩١ إلى شقيقه على بك فهمى كامل الذى كان ضابطا بالجيش المصرى بالسودان رسالة تاريخية يقول فيها:

«السلام عليكم أيها الأخ الحبيب، اليوم أبشرك بأن العقبة الكئود التى أمامى وهى شهادة الدراسة الثانوية قد زالت من أمامى وقد نلتها بعد أن أضنت جسمى فأصبح نحيلا لا صحيحا ولا عليلا، ولكنى آمل أن تعود إلى القوة لأدخل مدرسة الحقوق الخديوية لقد عزمت على الانضمام إلى صفوف طلابها لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم وأنت

تعلم أنى أميل اليها كثيرا وعزمت كذلك على تأسيس جمعية أسميها جمعية «إحياء الوطن » وربما دهشت من إقدامى هذا لضعفى الذى تعلمه فى اللغة الفرنسية ولكن اعتمادى على الله وعلى نفسى أكبر ضامن لنجاحى والله الموفق إلى أقوم سبيل» .

يعد هذا الخطاب قراءة حقيقية صادقة لطموحات وتوجهات مصطفى كامل الوطنية، فمن البديهى أن حديث المرء مع شقيقه يتسم بالصدق والتلقائية حيث ذكر الحقائق مجردة من المزايدات والتوازنات، إن هذا الخطاب بمثابة التقاط لصورة حقيقية دون تجميل أو تجهيز أو تغيير، فما أدرى مصطفى كامل أن هذا الخطاب وما يحويه من أحلام سيكون ضمن صفحات التاريخ؟.. لكنها حقيقة الرجل وما يخالجه من شعور وطنى ومشاعر فياضة تجاه وطنه وأمته وهو فى هذه السن المبكرة.

بالفعل التحق مصطفى كامل ابن السابعة عشرة بمدرسة الحقوق الخديوية فى أكتوبر من عام ١٨٩١، وكان التحاقه بمدرسة الحقوق من أهم المحطات فى حياته حيث تعرف على العديد من الشخصيات السياسية والثقافية والدينية ، وكانت علاقته بزميله فى الدراسة فؤاد بك سليم سببا مباشرا كى يتوجه إلى مدرسة الحقوق الفرنسية ليتم بها دراسته، وفى صيف ١٨٩٢ التقى مصطفى كامل ببشارة باشا تكلا صاحب جريدة الأهرام بعد أن تعرف عليه عن طريق صديقه الحميم خليل مطران فى مدينة الإسكندرية وبعد هذا اللقاء بدأت مقالات مصطفى كامل الوطنية تظهر تباعا فى الأهرام والمؤيد، وفى عام ١٨٩٣ أصدر مصطفى كامل مجلة «المدرسة» كأول مجلة مدرسية و كان شعارها «حبك مدرستك.. حبك أهلك ووطنك» وكانت المجلة عبارة عن شعلة وطنية وأخلاقية وثقافية غير مسبوقة ورحبت جريدة «الأستاذ» التى كان يصدرها خطيب الثورة العرابية عبدالله النديم بمجلة المدرسة أيما ترحيب، وأرسل مصطفى كامل إلى شقيقه على بك فهمى نسخة من مجلة المدرسة مع خطاب يقول فيه «أبعث إليك فى هذا البريد بمجلة المدرسة التى أنشأتها لخدمة الناشئين لا للربح والشهرة» .

وفى ٢٣ يونيه ١٨٩٣ كان مصطفى كامل فى طريقه إلى أوربا حيث قصد فرنسا لأداء امتحان السنة الأولى بكلية الحقوق بباريس، وهناك كان على

موعد مع حضارات جديدة ومشاهدات عديدة فى دول سبقتنا كثيرا ونحن أصل الحضارة ومنبعها الأصيل، لقد كانت إقامته فى باريس بعد أن أدى امتحانات السنة الأولى بنجاح فرصة كى يتعرف على العديد من ذوى الشأن يناقشهم ويستمع إلى آرائهم فيما يخص المسألة المصرية ومن هناك أرسل إلى شقيقه على بك فهمى كامل يقول: «لقد تعرفت هنا بطلاب روسيين وبولنديين ويابانيين فرأيتهم جميعا منكبين على العلم، ولكنى أؤكد لك أن المصرى أقواهم عارضة وأعلاهم ذكاء ولا ينقصه إلا الإرادة التى هى أس النجاح» .

ومن جديد عاد إلى مصر كى يواصل دراسته الحقوقية ويصدر مجلته الشهرية ويمارس واجباته الوطنية، وفى هذه الأثناء انضم مصطفى كامل إلى تلك الهيئة التى تضم صفوف المعارضة الوطنية والتى كان قد شكلها لطيف باشا سليم، وكانت تعقد اجتماعاتها فى منزله بسوق السلاح بالقاهرة وهناك التقى مصطفى كامل بأعلام العمل الوطنى؛ حيث استمع اليهم وتعلم منهم وقدم إليهم نفسه خير تقديم، بيد أن هذه الهيئة المعارضة والتى كانت تضع من قضية الجلاء وإزاحة الاحتلال البريطانى من مصرهدفا أسمى هى نفس اللجنة التى شهدت الغراس الحقيقى للحزب الوطنى الذى حمل الراية واللواء فيما بعد..

وقد شهد عام ١٨٩٣ صدور رسالة مصطفى كامل «أعجب ما كان فى الرق عند الرومان» وكانت عبارة عن مقارنة بين الحرية فى الإسلام والعبودية المقيتة عند الرومان، ثم صدور «رواية فتح الأندلس» حيث حاول مصطفى كامل أن يوقظ الأمة من خلال ذكر الصفات الحميدة للسابقين والتى كانت سببا فى تلك الفتوحات العظيمة .

وفى عام ١٨٩٤ سافر مصطفى كامل إلى باريس كى يؤدى امتحان السنة الثانية وبالفعل وكما العادة كان النجاح له حليفا، وأراد أن يؤدى امتحان السنة النهائية فى العام نفسه لكن مدرسة باريس رفضت حيث إن قواعد المدرسة لا تجيز ذلك، لكن أمام إصرار مصطفى كامل وبمساعدة أساتذته فى الحقوق الباريسية تمكن من تأدية الامتحان النهائى بنجاح بمدرسة الحقوق بمدينة تولوز الفرنسية، وبذلك حصل على شهادة ليسانس الحقوق فى نوفمبر عام ١٨٩٤ وكان فى العشرين من عمره.

وفى الشهر نفسه وقبل عودته إلى مصر أدلى مصطفى كامل بحديث إلى جريدة «جازيت دى تولوز» قال فيه: " أما السبب فى تمضيتى سنتين فى سنة واحدة فهو أنى وعدت شخصا أحترمه وهو أخى حسين واصف باشا كامل، ولأن إرادتى رغبت فى هذا العمل حتى أخرج من قيد الطلب إلى ميدان العمل والدأب، ومتى عدت إلى مصر أنضم فى الحال إلى صفوف المحامين لأنى ممن يزدرون الحكومة المصرية الحاضرة ولا يرون التوظف فيها أو الاستظلال بظلها، وكيف لا يكون الأمر كذلك والموظف منفذ لإرادة من اغتصب أثمن وأقدس شئ لديكم وهو الدستور " .

وكانت الجريدة قد نشرت موضوعا مطولاً عن مصر ومصطفى كامل جاء فيه.

" بين الذين نجحوا فى كليتنا الحقوقية شاب مصرى هو مصطفى كامل، وهذا الشاب لم يكن من الذين قيدوا فى الكلية من مبدأ دراسته الحقوق، بل هذه أول مرة له فيها، ومن يعلم أنه أمضى فى شهر يوليه امتحان السنة الثانية أمام كلية باريس بنجاح باهر فإنه يدهش دهشا كبيرا لهذا الذكاء النادر ومع ذلك لا يعجب قراؤنا، فإن تاريخ مصر يحوى الكثير من النظريات العلمية الكبيرة التى تدل على مبلغ تقدم العلوم والمعارف عند المصرين وسمو مداركهم من زمن بعيد وهؤلاء مواطنونا الفرنسيون الذين عاشوا فى مصر واختلطوا بأهلها وأبنائها بصفتهم أساتذة فى مدارسها قد صنفوا التآليف الكثيرة فى دفائن الذكاء المصرى، حتى رفعوه فوق كل ذكاء، والظاهر أن اعتدال الإقليم سبب من الأسباب التى أوجدت فى المصريين هذا الذكاء النادر، فأمة كهذه الأمة لها شهرة تاريخية كبيرة، فضلا علي ميل أبنائها إلى فرنسا ورغبتهم الأكيدة فى الحصول على العلوم الحديثة من منابعها الفياضة، لابد أن يسترجع مجدها هؤلاء الأبناء الذين نعجب بهم كثيرا ونجلهم إجلالا كبيرا وليس فى وسعنا بعد الذى شاهدناه من ذكاء مصطفى كامل إلا أن نهنئ مصر به، ونرجو له النجاح التام فى العمل الذى يريد به خدمة بلاده لأن الغيرة التى شاهدناها على محياه، والطلاقة التى تشير إلى مستقبله الباهر، والتى تدل بأوضح بيان على أنه من الذين وهبوا قوة الخطابة، لابد أن ترفعه إلى مصاف مشاهير الرجال، ثم لا ينسى القارئ أنه

يبدو على سمات مصطفى كامل الصفاء التام فى القول والعمل وأن قلبه لا يزال طاهرا كريما، وفوق ذلك فإن آدابه الشرقية الجميلة وتحيات نظراته الساحرة قد هذبت علمه الغربى تهذيبا لم نره فى حياتنا إلا قليلا، وإن مدينة تولوز لتفخر بأن تسجل فى عداد الذين تخرجوا في كلياتها شابا كهذا الشاب نقى الفؤاد، متصفا بكل ما يزن المرء من علم وأدب ورأى صائب ".

فى هذه الأثناء أرسل مصطفى كامل إلى شقيقه على بك فهمى كامل خطابا من باريس بتاريخ الثامن عشر من نوفمبر عام ١٨٩٤ يبشره فيه بحصوله على ليسانس الحقوق جاء فيه:

" واليوم أحمد الله كثيرا وأشكره شكرا جزيلا على فك قيد أسرى، والمن بإطلاقى فى ميدان الحرية، فقد أصبحت حاملا شهادة الحقوق، وعولت بمشيئة الله على الانتظام فى سلك رجال المحاماة، لأدافع عن حقوق الأفراد، ولو أتيح لى الخير وبلغت ما أتمنى لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع، لأن مصر وهى جنة الدنيا لا تستحق أن يداس شرفها بالأقدام ونصبح فيها نحن أبناءها الأعزاء ممقوتين غرباء " .

لقد كان سقف طموحاته وأمنياته أن يقف مدافعا عن وطنه وأمته، إن إيمانه لا يتزعزع بحق وطنه فى أن يحيا حياة كريمة وبأن وطنه العظيم صاحب الحضارات التى وعاها التاريخ أبدا لا يستحق الإهانة، أيقن أن الإنسان لابد أن يحيا من أجل رسالة، فهل هناك رسالة أشرف من تحرير الوطن؟ هل هناك رسالة أعظم من إشعال نار الوطنية بين جموع الأمة ؟ لقد حدد مصطفى كامل أهدافه جيدا واختار الطريق الذى يمكن أن يصل به إلى مايريد، لقد حدد أهدافه يوم أن وقف فى مواجهة وزير المعارف على باشا مبارك قائلا «وما يدريك ألا أكون عظيما أخدم وطنى غدا بأكثر مما تخدمه أنت اليوم».

وعاد مصطفى كامل إلى مصر فى ديسمبر ١٨٩٤بعد أن نال درجة الليسانس فى الحقوق، وأثناء رحلة العودة إلى مصر تقابل مصطفى كامل مع الكولونيل الإنجليزى بارنج شقيق اللورد كرومر على الباخرة التى أقلتهم إلى الإسكندرية وأجرى معه حوارا حول المسألة المصرية وعن ضرورة جلاء الإنجليز ورحيلهم دون قيد أو شرط بينما كان الكولونيل بارنج يتمسك بحق

الإنجليز بالبقاء فى مصر وفور وصوله إلى أرض الوطن أرسل مصطفى كامل بنص الحوار إلى جريدة الأهرام حيث تم نشر الحوار الذى أثار موجة من الحراك الوطنى بين المصريين وأثار اهتمام جميع الدوائر السياسية فى الداخل والخارج حول المسألة المصرية.

وعكف مصطفى كامل على دراسة المسألة المصرية من خلال هذا الكم الهائل من الكتب والمراجع التى أحضرها معه من أوربا والتى كانت تدور حول القضية المصرية.

وأصبح مصطفى كامل فى قلب الأحداث حيث كانت جريدة المؤيد وصاحبها الشيخ على يوسف وجريدة الأهرام وصاحبها سليم باشا تكلا بمثابة نافذتين يطل منهما مصطفى كامل على الجماهير المصرية المتعطشة للوطنية .

صواعق الاحتلال

وعندما أصدر اللورد كرومر والحكومة مرسوما بإنشاء المحاكم المخصوصة ، شعر الجميع أن ذلك يعد انتقاصا من السيادة الوطنية فكتب مصطفى كامل بجريدة الأهرام تحت عنوان «صواعق الاحتلال» مقالا هاجم فيه المرسوم وفضح مرامى الاحتلال وأهدافه، وهاجم خنوع وخضوع الحكومة المصرية لرغبات الاحتلال، وكان لهذا المقال أكبر الأثر فى انتشار موجات الغضب والضيق بين جموع الشعب المصرى.

وفور علم مصطفى كامل بحضور النائب الفرنسى دلونكل إلى مصر فى مارس ١٨٩٥ كان فى مقدمة مستقبليه فى مدينة الإسكندرية، حيث يعلم فضل الرجل فى فضح الاحتلال الإنجليزى ونقد ممارساته داخل قاعات البرلمان الفرنسى، وقد سبق لمصطفى كامل أن قابل الرجل فى باريس .

ألقى النائب الفرنسى العديد من الخطب أثناء زيارته لمصر وكان يصحبه مصطفى كامل فى كل جولاته ويقدمه للوطنيين المصريين على أنه صديق مصر ونصير القضية المصرية، وفى ختام الرحلة أقيم احتفال ضخم لوداع الرجل وألقى فيه مصطفى كامل خطابا بليغا باللغة الفرنسية شكر فيه ضيف مصر على دفاعه عن القضية المصرية فى جميع المحافل الدولية.

السفر إلى أوربا

أيقن مصطفى كامل أن السفر إلى أوربا لعرض وجهة النظر المصرية تجاه الاحتلال الإنجليزى هو السبيل الوحيد لتحريك المياه الراكدة، بيد أنه كان يهدف إلى خلق رأى عام دولى تجاه القضية الوطنية، لقد كان سائدا فى أوربا أن المصريين راضون عن الاحتلال ومتعاونون مع إدارته إلى أبعد الحدود، لكن مصطفى كامل وضع خطة شاملة لتغيير الصورة عن طريق علاقاته المتعددة والمتشعبة داخل المجتمعات الأوربية بين الكتاب والصحفيين والأدباء والساسة.

سافر مصطفى كامل فى مايو ١٨٩٥ إلى باريس كى يبدا رحلة تاريخية جديدة من العمل الوطنى وكالعادة ومن باريس أرسل إلى شقيقه على بك فهمى كامل يقول:

" إنى الآن أقضى ليلى ونهارى فى مخالطة كبار السياسيين لأنتفع منهم بخدمة مصر المحبوبة والحمد لله قد تشرفت بمعرفة الكثيرين ورأيت من الجميع استعداداً لمعاونتنا وتحريك المسألة المصرية وطرحها على بساطة المناقشة من جديد وإنى أجد من نفسى قوة فى هذه الأيام ما وجدتها فى حياتى كأن الله يريد أن يكون العامل لبلاده قويا حتى يقاوم هذه الحركة الهائلة بيد أنى أشعر من جهة أخرى بأن البلاد فى حاجة إلى رءوس وألسنة وأقلام مصرية كثيرة حتى يقرب للبعيد بما تحدثه فى العالم من تأثير ولى الأمل أن ينتشر الشعور فى البلاد بسرعة فإنه هو وحده رأس مال محررى الأمم والشعوب وبدونه لا يستطيع خادم مهما كانت أمانته وقوته أن يصل إلى الغرض المرجو ولذلك يجب على أغنياء البلاد الذين هم مدينون لمصر بما لديهم من ضياع شاسعة وأراض واسعة أن يؤسسوا المدارس العديدة على أساس من الدين القويم والتربية السليمة وأن يقوم كبار العلماء بنشر الكتب المفيدة ومهرة الكتاب بإنشاء الصحف الصادقة فى خدمة قطر هو أثمن وأغلى الأقطار ".

داخل مجلس النواب الفرنسى

بدأ مصطفى كامل يفكر.. كيف يستطيع أن يدخل إلى سراى مجلس النواب الفرنسى لعرض قضية بلاده ؟

بيد أن الفكرة الرائعة التى توصل اليها مصطفى كامل كانت سببا فى تسليط الأضواء على القضية، كانت فكرته أن يرسم لوحة رمزية تعبر عن القيود التى تكبل الأمة المصرية وهى تنادى وتستصرخ فرنسا كى تأتى وتفك أسرها وتقوم بكسر قيودها كما سبق وساعدت كلا من أمريكا وإيطاليا واليونان وبلجيكا، وفى أسفل اللوحة كتب أبيات من الشعر بالعربية وترجمها إلى الفرنسية.

أفرنسا يا من رفعت البلايا عن شعوب تهزها ذكراك

انصرى مصر إن مصر بسوء احفظى النيل من مهاوى الهلاك

وانشرى فى الورى الحقائق حتى تجتلى الخير أمة تهواك

وقام مصطفى كامل بطبع آلاف النسخ من تلك اللوحة وكتب رسالة إلى مجلس النواب الفرنسى وتوجه وسط رهط من المصريين المقيمين فى باريس واستقبلهم المسيو بريسون رئيس مجلس النواب واستلم الكتاب واللوحة وأبدى تعاطفا مع الحقوق المصرية وقام مصطفى كامل بتوزيع نسخ من اللوحة والكتاب إلى جميع الصحف والمجلات وجميع وسائل الإعلام العالمية، بالإضافة إلى توزيع نسخ إلى جميع أعضاء مجلس النواب الفرنسى وجاء فى الكتاب:

" حضرة الرئيس: إنى بأشد انفعال يخالج القلب تأثيره أتشرف بأن أقدم لمجلس النواب الذى أنت له نعم الرئيس هذا اللوح الذى يمثل مصر طالبة من فرنسا أن تكون لها خير عضد يساعدها على استرجاع حريتها واستقلالها وإن هذا اللوح يمثل لدى مجلس النواب حالة أمة ناشئة غيورة على حريتها المسلوبة بغير حق منذ ثلاثة عشر عاما ولقد برهنت الأمة المصرية ياحضرة الرئيس مع ما يعتريها من المصائب الشديدة على سكينة وصبر عجيبين استمالت بهما قلوب الأمم الأوربية ولكن لما اعتراها النَّصَب جاءت مستغيثة بفرنسا هذه الدولة العظيمة التى أعلنت حقوق الإنسان والذى سافرت به منذ قرن فى سبيل التقدم والمدنية، جاءت الأمة المصرية تستغيث بهذه الأمة الكريمة التى حررت عدة من الأمم فهل تجاب إلى استغاثتها وتضرعها، وهل لفرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها فى العالم الإسلامى الواثق بها على أن ذكر اسم مصر عندما تكون حرة مستقلة بجانب أسماء الأمم العديدة التى حررتها فرنسا ليس بالفخار القليل لها، فلتحيا فرنسا محررة الأمم ".

بيد أن هذا العمل كان بمثابة نقلة نوعية هائلة فى اسلوب العمل لنشر القضية المصرية لقد أصبح مصطفى كامل رمزا مصريا ونموذجا مشرفا للعبقرية المصرية لقد أصبح حديث الرأى العام الأوربى واصبحت القضية المصرية على رأس كل الأجندات السياسية فى أوربا.

بعد هذا الحراك السياسى قالت جريدة الإكلير الفرنسية:

" لابد أن سيكون لمصطفى كامل المصرى دور مهم فى المسألة المصرية لأن أسلوبه السياسى قائم على الصراحة والحق، فهو يذكر بشجاعة وجلاء تلك المظالم الواقعة على المصريين من جراء الاحتلال الإنجليزى الذى كلما مرت عليه السنون تجسمت فيه صروف الاعتداء على حقوق الناس "

بينما قالت جريدة اكسترا النمساوية:

" إن فيينا اليوم تستقبل ضيفا كريما هو مصطفى كامل أحد كتاب مصر الفضلاء وهو شاب حاد الفكر بعيد النظر اشتهر اسمه فى وطنه وفى أوربا أخيرا، وهو الآن يجوب القارة الأوربية طالبا باسم الوطنيين المصريين بتحرير بلاده من ربقة الاحتلال الإنجليزى، وبديهى أن الأمة التى ينتسب إليها هذا الكاتب الشرقى قد استحقت بما أفادته من معاهد المدنية وبما لها من الذكاء الفطرى النادر المثال أن تعد فى مصاف الأمم المتمدنة فهى بذلك لا ترضى أن تكون تحت سيطرة حكومة أجنبية تعمل فى مصر كل ما تريده ".

وبعد إلقاء مصطفى كامل أول خطاب له فى أوربا علقت جريدة جريدة الدبيش الفرنسية:

" إنى واثق كل الثقة بأن هذا المدافع عن حقوق مصر المسلوبة سيغرس لا محالة بعمله بذور الوطنية الصالحة حتى يقضى الشعب المصرى لبانته ويسمع يوما الحكم له على إنجلترا، ولذلك أدعو زملائى أصحاب الصحف إلى تهنئة زميلنا الشاب الغيور منذ الآن ".

أول خطبة سياسية فى أوربا

بعد كل هذه الأحداث كان طبيعيا أن يكون مصطفى كامل أول مصرى يقف خطيبا أمام الأوروبيين وكان ذلك فى الرابع من يوليه عام ١٨٩٥ بمدرج كلية الآداب بتولوز، لقد وقف مصطفى كامل يخطب بالفرنسية فى شعب يحترم

لغته ويعشق من يتحدث بها، لقد كانت القضية المصرية والمسألة المصرى هى شغله الشاغل وهى عمله الأوحد فكانت فرصته فى هذه الخطب كى يوضح ويشرح حقيقة الوضع فى مصر المحروسة، وكان تعاطف الحضور وتفهمهم الكامل لمساوئ الاحتلال الإنجليزى هو النتيجة الطبيعية لخطب مصطفى كامل.

الجولات الأوربية

بدأ مصطفى كامل يتحرك من باريس إلى فيينا عاصمة النمسا، ثم إلى العاصمة الألمانية برلين ثم إلى الأستانة فى تركيا ثم إلى بودابست عاصمة المجر وقد تفاعلت الصحف الأمريكية مع جهاد مصطفى كامل وقالت جريدة «نيويورك هيرالد»:

" إن العالم المتمدن يسمع فى هذه السنين الأخيرة صوتا رنانا وطنيا من الشرق، وهو صوت سليل الفراعنة «مصطفى كامل» هذا الصوت الذى نسمعه بكل انشراح ونقرؤه بكل إمعان، ومما يدهش أن الصحافة الأوربية عامة والإنجليزية خاصة لا تعير هذا النداء الحق ما يستحقه من التشجيع " واستمرت الجريدة على نفس المنوال حتى قالت " خلقت انجلترا مسألة الترنسفال لتشغل ألمانيا، وخلقت مسألة الأرمن واليونان لتشغل تركيا، كما تسعى لحفر بئر لروسيا فى الشرق الأقصى، وكل هذه المسائل تعطل كثيرا عرض مسألة مصر على بساط البحث وإعطائها حقها بين الأمم الحرة.. " وأضافت الجريدة " وإذا سأل الإنجليز «مصطفى كامل» أين أسلحة مصر وبواخرها وذهبها لتتغلب أمته على انجلترا وتملك مصر؟ فالجواب عندى عن ذلك : إن بواخر مصر هى نيلها وأسلحتها إرادة أبنائها وذهبها جمال وضعها، فليتخذ أبناؤها فوق هذه المزايا من العلم دروعا ولينازلوا الإنجليز بثبات الساكن الصابر.. إن غرض مصطفى كامل شريف فهو رجل إذا تكلم أسمع العالم صوته إنه نابغة ككل عظماء الرجال الذين يهبهم التاريخ من حين إلى حين إلى الأمم المضطهدة المظلومة ليهدوها طريق السداد.. إن مصطفى كامل لا يقل علما عن أعظم سياسى من ساسة أمريكا وأوربا.. إن خطوة إلى الأمام ولو كل قرن فى سبيل تحرير الوطن لخير من لا شئ فليسر مصطفى كامل ومواطنوه إلى حيث يجدون بعون الله " مصر رمسيس " سيدة مهيبة ".

حادثة دنشواى

جزى الله الشدائد كل خير.. ورب ضارة نافعة كانت حادثة دنشواى نقطة فاصلة بين خنوع وثورة!.. بين انبطاح شعب واستسلامه.. وبين غضبته الوطنية العاتية التى فجرت ما كان كامنا.

وحادثة دنشواى وما ارتكبه الإنجليز فيها من فظائع وموبقات تبقي أبد الدهر نقيصة للبشرية جمعاء وبما يفعله الإنسان بأخيه الإنسان، لقد بدأت المأساة بالاعتداء على كرامة المصريين وانتهت بإراقة دمائهم ، ففى مشهد جنائزى حزين أعدم شنقا أربعة من المصريين الشرفاء وسط صرخات ابنائهم وذويهم دون ذنب ولا خطيئة، غير أن التكبر والتجبر كانا سيد الموقف، بيد أنى لن أقف كثيرا عند تفاصيل الحادثة والحكم الجائر والتفاصيل المؤلمة للحظات تنفيذ الحكم، لكنى أحاول توضيح أثر هذه الحادثة فى بعث الروح الوطنية التى خمدت وظن الكثيرون ألا تقوم لها قائمة..

كان مصطفى كامل فى أوربا عندما أريقت دماء المصريين الأبرياء فى أجران قرية دنشواى، وكانت مصر يومئذ مشتعلة المشاعر ولا أجد خيرا من وصف قاسم أمين لهذه المشاعر حيث يقول «رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا وزورا مخنوقا، ودهشة عصبية بادية فى الأيدى وفى الأصوات، كان الحزن على جميع الوجوه، حزنا ساكنا مستسلما للقوة، مختلطا بشئ من الدهشة والذهول، ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة، ولكن هذا الاتحاد فى الشعور بقى مكتوما فى النفوس لم يجد سبيلا يخرج منه فلم يبرز بروزا واضحا حتى يراه كل إنسان»

وهنا يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى «فهذا اليأس وهذا السكوت وهذا الاستسلام والوجوم الذى استولى على النفوس بعد حادثة دنشواى، وهذا الشعور الذى بقى مكتوما لم يكن لينهض بالأمة ولا ليوقظ فيها روح الكرامة والإباء، بل كان من شأنه لو دام أن يزيدها يأسا وهوانا واستسلاما ولكن عبقرية مصطفى كامل هى التى أبدلت من هذا اليأس قوة ومن هذا السكون حياة وثورة، لقد كان لابد من صوت عال يهز قلب الإنسانية ويشهد العالم

على تلك الفظائع ويستثير الرأى العام فى مصر وأوربا ضد الاحتلال، لقد نهض مصطفى كامل بكل قوته كى يسمع العالم صوت مصر ويعلن حربا شعواء على الاحتلال وسياساته فكتب فى جريدة الفيجارو الفرنسية الشهيرة مقالا طويلا باللغة الفرنسية ثم نشر مترجما إلى العربية فى «صحيفة اللواء» وكان المقال بعنوان:

«إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن»

ونورده نصا لأهميته التاريخية الشديدة...

" لقد حدثت حادثة مؤلمة فى قرية من قرى الدلتا بمصر تدعى "دنشواى" تحركت بسببها عواطف الإنسانية فى العالم كله، وقام رجال أحرار الفكر مستقلو الأخلاق والأطوار فى انجلترا رافعين أصواتهم سائلين عما إذا كان يوافق كرامة الدولة البريطانية وشرفها ومصلحتها أن تسمح بأن يرتكب باسمها أمر ظالم قاس.

" وإنه لمن الواجب علىّ الذين يشغفون حقيقة بالإنسانية والعدل، أن يدرسوا هذه المسألة ويصدروا فيها حكمهم العادل، وهى المسألة الشاغلة لأمة بأسرها !

" فقد ترك ضباط من الإنجليز فى يوم ١٣ يونيه الماضى معسكرهم بالقرب من دنشواى بمديرية المنوفية، وقصدوا صيد الحمام فى الأملاك الخصوصية للأهالى، فأنذر شيخ فلاح المترجم المرافق لهم بأن الأهالى قد استاءوا فى العام الماضى من صيد الضباط الإنجليز لحمامهم، وأنهم ربما زادوا من غضبهم وسخطهم لو عادوا إلى الصيد فى هذا اليوم!

" ورغمًا من هذا الإنذار فإن الضباط أخذوا يصطادون، وأطلقت العيارات النارية، وجرحت امرأة، وحرق جرن، فاجتمع الفلاحون من كل مكان، ووقعت مشاجرة بينهم وبين الإنجليز جرح هؤلاء فيها ثلاثة من المصريين وجرح المصريون ثلاثة من الضباط الإنجليز، وقد تخلص أحد المجروحين، وهو الكابتن "بول" من المعركة، وقطع بكل سرعة مسافة خمسة كيلو مترات، حيث كانت حرارة الشمس بالغة ٤٢ درجة، وسقط بعد ذلك ميتًا بضربة الشمس وما علم العساكر الإنجليز بما وقع لضباطهم حتى هجموا على قرية سرسنا المجاورة لدنشواى، وقتلوا فلاحًا بدق رأسه ".

" هذه هى الوقائع، وما علمها أصحاب الأمر من الإنجليز حتى فقدوا الرشد، وثاروا من قيام المصريين بالمدافعة عن أنفسهم وعن أملاكهم ! وبدلا من أن ينظروا إلى الحادثة بسكون جأش ككل المشاجرات والمعارك، بالغوا فيها وجسموها، وأعلنت الصحف المخلصة للاحتلال قبل المحاكمة بأن العقوبات والعبرة التى ستضرب للناس ستكون هائلة ! فلم يكن العدل هو المنشود فى المسألة، بل الانتقام الفظيع ".

ونشرت نظارة الداخلية بأمر المستر متشل المستشار الإنجليزى، قبل المحاكمة بأسبوع بلاغًا رسميًا أثقلت فيه كواهل المتهمين بالتهم، وقصدت صراحة التأثير فى المحكمة والرأى العام، وبلغ من احتقار إحدى الصحف القائمة بخدمة الاحتلال للعدالة أنها نشرت خبر إرسال المشانق إلى دنشواى قبل المحاكمة، وقد راع الشعب كل ذلك، فأخذ يتساءل عن الحكم الذى ينتظر صدوره بعد مظاهرة كهذه المظاهرة.

وقد اجتمعت المحكمة فى يوم ٢٤ يونيه، وأى محكمة ؟ محكمة استثنائية لا دستور يقيدها ولا قانون يربطها، لقضاتها ولا تستأنف أحكامها، ولا تقبل العفو ! وأن المرسوم الذى صدر بتشكيلها فى عام ١٨٩٥ - بناء على ضغط اللورد كرومر - ذلك الضغط الذى لا يسمح للحكومة الخديوية مطلقًا بإظهار أى مقاومة - يحمل قارئه على الظن بأن الجيش الإنجليزى الذى ألقت إليه انجلترا أمر تأييد الأمن فى مصر، فى خطر مستمر جعله فى حاجة إلى محكمة كهذه المحكمة أو لآلة إرهاب.

قضت هذه المحكمة ثلاثة أيام فى نظر القضية، وتبين أن الضباط الإنجليز هم الذى هاجموا الفلاحين بصيدهم فى ممتلكاتهم، وبجرحهم إحدى نسائهم، وأن الفلاحين هجموا على الإنجليز بوصف أنهم صيادون يختلسون الصيد، لا ضباطا بريطانيين ! واعترف أمام المحكمة أطباء إنجليز بينهم الدكتور نولن الطبيب الشرعى للمحاكم بأن الكابتن "بول" مات بضربة الشمس، وأن جراحه لم تكن كافية وحدها لإحداث الوفاة !

ولم تترك المحكمة إلا ثلاثين دقيقة لأكثر من خمسين متهمًا ليقولوا ما عندهم، وأبت سماع أقوال أحد رجال البوليس، حيث أكد أن الضباط الإنجليز أطلقوا العيارات النارية على الأهالى، وبنت حكمها على تأكيدات

الضباط الذين كانوا السبب فى المعركة، والذين يعتبرهم العدل فى كل بلد خصومًا للمتهمين.

وفى يوم ٢٧ يونيه صدر الحكم بشنق أربعة من المصريين، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين، وبالأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما على واحد، وبها لمدة سبع سنوات على ستة، وبالحبس مدة عام مع الجلد على ثلاثة، وبالجلد على خمسة، و قد جلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلدة بكرباج له خمسة ذيول.

وقررت المحكمة فى حكمها تنفيذ الحكم فى اليوم التالى ! بحيث لم يمض إلا خمسة عشر يومًا بين الواقعة وتنفيذ الحكم.

ففى الساعة الرابعة بعد نصف الليل من يوم الأربعاء ٢٧ يونيه جئ بالأربعة المحكوم عليهم بالشنق، والثمانية المحكوم عليه بالجلد «عفت المحكمة عن واحد من المحكوم عليهم بالجلد لأن الطبيب قرر ضعف بنيته وعدم استطاعته تحمله» من شبين مقر مديرية المنوفية إلى قرية «الشهداء» التى تبعد أربعة كيلو مترات من دنشواى، ولبثوا هناك تسع ساعات ينتظرون الانتقام المروع ! وفى الساعة الأولى بعد ظهر يوم الخميس ٢٧ يونيه جئ بهم إلى دنشواى، وكان أصحاب الأمر من الإنجليز قد أصروا على تنفيذ الحكم فى محل الواقعة وفى الساعة التى وقعت فيها.

نصبت المشانق، ووضعت آلات الجلد والتعذيب فى وسط مساحتها ٢١٠٠ متر، وأحاطت عساكر "الدراجون" الإنجليزية بالمحكوم عليهم، والتفت الخيالة المصرية حول الإنجليز، وتولى المستر متشل مستشار الداخلية ومعه مدير المنوفية أمر التنفيذ، وقد تقدم إليهما ابن أول المحكوم عليهم بالشنق سائلا مقابلة والده ليتلقى وصاياه الأخيرة، فرفضا قبول هذا الرجاء الذى هو أعز ما يرجوه الإنسان ويحتمه الشرع والعدل.

وفى منتصف الساعة الثانية امتطت الجنود الإنجليزية خيولها وشهرت سيوفها وبدئ بعد ذلك بدقيقة فى الشنق.

فشنق رجل، ولبث عائلته وأقاربه وكل أهالى القرية وهم عن بعد يملأون الفضاء بصراخهم الممزق للقلوب، وجلد اثنان أمام الجثة.

وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات، واستمر ساعة من الزمن، منظر وحشى مهيج للعواطف، بكى منه بعض الحاضرين الأوروبيين بدموع الحنان، وأبدوا النفور الشديد مما رأوا وذهب كل واحد يكرر كلمة أحد المشنوقين.

لعنة الله على الظالمين ! لعنة الله على الظالمين.

إن يوم ٢٨ يونيه من عام ١٩٠٦، سيبقى ذكره فى التاريخ شؤمًا ونحسًا، وهو خليق بأن يذكر فى عداد أيام التناهى فى الهمجية والوحشية.

عمت مصر كلها عواطف الانفعال والسخط عندما استفاضت أنباء تنفيذ الحكم فى دنشواى، ولقد كان من المستحيل على أعداء الإنجليز أن يصلوا إلى النتيجة الحالية بعد جهاد خمسين عامًا، ولكن من العجيب أن يكون الموجدون لها هم رجالا من الإنجليز وقد أنشأ الشعراء المصريون عن حكم دنشواى أشعارًا تخلد ذكرى المناظر الوحشية التى أهينت فيها المدنية والإنسانية والعدل بأقسى الصور المهيجة للضمائر والنفوس.

وإنى جئت اليوم أسأل الأمة الإنجليزية نفسها والعالم المتمدن، إذا كان يصح التسامح فى إغفال مبادئ العدل وشرائع الإنسانية إلى هذا الحد.

جئت أسأل الإنجليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها أن يقولوا لنا إذا كانوا يرون بسط النفوذ الأدبى والمادى لانجلترا على مصر بالظلم والعسف وصنوف الهمجية.

جئت أسأل الذين يجاهرون فى كل آن ذاكرين الإنسانية، مالئين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط إذا حدثت فظائع فى بلاد أخرى دون فظيعة دنشواى ألف مرة أن يثبتوا صدقهم وإخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفى وحده لأن يسقط إلى الأبد تلك المدنية الأوروبية فى أعين العالم كافة.

جئت أسأل الأمة الإنجليزية إذا كان يليق بها أن تترك الممثلين لها فى مصر يلجأون بعد احتلال دام أربعة وعشرين عامًا إلى قوانين استثنائية ووسائل همجية بل وأكثر من همجية، ليحكموا مصر ويعلموا المصريين ماهية كرامة الإنسان.

إنى معجب بكل إخلاص وشكر واعتراف بالجميل بالنواب والكتاب الإنجليز

الذين نادوا بأعلى صوت معلنين مزيد غضبهم من هذه الرواية المحزنة الشنيعة التى مثلت فى مصر ! ولكن لما رأى السير إدوارد جراى أن الرأى العام انقاد لهم وأنه قضى على سياسة اللورد كرومر، وقف فى مجلس العموم وتكلم عن التعصب الإسلامى المزعوم فى مصر، وسأل النواب بكل رجاء وإلحاح ألا يشغلوا بمسائل مصر حتى لا يضعفوا سلطة الحكومة المصرية، أو بعبارة أخرى سلطة اللورد كرومر الحاكم المطلق فى مصر، أمام خطر صرح لنا علنًا بأنه موهوم !!

إن هذا الخطر الموهوم ليس فى أيدى أصحاب الأمر من الإنجليز إلا وسيلة لتسويغ هذه الفظيعة المستنكرة، وفظائع أخرى تقع فى المستقبل !!

إنه لا وجود لهذا الخطر وما الغرض من هذه الفظائع إلا إحداثه !

وإنى أؤكد بحق أقدس شئ فى الدنيا أنه لا وجود للتعصب الدينى فى مصر، نعم إن الإسلام سائد فيها لأنه دين الأغلبية العظمى، ولكن الإسلام شئ والتعصب شئ آخر، لقد انخدع السير إدوارد جراى فى هذه المسألة ! وإنى أرجوه أن يفكر لحظة فيما يأتى : هل لو كان فى مصر تعصب حقيقة أكانت تستطيع انجلترا أن تحاكم ٥٢ مسلمًا أمام محكمة استثنائية مؤلفة من أربعة قضاة مسيحيين وواحد مسلم ؟

هل تنفيذ الحكم فى دنشواى بتلك الصورة الهمجية لم يكن كافيًا وحده لإشعال نار التعصب المدمرة الصاعقة لو كان له وجود ؟

ألم تكن كل هذه التحريضات كافية لإخراج الشعب المصرى عن أطواره وانفجار ذلك التعصب المزعوم لو كان هناك تعصب حقيقة.

ولماذا لم يثر ذلك التعصب الذى تكلم عنه السير إدوارد جراى معارك كمعركة دنشواى أثناء مسألة طابة، حيث كانت الأغلبية الكبرى من المصريين فى جانب تركيا، مع أن الجنود الإنجليزية كانت تمر دائمًا فى كل جهة بكل أمان واطمئنان.

لقد أثبتت المرافعات فى قضية دنشواى بكل إفاضة وبيان أنه لا دخل للإسلام فيها، وأن الضابط الإنجليز وجدوا عند بعض الفلاحين المسلمين مساعدة وتعضيدًا.

إنه يحق للمصريين أن يطلبوا تحقيقًا دقيقًا كاملاً فى المسألة، وإن مصر على بعد يومين من أوروبا، فليأت إليها الإنجليز المحبون للعدل الراغبون فى عدم سلب الشرف البريطانى، وليذهبوا إلى المدائن والقرى وليروا بأعينهم كيف يعيش المسيحيون من كل جنس مع الفلاحين والمصريين كافة، وليقتنعوا بأنفسهم بأن الشعب المصرى ليس متعصبًا أبدًا ولكنه شعب كريم أبى، ينشد العدل والمساواة، ويطلب أن يعامل كشعب حر لا كقطيع من الأغنام وأنه يعمل بكل عزيز لديه لتحقيق هذا المطلب الأسمى، مطلب الحرية والاستقلال.

أجل، إن الشعب المصرى شاعر الآن بكرامته، وذلك أمر لا يمكن إنكاره بأى حال، إنه يطلب معاملة أبنائه أسوة بالأجانب، وهو طلب عدل وغير مبالغ فيه أبدًا !

لقد تكلم السير إدوارد جراى فى موضوع حماية الأوروبيين ضد المصريين، ولكن هل له أن يبين لنا الخطر المهدد للأوربيين القاطنين مصر ؟ ألا يعيشون فى أتم صفاء مع المصريين ؟ ألا تحميهم الامتيازات الأجنبية ؟ ولكن من يحمى المصريين ؟ ألا نرى فى بعض الأحيان مجرمين من الأجانب - يحتج النزلاء جميعًا على جرائمهم - يعتدون على المصريين ويقتلونهم ثم يفلتون من عقاب المحاكم المصرية ؟ وأى عقاب ستعاقب به الجنود الإنجليزية التى قتلت الفلاح على مقربة من دنشواى وكذلك الضباط الذين جرحوا امرأة وثلاثة رجال ؟

إن اللورد كرومر دافع عن نفسه فى تقريره الأخير ضد الذين يطعنون على السلطة المطلقة التى يتصرف بها فى أمور مصر قائلا : إن البرلمان والرأى العام فى إنجلترا يراقبان أعماله، كما أن الصحافة المصرية تراقبها أيضًا.

ولكنها مراقبة باطلة لأنه ما كاد البرلمان البريطانى يعترض ويحتج على أعمال وحشية كهذه، حتى قال اللورد كرومر للسير إدوارد جراى إن التعصب مخيف على شواطئ نهر النيل، وإنه يجب على البرلمان ملازمة الصمت ! وبذلك لا يوجد مانع يمنع اللورد كرومر من حكم مصر بأشد القوانين مخالفة للعدل والإنصاف !!

لذلك يقضى شرف الأمة الإنجليزية عليها بأن توازن بين الأقوال الرسمية وأقوالنا، وتقوم بإجراء تحقيق دقيق ودراسة القضية المطروحة أمامها الآن بكل استقلال.

لقد قضى اللورد كرومر الأعوام الطوال وهو يؤكد أن الأمراء والكبراء فى مصر هم وحدهم المبغضون للاحتلال، لأنه سلبهم سلطتهم، أما الفلاحون فإنهم يحبون حبًا جمًا ويدعمون بدوام العصر الحاضر.

وبناء على ذلك فإنه لم يكن اعتداء فلاحى دنشواى على الضباط الإنجليز إلا لأنهم رأوا إحدى نسائهم مجروحة، فالحكم والتنفيذ يكونان قد بلغا أقصى درجات البشاعة، وبحق العالم كله أن يقابلهما بمزيد السخط، وإذا كان الأمر على العكس وأتى الفلاحون ذلك طوعًا لعاطفة حقد دينى أو وطنى فيتحتم على اللورد كرومر أن يعترف بأنهم يمقتون الاحتلال وأن إدارته أدت إلى إخفاق ليس له مثيل ويحق عندئذ للمستر "ديلون" أن يقول مؤكدًا : "إن خطبة السير إدوارد جراى هى أتعس شرح لمركز انجلترا وسياستها فى مصر".

على أن الذين يقطنون مصر كافة ويحبون الصدق والحقيقة، يعترفون بأن حادثة دنشواى لم تكن مطلقًا نتيجة حركة عدائية ضد الأوروبيين، وأن المصريين هم أكثر أمم الأرض اعتدالاً وتسامحًا.

إن الخطة الوطنية التى يجرى عليها أصحاب النفوذ والتأثير فى الرأى العام المصرى واضحة جلية، فنحن نريد بفضل التعليم ونور التقدم إنهاض شعبنا وتعريفه حقوقه وواجباته، وإرشاده إلى المقام اللائق به فى العالم، وإننا أدركنا من أكثر من قرن أنه لا يمكن للأمم أن تعيش عيشة كرامة إذا لم تسلك طريق المدنية الغربية وأننا أول شعب شرقى صافح أوروبا وأننا مستمرون على السير فى الطريق الذى سلكناه وإننا بالتعليم والتقدم والاعتدال والفكر الحر الراقى ننال احترام العالم وحرية مصر، ومقصدنا الذى نرمى إليه هو استقلال وطننا، ومحال أن يوجد شئ ينسينا ذلك المقصد الأسمى.

إن عطفنا على الشعوب الإسلامية لأمر طبيعى ولا تعصب فيه، وإنه لا يوجد مسلم مستنير واحد يظن لحظة واحدة أنه من الممكن اجتماع الشعوب الإسلامية فى عصبة واحدة ضد أوروبا، والذين يقولون ذلك إما جاهلون أو راغبون فى إيجاد هاوية بين العالم الأوروبى والمسلمين.

إنه لا سبيل لنهضة الشعوب الإسلامية بغير حياة إسلامية جديدة تستمد قوتها من العلم والفكر الواسع الراقى.

وإن لمصر خاصًا بها فى الشرق، فهى التى وهبت العالم قناة السويس، وفتحت السودان للمدنية، وفيها طبقة راقية الفكر، وتقدم الأمة بالأمة يمشى فيها سراعًا، ومن المستحيل أن تحكم مصر وهذا حالها كما تحكم بلاد بعيدة مختبئة فى أعماق إفريقية وليس بينها وبين أوروبا اتصال، ألم ير الناس الإنجليز ينفعلون ويهيجون ضد ما يجرى فى جهات الكونجو وغيرها من البلاد ؟ فكيف يسمحون إذن بحدوث أفظع الجرائم فى مصر.

إنه من الواجب على أوروبا كلها أن تهتم بمصر فإن صوالحها فيها جسيمة والكثيرون من رعاياها جمعوا ثروات كبيرة فيها، وإن القوانين الاستثنائية والاعتساف لا يؤديان إلا إلى هياج الشعب المصرى وخلق عواطف عنده مخالفة بالمرة لعواطفه الحالية.

إننا نطالب بالعدل والمساواة والحرية، نطلب دستورًا ينقذنا من السلطة المطلقة، ولا شك أنه لا يمكن للعالم المتمدن وللرجال المحبين للحرية والعدل فى انجلترا إلا أن يكونوا معنا ويطلبوا مثلنا ألا تكون مصر - تلك التى وهبت للعالم أجمل وأرقى مدنية - أرضًا تمرح الهمجية فيها، بل بلادًا تستطيع المدنية والعدالة أن يبلغا فيها من الخصوبة والنمو مبلغ خصوبة أرضها المباركة.

لقد ظل مصطفى كامل ينمى الروح الوطنية لدى المصريين بكل السبل التى مهدها بنفسه، لقد كان يؤمن بأن محاربة اليأس والإحباط هو شغله الشاغل فالأمة التى يتمكن منها اليأس والإحباط لن تقوم لها أبدا قائمة.. يقول الزعيم الشاب مصطفى كامل محاربا اليأس والإحباط «عجبا وألف مرة عجبا !!

كيف تسئ الظن بنفسها أمة تغلبت على الأيام والحوادث، وقاتلت الليالى وما ولدت، وقاومت تيارات الزمان أجيالا طوالا، وأوقفتها وهى فى منتهى قوتها ؟ كيف يقول بعض أبناء هذه الأمة عنها أنها ماتت وزالت آثارها وأصبحت نسيا منسيا وهى التى إهتز لمجدها الشرق والغرب وسارت الركبان بأحاديث مفاخرها كيف يقضى اليائسون عليها».

وقال فى السياق نفسه: «لا يؤلم المصرى المحب لبلاده مثل ما يسمعه ذات اليمين وذات الشمال من سوء مظنة المصريين بأنفسهم وتناقل هذه الأقوال

المميتة للخواطر.. القاتلة لكل حركة وإرادة من الكبير إلى الصغير وشيوعها حتى بين الأطفال الناشئين.. ما هذا السم القاتل الذى تناولته الأمة عن طيب خاطر ؟ ما هذا البلاء المدمر للبلاد الذى حل بها وتساقط على رءوس أهلها وهم إليه ناظرون.. كيف تنسى هذه الأمة العزيزة التى فتحت وقهرت وانتصرت وبهرت العالمين بقدرتها وشدة باسها» .

لقد كان الزعيم يحارب على كل الجبهات فى الخارج حيث نشر قضية بلده وجذب المؤيدين وأحرج المحتلين.. وفى الداخل وهذا هو الأهم كان يحاول أن يوقظ امة نائمة.. كان يريد أن يبعث الأمل فى أمة سيطر عليها الإحباط واليأس يقول الزعيم «يقول البعض إن المناداة بالوطنية كلام فى كلام ونسى ذلك القائل إن أهم الأعمال البشرية وأرقى الجهود الإنسانية تنحصر فى إدخال عقائد جديدة فى النفوس لإن العقيدة تحرك الجبال» .

رحلة الحق

فى نهايات عام ١٩٠٧ اشتد المرض بمصطفى كامل، وبدأ فى التنقل بين باريس وجنيف للاستشفاء ثم يعاود الرجوع إلى محبوبته وعشقه الأول والأخير مصر فلا يجد راحة هنا ولا هناك لكنه كان يتساءل «ترى أسيمتد بى الأجل حتى أرى أول ثمار زرعى.. لست أريد أن أجنى مما عملت ولكن أريد أن يطول الأجل حتى أغرس وأزرع».

وبعد صراع مرير مع المرض، فى الوقت نفسه الذى كانت تتوالى فيه الإنجازات والأعمال الوطنية كان القضاء المحتوم بعدما حلت الروح الطاهرة قيود الجسد النحيل، وكانت وفاته حياة لأمة بأسرها يقول قاسم أمين هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق، المرة الأولى كان يوم تنفيذ حكم دنشواى، أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب «اللواء» فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى قوة جماله وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر المصرى، هذا الإحساس الجديد، هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة من دمها وأعصابها هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة، هو الشعاع الذى يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة هو المستقبل.



التربية والتعليم فى فكر مصطفى كامل

أيقن مصطفى كامل أن النهوض بالتربية والتعليم هو البوابة الوحيدة التى يمكن أن تنطلق منها الأمة إلى تحقيق طموحاتها الاستقلالية والتنموية.. فبدون تربية لن يكون هناك تعليم وبدون تعليم لن يكون هناك رجال يحملون مشاعل العمل والكفاح.

كانت حركة مصطفى كامل تعتمد على إيقاظ الشعور الوطنى من مرقده، لقد قرأ مصطفى كامل تاريخ محمد على جيدا فعلم أن كل الإنجازات التى تحققت ما كان لها أن تتحقق إلا من خلال الاهتمام بالتربية والتعليم، بيد أن اهتمامه بالتربية والتعليم لم يكن اختيارا بل كان حتميا وضروريا فى أمة طال نعاسها وتمكن اليأس والقنوط من وجدانها، ويحضرني قوله لمدام جولييت «إنى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة» حيث تلمس مدى عمق رؤيته ووضوح هدفه لكنه يعلم أن الاحباط قد تملك من الأمة فقال «فاعملوا إذن والأمل ملء قلوبكم ولا تيأسوا طرفة عين، بل ليزدد عملكم بازدياد الخطر، شأن ذوى النفوس الشريفة والمقاصد العالية» إنه يحاول أن يواجه كل مواطن مصرى نفسه بنفسه فى لحظة صدق مع النفس فيقول :

«تنزلوا أيها المصريون إلى أعماق قلوبكم واسألوا سرائركم هل أنتم فى شقاء أم فى هناء ؟»

ويحاول أن يستفز بنى وطنه فيقول «تمر الحادثات المزعجات علينا، وتتفطر لها قلوبنا، وتحزن منها أشد الحزن أفئدتنا ثم لا نجد لسانا ينطق بما يختلج به الجنان، بل ترى سكوتا فى سكوت واستسلاما في استسلام، فيزداد البلاء ويتضاعف الشقاء» ويصل انتقاده للأمة مداه فيقول:

«لقد بالغنا فى الاستسلام وأبدعنا فيه كل إبداع، وما جنينا إلا الخيبة والفضيحة والعار» .

لكن مصطفى كامل حاول أن يبث الأمل ويبدد اليأس فقال «إنى أشد الناس أملا فى مستقبل أمتى وبلادى، وأرى الشعب الذى أنا منه جديرا بالرفعة

والسمو، حقيقا بالمجد والحرية والاستقلال، ولولا هذا الأمل وهذا الاعتقاد لكنت فارقت الحياة، وتركت الدنيا غير آسف على أحد، وكيف لا أكون ذا أمل وهذه أمتى أجد فيها روحا جديدة وحياة صادقة ووطنية ناشئة قوية، ومن منكم لا يرى ما أرى ؟ هل ينكر أحد شعور الأمة بحالتها وانتباهها من رقدتها وقيامها من وهدتها وعملها لخيرها وسعادتها» .

وبدأ مصطفى كامل يؤطر لرؤيته.. إنه يؤكد على ضرورة وجود مرجعية لكل نهضة أو حضارة أو حتى حركة إصلاحية.. وكانت المرجعية الدينية هى الأساس الذى اعتمد عليه مصطفى كامل فى دعوته الإصلاحية حيث يقول «وقد يظن بعض الناس أن الدين ينافى الوطنية أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية فى شىء ولكنى أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان وأن الرجل الذى يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبا صادقا ويفديه بروحه وما تملك يداه ولست فيما أقول معتمدا على أقوال السلفيين الذين ربما اتهمهم أبناء العصر بالتعصب والجهالة ولكنى استشهد على صحة هذا المبدأ بكلمة بسمارك أكبر ساسة هذا العصر.. لو نزعتم العقيدة من فؤادى لنزعتم محبة الوطن معها».

تأسيس مدرسة مصطفى كامل

بيد أن اهتمام مصطفى كامل بالتربية والتعليم لم يقتصر على الخطب والمواعظ بل امتد إلى العمل الحقيقى ففى عام ١٨٩٩أنشأ مدرسة تحمل اسمه وقال فى افتتاحها.. «وإنى أعلم أن حمل المدرسة ثقيل وأتعابها كثيرة ونفقاتها طائلة ولكنى قبلتها بكل ارتياح، أملا منى فى خدمة أبناء الوطن العزيز وترقية مدارك الناشئين.. وقد رأيت بنفسى فى أغلب مدارس أوربا اهتماما فائقا بتعليم الدين المسيحى للناشئين، لذلك عولت على جعل الغرض الأول من المدرسة ترقية الملكة الإسلامية عند التلميذ وتمكين مبادئ محبة الوطن والاتحاد والائتلاف من نفوسهم وتقديم الغة العربية على كل لغة مع ترك الحرية لأبنائهم فى الاختيار لهم بين اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية ورغبة منى فى نفع أبناء الفقراء قررت قبول ٣٠٪ منهم مجانا وإنى أسأل الحق سبحانه وتعالى أن يوفقنى وجميع المصريين لخدمة الوطن العزيز، الذى أرى السعادة الكبرى فى التفانى لأجل سعادته..» .

الدعوة إلى إنشاء مدارس التعليم الصناعى

بدأ مصطفى كامل يدعو إلى إنشاء قاعدة صناعة وطنية، وكانت البداية مع الدعوة لإنشاء مدارس للتعليم الصناعى، يستطيع خريجوها أن يلبوا حاجة الصناعة الوطنية وفى هذا الصدد يقول مصطفى كامل «فإيجاد روح الصناعة فى البلاد هو بلا مراء أسمى خدمة تقدم إليه وأبر سعادة تجهز لرجال الغد، قد أدرك الكثير من فضلاء مصر هذه الحقيقة وهذا الواجب فتبادلوا الحديث فى أمر تأسيس مدرسة صناعية ولكنهم لم يتعدوا ذلك إلى العمل وناشد المصريين اهتماما بهذا المشروع الجليل جمعية العروة الوثقى الذين برهنوا بأعمالهم المشهورة على أنهم رجال عمل يعرفون لمصر حقوقها عليهم ولا يقصرون فى تأدية هذه الحقوق فوضع لهم صاحب الهمة الحديدية حسبو بك محمد مشروع تأسيس مدرسة صناعية لا يكلفهم من المال كثيرا ولكنه يعود على البلاد وأبنائها بالخير الجزيل» .

مشاركته فى افتتاح مدرسة الشوربجى

بدأت دعوة مصطفى كامل لنشر التعليم القومى و التوسع فى إنشاء المدارس وبناء قواعد للتربية الحقيقية تلقى صدى فى طول البلاد وعرضها ففى عام ١٩٠١ قام أحد أعيان البحيرة وهو مصطفى بك الشوربجى بإنشاء مدرسة مجانية فى بلدته كوم حمادة وقال مصطفى كامل فى حفل الافتتاح «ليس فى تشييد المدارس وإقامة المستشفيات والتنافس فى الخيرات النافعة شيئا يسر الوطن ويشرح صدره مثل نفى تهمة الموت الأدبى عن المصريين.. قال القائلون وردد المرددون إن المصريين اتفقوا على ألا يتفقوا وسرت هذه الكلمة فى الأمة وتناقلها الصغير عن الكبير وشرحها فلاسفة السوء واعتقد الكثيرون صحتها حتى أخذ القوم يتساءلون عن مبلغ هذه الأمة من القوة والحياة.. يتساءلون هل هى إلى المجد والارتقاء سائرة أم إلى الموت والحياة والفناء هاوية، فأجبهم يا من رفعت العلم والوطن منارا عاليا.. أجبهم بأن المصريين اتفقوا على أن يتفقوا وأن جمعية العروة الوثقى فى الإسكندرية وجمعية المساعى المشكورة فى المنوفية والجمعية الخيرية الإسلامية فى أنحاء القطر تنادى فى الأمة رجالا أحياء ذوى همم عالية وعزائم صادقة.. أجبهم بأن هذه المدارس الأهلية التى أنشئت فى الديار بهمم الأفراد هى الحجج

الدامغة على حياة الأمة ووجود من يهتم لأمر تقدمها ونهضتها.. لا داء أضر بالأمة وأشد وبالا عليها مثل داء اعتقادها السوء فى نفسها ويأسها من مستقبلها.. فجاهدوا ضد هذا الداء ما استطعتم وأعلنوا عليه حربا عوانا، وبثوا فى أبناء الأمة مبادئ الثقة بالنفس والاعتماد على المجموع، وربوا البنين والبنات على محبة الوطن، الوطن.. الوطن كلمة ترددها الألسنة وتكتبها الصحف وينطق بها الناس على اختلاف مراتبهم، ويصيح بها كل إنسان، فماذا للفرد الواحد فى هذه الكلمة، بل ماذا لو فى الوطن نفسه له كل شئ ونصيبه من فخاره عظيم كما أن مسئوليته فى مصائبه كبرى، ألا يشعر الواحد بعظمة حقيقية وسمو كبير إذا قال بلادى وكانت بلاده عالية المقدار، رفيعة الشأن والاعتبار، ألا يجد فى كلمة بلادى التصاقا بالوطن واشتراكا فى أفراحه وأحزانه بنصيب كبير ألا تدل هذه الكلمة وحدها على أن كل واحد منامطالب بنصرة الوطن وإسعاده، مسئول أمام الله وأمام الناس عما يناله من سوء وضر، ألا يكون المصرى موضع الإكرام والإجلال بين شعوب الورى إذا قال مصر بلادى وكانت مصر مصدر العلم والنور ومقر التمدن والتقدم ومثال القوة والعظمة فى الحرية والاستقلال ؟.

أجل للصغير كما للكبير من المصريين نصيب فى رفعة الوطن أو انحطاطه فلا يدعين أحد منكم أن غيره المسئول دونه عن القيام بخدمة البلاد وإعلاء شأنها.. كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته..»

غرس بذور الأمل

وكانت محاربة اليأس ومقاومة الإحباط من أهم أهداف مصطفى كامل خلال تلك الفترة المهمة من تاريخ مصر ويظهر ذلك جليا فى الاحتفال بتوزيع الجوائز على المتفوقين من مدرسة مصطفى كامل حينما قال «عجبا وألف مرة عجبا، كيف تسئ الظن بنفسها أمة تغلبت على الأيام والحوادث وقاتلت الليالى وما ولدت وقاومت تيارات الزمان أجيالا طوالا، وأوقفتها وهى فى منتهى قوتها وكيف يقول بعض أبناء هذه الأمة عنها إنها ماتت وزالت آثارها وأصبحت نسيا منسيا، وهى التى اهتز لمجدها الشرق والغرب، وسارت الركبان بأحاديث مفاخرها ؟ كيف يقضى البائسون عليها وقد كانت قبل عهد محمد على أكثر أدواء وأقل أملا فى الشفاء من الآن ثم عادت لها الحياة

والقوة والجاه والعز ورفعة الشأن.. ليست مصر بحاجة إلى شئ فى هذا الزمان مثل حاجتها إلى تخريج رجال متخدى الكلمة، متفقى الرأى، عارفين بتاريخها، معتبرين بعبر حوادثها، ناهضين بها، مجدين فى سبيل إسعادها، وليس لنا بإنشاء هذه المدرسة غاية غير هذا، فإننا لا نرمى إلى تربية موظفين أو إعداد طلاب للشهادات، ولكننا نرمى إلى تخريج رجال خلائقهم محبة الوطن والتمسك بالفضيلة والارتباط بعضهم ببعض، والتفانى فى خدمة هذه البلاد، نرمى إلى تكوين نفوس عالية تأبى لضيم والذل وتهوى الشرف والمجد وترى الحياة بغير عز الأوطان وسعدها حياة شقاء وبلاء» .

دور نادى المدارس العليا

أثمرت دعوة مصطفى كامل للاهتمام بالتعليم والتربية ثمارا يانعة ساهمت بشكل مباشر فى الحراك السياسى والاجتماعى وهذا ما كان يقصده مصطفى كامل، ويظهر ذلك فى تبنى فكرة إنشاء ناد للمدارس العليا يجمع بين الطلاب والخريجين وكان ذلك فى عام ١٩٠٥ وكما يقول الرافعى فى هذا الصدد..

"كان هذا النادى من أعظم مظاهر الحركة الوطنية فى ذلك العصر، وصار بمثابة معهد وطنى علمى أخلاقى، تكون فيه جيل من خيرة الشباب المصرى وفيه ظهرت حركة فكرية قومية أنتجت على توالى السنين عدة مشروعات جليلة كان لها فضل كبير على النهضة الوطنية، فقد ظهرت فيه قوة الشبيبة ووحدتها، وامتزج الطلبة بالمتخرجين فاكتسبوا بهذا الاتصال النضج الفكرى والمعنوى، وفيه ألقى أعلام الفكر والعلم المحاضرات القيمة فى مختلف العلوم والفنون وفيه تأسست جمعية رعاية الأطفال وفى قاعاته اجتمعت وقتا ما لجنة إنشاء الجامعة المصرية وفيه تأسست مدارس الشعب فأنشئت عدة مدارس لتعليم العامة وقام أعضاء النادى بالتدريس فيها وفيه نشأ مشروع النقابات الزاعية، وفيه أخذ الطلبة يروضون أنفسهم على الأخلاق والفضائل والتضامن، وكان فوق ذلك معهدا قوميا لنشر المبادئ الوطنية الصادقة ".

الحفاظ على ذاكرة الأمة

كان الزعيم الشاب مصطفى كامل يحاول أن يبنى جسورا للثقة داخل المجتمع، وقد علم أن هذه الجسور لابد لها من معين يغذيها ويساعدها على الحياة..

بيد أن الحفاظ على ذاكرة الأمة لا سبيل له إلا بالحفاظ على تاريخها وتاريخ الأمم والشعوب ما هو إلا تاريخ رجال وطنيين قدموا لأوطانهم ما يذكره التاريخ، لقد فطن مصطفى كامل إلى ما تعانيه الأمة من ضعف فى الذاكرة وحاول أن يصلح ما أفسده الدهر، فقام فى العاشر من مارس عام ١٩٠١ يخلد ذكرى أستاذه ومعلمه وصديقه على باشا مبارك وزير المعارف الذى سقط من ذاكرة الامة فور رحيله وهنا يقول مصطفى كامل: «لا شيئ يرفع حال مقام الوطنية فى بلادنا مثل إحياء ذكرى الرجال الذين أخلصوا فى خدمتها، وقضوا أعمارهم فى العمل لإعلاء شأنها وتحقيق آمالها ولا شئ يميت الوطن والوطنية مثل تمكن داء النسيان فى أمة وجهلها لتاريخها، وعدم تقديرها للرجال المخلصين فى خدمتها، وقد بليت هذه الأمة المصرية العزيزة بذلك الداء العضال فتراها لا تذكر الرجال إلا إذا كانوا القابضين على أزمة أمورها، أو المحركين لحركة الرأى العام فيها، ولا تهتم بالحوادث إلاعند حدوثها فليس للمصائب فى نفوس أبنائها أثر يبقى وليس كذلك للعظمة الماضية بقية باقية فى الأفئدة والضمائر، فلا غرابة إذا كان ذلك سببا من أسباب تأخرها وعلة من علل انحطاطها.. اللهم إن مصر لا تنال من السعادة نصيبها، ولا تبلغ من الاستقلال مطلبها إلا إذا جعل أساس تربية أبنائها تخليد ذكرى النابغين من رجالها وبث فى نفوس الناشئين الاقتداء بهم ومحبة الديار محبة العارف بجمالها المحيط بأسرار تاريخها الخبير بعلل تأخرها وأدواء انحطاطها، وإلا فمحال أن يبنى على غير هذا الأساس مجد صحيح وعز دائم..»

معركة تعريب التعليم وصدامه بسعد زغلول

خاض مصطفى كامل معارك طاحنة للحفاظ على الهوية العربية والإسلامية خاصة فى المناهج التعليمية والتربوية، بيد أن توجهات مصطفى كامل الشرقية الإسلامية كانت واضحه فى كتاباته وخطبه ومعاركه، إنه كان يؤمن إيمانا لا يتزعزع بأن الدين هو أساس الأخلاق وأن الأخلاق هى أساس التعليم وأن التعليم هو أساس النهضة وأن النهضة لن تنجح الا بإيمان الأمة وإخلاصها، لقد كان التعليم فى مصر العربية بلغة غير عربية وعندما طلبت الجمعية العمومية من الحكومة أن يكون التعليم فى المدارس الأميرية باللغة

العربية وكان ذلك فى مارس من عام ١٩٠٧ اعترض وزير المعارف على طلب الجمعية العمومية، وكان حينئذ هو سعد باشا زغلول الذي ساق مبررات واهية لهذا الرفض وقال " إن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الأجنبية بمحض رغبتها أو اتباعا لشهوتها ولكنها فعلت ذلك مراعاة لمصلحة الأمة.. إذا فرضنا أنه يمكننا أن نجعل التعليم من الآن باللغة لعربية وشرعنا فيه فعلا فإننا نكون أسأنا إلى بلادنا وإلى أنفسنا إساءة كبرى لأنه لا يمكن للذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوظفوا فى الجمارك والبوستة والمحاكم المختلطة والمصالح العديدة المختلفة ".

وبعد هذا الموقف الغريب من وزير المعارف سعد باشا زغلول شن مصطفى كامل باشا هجوما شديدا على الوزير والحكومة؛ فتحت عنوان «فشل وزير» قال:

«إن الناس قد فهموا الآن بأوضح مما كانوا يفهمون من قبل.. لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف العمومية صهر رئيس الوزارة مصطفى فهمى باشا الأمين على وحيه والخادم لسياسته وفهموا أيضا لماذا قامت الصحف الإنجليزية والصحف المتحزبة للإنجليز وذرت الرماد فى العيون قائلة إن الوزير الجديد هو من الحزب الوطنى فى حين أن كل شئ من أحواله وشئونه يدل على شدة ميله للسلطة فسعد باشا زغلول قد فشل فشلا عظيما فى الجمعية العمومية ولو كان وزيرا أوربيا يتكلم أمام برلمان لكان قد استقال فى الحال لكنه وزير فى مصر يعتقد أن ثقة اللورد كرومر به كافية وحدها لحمايته.. ألا أن الذين كانوا يحترمون الوزير كقاض ليأسفون ليأسفون على حاضره كل الأسف وليخافون على مستقبله كل الخوف ويفضلون ماضيه كل التفضيل ذلك لأن الوزير قائم الآن على منحدر هائل مخيف».

الشمس المشرقة «تجربة اليابان»

فى كتابه الشمس المشرقة كان مصطفى كامل يحاول أن يقدم للأمة نموذجا ناجحا لأمة كانت على شفا الانهيار التام ، لكنها قاومت بشراسة وضراوة من أجل البقاء.. لقد نجحت اليابان وانطلقت وكان الفضل فى هذه الانطلاقة يعود إلى التربية والتعليم.. يقول مصطفى كامل فى كتابه الشمس المشرقة تحت عنوان «التربية والتعليم»:

اتفق الفلاسفة والحكماء وعلماء التربية على أن العائلة هى المدرسة الأولى وأنفع المدارس كلها لأن المبادئ التى يتلقاها الإنسان فيها تعد المادة الحيوية للعلوم والمعارف التى يغذى بها عقله ولبه وروحه والأساس لقوام حياته ووجوده، وبديهى أنه إذا كان الأساس متينًا قويًا قام البناء وبقى راسخًا لا تزعزعه الحوادث ولا تؤثر عليه الزوابع، وبالعكس إذا كان مختلاً فاسدًا لا يلبث البناء حتى يتداعى ويزول.

وقد وجد اليابانيون من قديم الزمان فى عائلاتهم أصح مبادئ التربية وأسلم أصولها، فنشأوا على الشهامة والفروسية واحتقار الموت وحب الوطن والتفانى فى خدمته وإعلاء شأنه ورباهم آباؤهم وأمهاتهم من أيام طفولتهم على اعتقاد الخير والرفعة فى الأمة اليابانية، والنظر إليها بعين الإجلال والإعظام والتفاخر بالانتساب إليها واعتبارها أفضل الأمم وأجل الشعوب، ولا غرابة إذا بلغ اليابانيون بفضل هذه التربية ذلك الشأو الذى نغبطهم عليه ونهضوا ببلادهم فى سنوات معدودة تلك النهضة التى تركت العالمين حيارى مندهشين.

وليست العناية بالتربية والتعليم فى اليابان حديثة، بل اهتم القوم بها قبل أوروبا بقرون وأجيال، وتولى رجال الدين أمرها بين طبقات الشعب، وكان فى كل مقاطعة مدرسة كبرى غير مدارس القرى والمدائن.

واختص أبناء الساموراى والأشراف بدراسة العلوم العالية فى كليتى كيوتو وطوكيو، حيث كانوا يتعلمون الفلسفة الصينية وآداب اللغة اليابانية وأهم مؤلفات الصين، وكانت المدارس مقسمة إلى ثلاثة أقسام : ابتدائية وثانوية وعالية، وأهم ما كان يدرس بها " الواجبات الأدبية للإنسان " و " الكتب الأربعة الحكمية لقو مفسيوس" و " كتاب واجبات الأبناء نحو الآباء" و "كتاب سلالة عائلة الميكادو" و "واجبات الأدب والطاعة" و "كتاب الأبطال المشهورين بالشجاعة والإقدام"، وغير ذلك من المؤلفات التى كانت تبعث الحمية فى النفوس وتهذب الأخلاق وتربى الشهامة والجرأة وتقديم الروح فداء للشرف، وكان للألعاب الرياضية والتمرينات العسكرية نصيب وافر فى ساعات التعليم ليقترن نمو الفكر والروح بنمو الجسم، وكانت تعقد فى المدارس حفلات سنوية لاختبار الطلبة ومكافأة الأكفاء والمجدين منهم وأسعدهم حظًا

من كان يعطى ثوبًا أبيض عليه رسم أسلحة الشجن، لأنه كان يعتبر أسمى مكافأة يعظم لابسها ويبجل من الكبير والصغير، أما العقوبات فكانت الحبس والضرب بالكرباج وتحميل الطالب لوحة على رأسه ساعات طويلة.

وقد كان لرجال الدين البوذى الشأن الأول فى تعليم الأمة اليابانية وتربية أطفالها، فخصصوا قسمًا من المعابد للتدريس ولبثوا مدة عشرة قرون القائدين للشعب المرشدين له إلى أن تولى أمور البلاد الشجن "بياس" ودعا الناس لترك "بوذا" ومبادئه والاستعانة بأنوار "قومفسيوس" وتعاليمه للوصول إلى أرقى المعارف الدنيوية والآداب المرغوبة، وكان من مصلحته الكبرى تحويل تيار التعليم فى البلاد ونشر دين قومفسيوس وأحكامه، لأنه يأمر الأبناء بطاعة الآباء ويجيب الجميع إلى الخضوع للأمير والحاكم، وقد استخلص "بياس" منه القواعد الأساسية لحكومته فأصدر كتابه المشهور "بالمائة قانون" وقال فيه:

"إنه يجب على كل فرد من الرعية أن يكون مستعدًا على الدوام لتقديم قواه وذكائه وأملاكه خدمة للإمبراطور، وأن يضحى الابن بذلك لمنفعة أبيه والتلميذ لصالح أستاذه لأنه مدين للإمبراطور بغذائه ولأهله بوجوده ولأستاذه بمعارفه ولا معنى للحياة بغير هذه المزايا الثلاث".

وقد قدمنا أن بعض اليابانيين الشغوفين بمعرفة ما يجرى فى أوروبا اختلطوا قبل ثورة عام ١٨٦٨ بالهولنديين فى ثغر "نجازاكى" واستفادوا منهم فوائد جسيمة، ولما جرى الانقلاب الحديث ورجعت السلطة إلى الميكادو، صاحبها الشرعى، ورأى اليابانيون أنهم لا يقاومون أوروبا إلا بعلومها واختراعاتها ولا يستطيعون مجاراتها ومنافستها إلا بأسلحتها الحديثة اهتمت حكومتهم بالتعليم والتربية اهتمامًا جاوز كل حد، فأرسلت الإرساليات إلى أوروبا وأنشأت فى عام ١٨٧١ نظارة المعارف ووضعت القوانين الخاصة بها المنتخبة من أوفق نظامات المعارف فى أوروبا واختارت لها أفضل الناس وأصلحهم لتسييرها فى الطريق النافع، وأصدر الميكادو منشورًا عن التربية أبان فيه أن الغرض منها هو إخراج رجال يفدون الوطن والإمبراطور بأرواحهم واستمرت عناية الحكومة بالمدارس فى ازدياد حتى صار التعليم فى اليابان الآن بالغا غاية الانتشار والرقى، وحسب القارئ أن يعلم أن فى

أحقر القرى اليابانية المكاتب والمدارس وأن الجهالة تعد عارًا كبيرًا حتى بين صغار الفلاحين، وأن المدارس العالية لتخريج المدرسين منتشرة فى كل النواحى وأن لكل حرفة مدارس وان كليتى طوكيو وكيوتو من أكبر كليات العالم وأفخمها بناء ونظامًا واستعدادًا، وأن مدارسها العالية تضارع أرقى ما شيدته حكومات الغرب وأمريكا لتخريج المتشرعين والمهندسين والأطباء والعلماء فى كل علم وفن، وقد وصل مجموع المدارس الرسمية والأهلية فى عام ١٨٩٧ إلى ٢٥٣٧٥ مدرسة وصار ٢٨٤٠٤ فى عام ١٩٠١ منها ١٧٦٢ قامت بهم الأفراد، وكان عدد الطلبة ٣٢٨٥٧١٠ فى عام ١٨٩٧ فصار ٤٠٣٠٩٧٣ فى عام ١٩٠١ منهم ١٤٨٨٥٨ يتعلمون فى المدارس الأهلية، وبلغت نسبة الأطفال الذكور الذين يتعلمون لعدد أطفال المملكة كلها ٧٩ فى المائة بعد أن كانت ٧١,٦٦ فى عام ١٨٩٧، وبلغت نسبة البنات المتعلمات إلى جميع بنات اليابان ٤٧,٥٤ فى المائة بعد أن كانت ٣٦,٤٦ فى عام ١٨٩٧، ولابد أن هذه النسبة ارتقت فى الثلاث السنوات الأخيرة ارتقاء كبيرًا، كما أنه لا شك فى أنها ستكون مائة فى المائة بعد قليل من الأعوام لأنها كانت قبل عام ١٨٦٨ ضعيفة جدًا. لم يكن يتعلم من البنين إلا ٤٠ فى المائة ومن البنات إلا ١٥ فى المائة، والفرق جسيم بين ما كان التعليم عليه يومئذ وما وصل إليه الآن. وقد قسمت كلية طوكيو إلى ستة أقسام : للحقوق والطب، والآداب، والعلوم، والزراعة، والهندسة، وكان بها فى عام ١٩٠١ من المدرسين ١٧٥ أستاذًا ومن الطلبة ٢٠٠٠ طالب.

ولما أنشأت الحكومة هذه المدارس وأخذت تنشر التعليم فى البلاد استعانت بالمدرسين الأجانب فى بادئ الأمر لتنتفع بمعارفهم وتربى على أيديهم رجالاً قادرين على القيام مقامهم ومحو كل أثر للتداخل الأجنبى فى البلاد، ولم تمض بالفعل سنوات معدودة بعد تعيينهم حتى زودتهم بالشكر والثناء وعينت غيرهم من اليابانيين، وأصبحت دولة الشمس المشرقة اليوم تسير وحدها فى سبيل الرقى وتطرق أبواب التقدم بيد قوية غير متكئة على عصا الغرب والغربيين، ومرتبات المدرسين فى اليابان قليلة جدًا، نعم إن المعيشة ميسورة هناك ولكن الحكومة اضطرت لتقليل مرتبات المعلمين لشدة حاجتها للمال وانفاقها الجانب الأكبر منه فى الحربية والبحرية، فترى ما يصرف على

الذين يتعلمون فى المدارس الابتدائية وعددهم ٣٨٧٢٧٩٤ لا يزيد على ١٥٥٢٦١٠١ ين وأساتذتهم لا يتجاوزون ٥٨٢٥٦ أستاذاً وقد ينزل مرتب المعلم فى المدارس الصغيرة إلى جنيه واحد فى الشهر وغاية ما يصل إليه مرتب أكبر المدرسين فى كلية طوكيو ١٢٠٠ ين فى السنة أى ١٢٠ جنيهًا، إلا أنهم مع ذلك يبذلون غاية الجهد فى القيام بواجباتهم لاعتقادهم جميعًا أنهم فى الصف الأول من خدمة اليابان، وأن المرتب ليس إلا مكافأة أو مساعدة من الحكومة وأن أجرهم الحقيقى هو النفع العظيم الذى يعود على بلادهم من أعمالهم ودروسهم.

وقد أجمع المؤلفون الأوروبيون والأمريكيون الذين كتبوا كافة عن اليابان أن الطلبة فيها مثال الأدب واحترام الأساتذة وأنه لم يسمع أن واحدًا منهم خالف الواجب نحو معلمه أو قصر فى حقه، فضلاً عن مالهم من صفات سامية امتازوا بها، فهم أهل جد ونشاط لا يعتقدون أن أمامهم صعوبة أو أمرًا محالا ويرون الأوروبى دونهم ذكاء ونباهة وسلامة فى الفطرة وكل واحد منهم يعتقد فى نفسه أنه قوة من قوى بلاده وأنه إذا تقاعس عن الجد والتعلم أضاع على وطنه جزءًا من ثروته وقواه وجنى عليه أكثر من جنايته على نفسه أما البنات فقد رأت الحكومة عدم منحهن حرية أخواتهن فى أوروبا وإبقاء التقاليد القديمة على حالها مع التوسع فيما فيه فائدة لتقدم الأمة وترقية العائلات وفتح أبواب المكاسب للفقيرات من بنات الشعب، فتحت لهن مدارس الصناعة وبالأخص صناعة الحرير وسهلت لهن الوصول إليها وجعلت لهن قسمًا خاصًا فى كل مدرسة فنية أو علمية وعينت بعض الأوروبيات الماهرات لإدارة شئونهم وإرشادهن.

وترقى الكبراء فى تربية البنات فعلموهن اللغات والآداب الأجنبية حتى إن السائح يجد فى طوكيو والمدائن المهمة فى نساء بعض الموظفين من تضارعن سفيرات أوروبا علما وأدبًا وفضلا وبيانًا، وبنات الطبقتين الوسطى والصغرى تقرأن بنوع خاص، كتب الآداب وواجبات الفتاة والزوجة والأم وتنظيم المنزل، وفى اليابان كتاب من لم تحفظه تعد ناقصة التربية وهو "هياكونين إيسهين" أو مجموعة مائة قصيدة شعرية وضعها شعراء مختلفون وضمنوها حياة أشهر النساء ونصائح للسيدات وهو خير مؤلف يربى البنات على حب

الفضيلة والعصمة والتمسك بالشرف وإراحة الزوج وتفريج كروبه وهمومه ويعلمهن تربية البنين والبنات.. متى صرن أمهات على حب الوطن والشمم وكرامة النفس.

وقد فكر بعض اليابانيين فى اتخاذ اللغة الإنجليزية لغة للأمة كلها لما فى لغتهم من الصعوبة وكثرة الكلمات ولكن هذا الرأى لم يجد قبولا من عقلاء المملكة وكان يقابل بالرفض العام لو عرضته الحكومة على الأمة، واللغة اليابانية الحالية هى مؤلفة من اللسان اليابانى القديم المعروف باسم "ياماتو" ومن اللغة الصينية ولم يكن يتكلم الياماتو باتقان وبيان منذ خمسة وعشرين عامًا أحد غير العائلة الإمبراطورية والأشراف ورجال جين شنتو، ولكن اللغة السائدة هي اللغة المشتركة وقد أخذ اليابانيون من الصينيين كتابتهم كما قدمنا قبلاً وصاروا مضطرين لمعرفة حروفها التى لا تنقص عن ١٠٠٠٠ حرف ولا يعد التلميذ ناجحًا فى المدارس الابتدائية إذا لم يعرف منها ٣٠٠٠ على الأقل وهم يستعيرون الآن كافة الألفاظ الاصطلاحية فى العلوم والاختراعات من اللغات الأوروبية ويعترفون بأنه يستحيل عليهم أن ينبغوا فى المعارف الحديثة ويجاروا علماء الغرب وكبراء فلاسفته إلا إذا أحاطوا بلغات الغرب وتمكنوا منها.

وقد استفاد اليابانيون من صعوبة لغتهم فائدة كبرى فإنها كانت الحاجز الحصين بينهم وبين المبعوثين المسيحيين إذ أخرجتهم كثيرًا فى نشر دينهم بين طبقات الشعب والمطالع لما كتبه أولئك المبعوثون عن اللغة اليابانية وما لاقوه فى اليابان يجدهم جميعًا يئنون ويشكون ويندبون سوء حظهم قائلين "أن الشياطين تآمروا على وضع لغة اليابان".

إذا افتخرت اليابان مرة بعناية حكومتها بأمر التربية والتعليم وسهرها على تهذيب الناشئة وتثقيف عقولها وجب عليها أن تفتخر ألف مرة برجالها الأبطال وأبنائها المخلصين الذين أسسوا المدارس الأهلية وأنفقوا عليها من أموالهم الأخذ بأسباب الرقى والتضحية بكل نفيس فى سبيل سعادة الأمة والبلاد وقد رأى القارئ من الإحصاء الذى قدمناه أن الأفراد أوجدوا للعلوم دورًا عديدة وظهروا فى هذا الميدان بهمم عالية جليلة ولا مراء فى أن الكونت "أوكوما" هو المتقدم فى الفضل على الجميع فقد كانت ولا تزال الكلية التى

أنشأها فى "وازيدا" بضواحى طوكيو مثالاً للنظام والكمال فى التربية والتعليم ونموذجًا للكليات التى تخرج للأوطان جيوشًا من الرجال ذوى الرءوس العامرة والقلوب الطاهرة المتشربة بأسمى المبادئ وأرفع العواطف الوطنية، ولم يكتف الكونت أوكوما بذلك بل اتفق مع الكونت "ايدجييكاتا" والبارون "شيبوزاوا" والمالى الشهير "سوميتومى" على تأسيس كلية للبنات فى طوكيو باسم "نيبون جوشى داى جاكو" وقاموا بتنفيذ المشروع خير قيام حتى صارت هذه الكلية الجديدة من أجل ينابيع الحياة والخير للعائلات والأمة كلها ومن أصحاب الهمم الشماء الذين لهم على التعليم والصحافة الأيادى البيضاء فقيد المعارف والآداب المسيو "فوكوزاوا" الذى كان فى الصف الأول من محاربى الجهالة والتأخر فإنه زار أمريكا منذ أربعين عامًا ووقف على دقائق أسرار تقدمها وجاء إلى بلاده قوى العزم مشمرًا ساعد الجد لتربية أمته ونشر أنوار الحضارة والتقدم بين شعبه فأصدر لهذا الغرض جريدة يومية وأسس فى طوكيو كليته الشهيرة باسم "كيوجيدجيكو" ولبث يديرها بهمة وقوة إرادة وتبصر حتى مات مأسوفًا عليه من اليابان كلها فى عام ١٩٠١.

وهذا الرجل هو أحد كبار الرجال فى اليابان ولو أراد لكان من عظماء ساستها وأوائل وزرائها، ولكنه رفض التوظف فى الحكومة المرة بعد المرة وفضل خدمة وطنه بقلمه وعلمه ولسانه معلمًا الأبناء حب الحرية والاستقلال والجهاد فى سبيل الحياة وقد كان اليابانيون قبل ثورة عام ١٨٦٨ يحقرون التجارة فعلمهم "فوكوزاوا" احترامها وأبان لهم بالبرهان المحسوس والدليل المقنع أن أمم أوروبا لم تفتح الممالك والبلدان وتسود أفريقيا وآسيا إلا خدمة للتجارة وسعيًا وراء رواجها.

وقد وصفه المؤلف الإنجليزى الشهير "بازيل هال شمبرلن" بقوله : " أنه كاتب واضح العبارة جلى الإنشاء يدير جريدة عظيمة الانتشار لا تخفى عليه أبدًا حاجات كل وقت فتراه بالأمس نصيرًا للدين المسيحى لأن اعتناقه يستميل الأمم الغربية لليابان وميالاً اليوم بكل جوارحه للدين البوذى لأن مبادئه موافقة لأفكار التقدم العصرى والانقلاب الحديث وتجده يميل للأجانب تارة وينقلب عليهم تارة أخرى، ناظرًا على الدوام لمصلحة بلاده وهو من الباحثين الأذكياء ولقد كان جديرًا بأن يكون وزيرًا للمعارف ولكنه ابتعد

دائمًا من الوظائف ومناصب الشرف وهو يعتبر الآن الأب العقلى والنفسانى لنصف الرجال الذين يقودون أزِمَّة الأمور فى اليابان.

ولم يعتن بأمر التعليم والتربية ونشر المعارف فى أرجاء اليابان الأغنياء والكبراء دون غيرهم بل أظهرت العائلات كلها اهتمامًا به كبيرًا فتكفلت كل واحدة منها بالإنفاق على تلميذين أو ثلاثة حسب درجة ثروتها، وكلما زاد مرتب رئيسها زاد عدد التلاميذ الذين يتعلمون على نفقتها ويعيشون تحت كنفها، ولعل الأمة اليابانية هى الوحيدة فى العالم كله التى يجد الإنسان فيها هذا التضامن والتعاطف الكبير على الصغير والغنى نحو الفقير إلى ذلك الحد التى تنتهى إليه الوطنية الحقة.

وقد نبغ اليابانيون بفضل عناية الحكومة والأهالى وبرع منهم الكثيرون فى كل علم وفن وظهر منهم أول مكتشف لميكروب الطاعون وها هم يربون الأمة الصينية وينشرون بين أفرادها أنوار العرفان وتأتى الوفود منها إلى اليابان لترجع عامرة الرءوس والقلوب، وبذلك انقلب الحال وصار اليابانيون يعلمون الصينيين بعد أن كان هؤلاء أساتذتهم فى القرون الغابرة وحاملى لواء المدنية بينهم ولو استفادوا من معارفهم الفوائد اللازمة لحدث فى الشرق الأقصى أكبر تغير وأعظم انقلاب.

لا يفتح الإنسان كتابًا على اليابان خطه قلم غربى حتى يجد المؤلف ساخطًا على الروح العاملة فى تربية اليابانيين لأن أساتذتهم يعلمونهم كراهة الأجانب وبغضهم واحتقارهم ويربونهم على العمل ضدهم بكل ما فى الإمكان واعتبارهم أعداء للأمة شديدى الخطر عليها وأشد المؤلفين سخطًا وتألمًا هم المسيو "هنرى دوموﻻر" الذى كان مدرسًا فى اليابان وله عليها كتاب من أفيد الكتب التى اعتمدنا عليها والمسيو "فيلكس مارتان" صاحب كتاب "اليابان الحقيقية" فقد خصصا لهذا الموضوع أبحاثًا طويلة حملا فيها على المعلمين اليابانيين حملة شديدة وجاراهما فى كتاباتهما هذه بقية المؤلفين الغربيين وفى الواقع فقد ملأ المعلمون اليابانيون كتبهم بتمجيد اليابان وتعظيمها وتفضيلها على بقية بلاد الأرض فجاء فى كتاب "كاتوسوكى ايتسى" المنتشر بين تلاميذ المدارس الابتدائية ما ترجمته :

" إن يابانِنا الكبيرة التى يحكمها إمبراطورها العاقل هى أسمى وأرقى من

كافة بلاد العالم فطقسها بديع ولا يعرف أهلها الحرارة المؤلمة ولا البرودة القارسة ".

والأشجار والفواكه تنمو فيها بكثرة وافرة والأرز والحنطة وبقية الحبوب جيدة فيها وقد تحسن الشاى والتوت فى بلادنا ولو أن أصلهما من الصين بفضل جفاف الأرض ولطف الطقس.. وقد قام الرسل والأنبياء فى البلاد الأخرى لتعليم الفضيلة للناس ولكن الناس لبثوا قاسيى القلب يشبهون الحيوانات الكاسرة، أما اليابان فلم يأتها أحد من الرسل والأنبياء يعلم شعبها الأخلاق لأن أرضنا وطقسنا يسمحان لكل إنسان أن يتحصل بقليل من العمل على الحبوب الضرورية للحياة ويوجدان فى الرجال الدعة والطيبة.

وقد ظهرت آثار هذه التربية فأعلن اليابانيون صغارًا وكبارًا بغضهم الشديد للغربيين واحتقارهم لهم، واضطرت الحكومة أن تنبههم المرة بعد المرة إلى ما فى هذا السلوك من ضرر بالبلاد وتنفير للدول الميالة لها عنها، ورأى الميكادو نفسه من الواجب عليه ارشاد الشعوب الأجنبية وإبطال المحاكم القنصلية دعا فيه الأهالى إلى عدم الاعتداء على الأجانب وإهانتهم وإظهار البغضاء لهم ووقف المركيز "سيونجى" وزير المعارف فى عام ١٨٩٥ خطيبًا على مديرى المدارس الابتدائية فقال لهم : " إن الذين يتمسكون بالفكر اليابانى العتيق هم ألد أعداء الأمة وقوم يأبون الجرى مع التقدم فى تياره ويقبلون بثقة زائدة الأوهام القومية ويهملون إرشاد الشعب إلى الحقيقة بشأن البلاد الأجنبية.

وألقى المركيز إيتو فى يونيو عام ١٨٩٧ خطبة على هذا الموضوع قال فيها :

" مما لا ريب فيه أن المعلمين يربون التلاميذ فى كافة مدارس اليابان على كراهة الأجانب، وكلما تقدمنا إلى الأمام تقدمت هذه العواطف ونمت فافرضوا أن الأشرار منكم اعتدوا على الأجانب بدعوى أنهم ينالون من المكاسب ما أبناء البلاد أحق به، وأنهم يهجمون على حوانيتهم ومعاملهم فماذا يحصل بعد ذلك ؟ إن المسألة تصير دولية وتقف البلاد عندئذ فى مركز حرج للغاية.

ولذلك فإنى أطلب اصلاحًا تامًا للتعليم فى بلادنا، وأحتج ضد تربية شبابنا على وطنية ضيقة الدائرة غير حميدة ولابد من اقتلاع جذور العداوة النامية ضد الأجانب لأن الأموال الأجنبية ضرورية لنا ولا يمكننا الحصول عليها إلا إذا أمن أصحابها على أنفسهم وعليها " وقال الكونت أوكوما مثل ذلك مرارًا

وتكرارًا، لكن هذه الأقوال لم تأت بأقل ثمرة، لأن الشعب اليابانى لا ينسى فتح الأجانب للثغور اليابانية بالقوة والقهر ولا تمحو الأيام والأعوام من ذاكرته احتقارهم له ونظرهم إليه بازادراء وهو لم يخطب المدنية الأوروبية حبا فيها أو غرامًا بها، بل رغبة منه فى إدراك شأو الأجانب ونيل قوتهم فى البر والبحر لمقاومتهم والتغلب عليهم وتخليص الشرق الأقصى من نفوذهم فلذلك يرى أصحاب النظر الصائب أن كل المجهودات التى تبذل لاقتلاع جذور شجرة العداء والبغضاء للأجانب النامية بين اليابانيين هى كذرات الغبار المنتشرة فى الهواء لا تلبث أن تذروها الرياح وأن اليابانى لا يستطيع أن يفهم للوطنية معنى إذا لم تكن روحها كراهة الأجنبى والسعى لطرده من بلاده ومحو كل نفوذ له من أعمالها العامة والخاصة.

على أن الحكومة نفسها لم تبالغ فى الحفاوة بالأجانب فقد غيرت المدرسين منهم بيابانيين فى أيسر زمن، ولا تزال تأبى عليهم امتلاك شبر أرض فى البلاد.

الفصل الثالث



الجامعة المصرية رؤية وفكرة وصرح

.. «فخير هدية أقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز والأمة المصرية المحبوبة هى أن تقوم اللجنة التى شكلت بدعوة الأمة كلها وطرق باب كل مصرى لتأسيس جامعة تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء»..

من بين ثنايا هذه الكلمات التى كتبها الزعيم الشاب مصطفى كامل ولدت فكرة أول جامعة مصرية..

فى عام ١٩٠٦ قامت مجموعة من الوطنيين على رأسهم محمد فريد بالدعوة لاكتتاب عام بين جميع فئات الشعب المصرى من أجل تكريم مصطفى كامل الذى رفع صوت مصر عاليا فى أنحاء أوروبا خاصة بعد حادثة دنشواى، وفور علمه بأمر الاكتتاب أرسل من باريس فى الرابع والعشرين من سبتمبر إلى محمد فريد هذا الخطاب التاريخى الذى كان سببا مباشرا لقيام أول جامعة مصرية وقال فى خطابه.. (ولكنى لا أستطيع أن أقبل ثناءً لا أستحقه وإكراما لا أفعل شيئا لنيله، ولا يمكننى أن أرضى بأن يكون الشعور الوطنى مما يكافأ الرجل عليه وهو لا يكون رجلا إلا به، نعم إننى أعلم أنكم تحيون فى شخصى الضعيف الفكرة الوطنية الشريفة وتريدون أن تعلوا شأنها وترفعوا لواءها كما أن أعدائى والطاعنين علىّ إنما يحاربون فى الحقيقة هذه الفكرة وذلك الشعور لأنى لست شيئا على حين أن الوطنية هى فى حياة الأمة كل شىء، ولكن ما تبتغون كائن لا ريب فيه، فقد ارتفع لواء الوطنية المصرية رغما عن كل معاند ومعارض، وعلم العالم كله أن المصريين أحياء يشعرون ويرغبون المجد من السبل الصالحة المؤدية إليه، واقتنعت الأمم أننا نطلب الحياة والدستور والحرية بالعقل والرؤية ونسعى إلى إسعاد وطننا بالعلم والجهاد القانونى، وهى نتيجة ماكان ليصدق أعداء مصر والمصريون أنها تكون بعد أن ظن الجاهلون بأسرار حياة الأمم وارتقائها أن مسألة استقلال مصر قد قبرت واستراح ساسة الإنجليز منها فخير هدية أقترحها عليكم تقديمها للوطن العزيز والأمة المصرية المحبوبة هى أن تقوم اللجنة التى شكلت بدعوة الأمة كلها وطرق باب كل مصر لتأسيس كلية أهلية

تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء، وتهب الأمة الرجال الأشداء الذين يكثرون فى عداد خدامها المخلصين ممن لا يخافون فى الحق لوما ولا عتابا، ويعملون لمداواة أدوائها وجمع أمرها وبث روح الوطنية العالية فى كافة أبنائها، لأن كل مليم يزيد على حاجة المصرى ولا ينفق فى سبيل التعليم هو ضائع سدى، والأمة محرومة منه بغير حق، هذه هى الهدية الوحيدة التى يليق بالوطنيين الصادقين إهداؤها لمصر والمصريين.. هذه هى الهدية الفريدة التى تملأ الفؤاد فرحا وانشراحا وفيها أرقى مظاهر الحياة والشعور، فلتنس الأحزاب انقساماتها، ولينس الصحافيون خصوماتهم، ولتلق الأحقاد ولو يوما واحدا فى هوة لا يسمع منها لغو ولا دوى، ولتجتمع الأمة لإتمام هذا العمل الفخم وتحقيق ذلك المشروع الذى كله خير ونفع عميم، وليذكر الذاكرون أن بين أبناء الفقراء الذين سد الاحتلال فى وجوههم أبواب العلم والنور رءوساً لو تحلت بالعرفان لكانت فخار مصر إلى أبد الزمان ليذكر ذوو الإحسان والوجدان أن فى مصر كنوزا لم تستخرج للآن وأنها لو أخرجت للناس لملأت الأرض نورا، وأن هذه الكنوز مدفونة بين مساكن الفقراء إن الكلية (الجامعة) هى البناء الذى أدعو المصريين جميعا الى تشييده وما أكبر سعدى وأعظم هنائى لو ساعدتنى الأيام على وضع حجر فيه مع العملة الأبرار الذين يعملون لخير البلاد ليس إلا، ولا يسألون أحدا جزاءً ولا شكوراً هذا وأرجوك أيها الصديق أن تتفضل بقبول أصدق سلام وأوفى احترام من محبك وأخيك).

لقد كان إنشاء جامعة مصرية حلما وطنيا يراود مصطفى كامل منذ بدايات حركته الوطنية وكان لا يترك فرصة أو مناسبة إلا وجدد الدعوة الى إنشاء الجامعة المصرية ففى السادس والعشرين من أكتوبر عام ١٩٠٤ كتب مصطفى كامل فى اللواء تحت عنوان «جامعة مصرية بأموال الأمة» على ما يلى:

«مما لا يرتاب فيه انسان أن الأمة المصرية أدركت فى هذا الزمان حقيقة المركز الذى يجب أن يكون لها بين الأمم وأبلغ الأدلة على ذلك نهضتها فى مسألة التعليم وقيام عظمائها وكبرائها وأغنيائها بفتح المدارس وتأسيس دور للعلم بأموالهم وجهوداتهم ولكن قد آن لهم أن يفكروا فى الوقت الحاضر فى عمل جديد الأمة فى أشد الحاجة اليه ألا وهو إنشاء جامعة للأمة بأموال الأمة».

واستمر مصطفى كامل يدعولإنشاء الجامعة المصرية حتى جاءته الفرصة أثناء الاحتفال بالعيد المئينى لرحيل محمد على، لقد اقترح مصطفى كامل أن يطلق اسم (محمد على) على الجامعة المصرية وجاء ذلك فى مقال كتبه فى اللواء فى الثامن من يناير عام ١٩٠٥.

بيد أن دعوة مصطفى كامل قد وجدت صداها وكانت الفرصة الذهبية بعد عودته من أوربا واعتذاره عن التكريم وإصراره على تحويل الاكتتاب المخصص لتكريمه الى نواة لإنشاء الجامعة المصرية، لقد بدأت التبرعات المخصصة لإنشاء أول جامعة مصرية تترى من كل صوب وحدب وتم تشكيل لجنة لتأسيس الجامعة برئاسة الأمير أحمد فؤاد وتم اختيار سعد بك زغلول وكيلاً للجنة وقاسم بك أمين سكرتيراً لها، ولكن سعد زغلول قرر الانسحاب من اللجنة التأسيسية للجامعة المصرية بعد تعيينه وزيراً للمعارف بإيعاز من اللورد كرومر فكتب الزعيم مصطفى كامل معلقا على انسحاب سعد زغلول من مشروع الجامعة: «كيف يهتم المستشار فى الاستئناف بمشروع علمى ولا يهتم به ناظر المعارف؟» وقال أيضا: «إن تخليه يظهر الخطر الذى يحيق بالمشروعات العامة إذا كان لرجال الحكومة دخل فيها واعتقادنا أن أقوى ضمانة لأمثال مشروع الجامعة المصرية أن يكون القائم بها هو الأمة دون سواها».

يقول محمد بك فريد فى السابع عشر من أبريل عام ١٩٠٨: «تعلمون أن المرحوم مصطفى كامل باشا هو صاحب مشروع الجامعة المصرية وقال به من عهد أن شرع فى الاحتفال بمرور مائة عام على تولى محمد على باشا حكم مصر».

ويقول الخديوى عباس حلمى الثانى فى مذكراته حول الجامعة المصرية: «ومع أن كل شروع فى عمل بالمعنى الذى حلم به مصطفى كامل كان يعترضه دائماً وجود الوكلاء البريطانيين وإرادتهم.. فإن عهد حكمى كله قد تأثر بمجهوده الوطنى وأذكر على سبيل المثال إنشاء الجامعة المصرية الجديدة التى وضعتها تحت رياسة عمى الأمير أحمد فؤاد لمنحها استقلالاً حقيقياً، فهى الدليل الذى لا ينقض على ذلك، لأنها كانت من وحيه، فإن أول من فكر فى الجامعة هو مصطفى كامل».

الفصل الرابع



الحزب الوطنى رسالة وثورة وتاريخ

«إننى لأدعو كل واحد منكم للدخول فى الحزب الوطنى، حتى تتسع دائرة العمل لخدمة مصر، ويزداد المطالبون بالاستقلال، الممثلون للأمة فى همتها ونخوتها واجتماع كلمتها، العاملون على إنالتها شرف الأحياء ومجد الراقين»
كلمات من الخطبة الأخيرة التى ألقاها الزعيم الشاب مصطفى كامل فى الثانى والعشرين من أكتوبر فى عام ١٩٠٧.

بيد أن هذه الدعوة العلنية للانضمام إلى الحزب الوطنى لم تكن سوى نقطة فاصلة بين مرحلة العمل السرى الذى استمر خمسة عشرة عاما وكان فيها الحزب مجرد " فكرة " آمن بها مصطفى كامل ورفاقه الوطنيون وبين مرحلة الحزب المنظم، لقد استمرت فكرة الحزب تراود زعماء العمل الوطنى منذ عام ١٨٩٤ عندما كان مصطفى كامل يقوم بزيارات متتالية إلى منزل صديقه فؤاد بك سليم ابن لطيف باشا سليم الذى كان يجتمع فى منزله خيرة رجال مصر، وكان يرى أنه لابد من تكوين حزب منظم يعمل لصالح البلاد ويدافع عن حقها وكرامتها أمام أوربا عامة وفرنسا خاصة، لقد اختلط مصطفى كامل وهو ابن العشرين بهذا المجتمع الوطنى وتعلم وشارك بآرائه ومقالاته وأصبحت فكرة الحزب حلما يراود خياله كلما مرت بالبلاد نائبة لقد كان مصطفى كامل يعتبر أن هناك حزبا حقيقيا قائما يمارس العمل الوطنى حتى ولو لم يكن له تنظيما رسميا وليس أدل على ذلك مما ذكره فى رسالته لمدام جولييت آدم فى مارس ١٨٩٧بقوله «إنى ما يئست أبدا من مستقبل وطنى ولا من النصر الذى سيكون خاتمة مسألتنا لا سيما أن الوطنيين المصريين مستعدون الآن، ولنا حزب سرى مخلص للغاية وهو على استعداد لتضحية ذاته فى سبيل الوطن المفدى» والشئ المؤكد أنه فى هذا التاريخ لم يكن الحزب الوطنى قد تشكل ولم تكن جريدة اللواء قد خرجت إلى النور بعد، وهذا يؤكد أن الحزب الوطنى بدأ نشاطه سريا من خلال تلك الاجتماعات فى منزل لطيف باشا سليم أو منذ شكل أحمد لطفى السيد وعبد العزيز فهمى أول جمعية سرية لتحرير الوطن ثم انضم مصطفى كامل

ومحمد فريد بمباركة من الخديوى عباس حلمى الثانى الذى كان نصيرا للحركة الوطنية فى بدايات حكمه حيث تم تشكيل لجنة سرية موسعة وكانت هذه اللجنة بمثابة إحدى المحاولات الجادة على طريق إنشاء حزب يجمع كل الوطنيين، لقد كانت الفكرة هى تجميع كل الوطنيين تحت لواء واحد صوب هدف واحد وغاية وحيدة.

وحول هذه النقطة يقول الأستاذ فتحى رضوان «ذلك هو التركيز والتجميع والتعميق ثم التوسيع، فالأمة بعد الصدمة تذهل، ثم تثوب إلى رشدها شيئا فشيئا، وتحاول بعد ذلك التفكير فى الخلاص مما وقعت فيه، فتتعدد أمامها السبل، وتكثر بين يديها الحلول.. هذا ينصح بالاستسلام لقضاء الله والصبر على البلية وذلك ينصح بالاندفاع، وثالث يرى المناورة.. وقد يصيب الأمة من وراء التفرق وكثرة الآراء، خطر يزيد من البلية نفسها فلو أن الحركة الوطنية لم تجد فى مصطفى كامل قائدا ولسانا لتعدد القادة ولكثرت الأحزاب ولما استطاع الشعور الوطنى الذى بقى متقدا وحيا أن يتجمع وأن يسود ما عاداه من النزعات المريضة أو المعتدلة أو غير العملية»، كان مصطفى كامل فى زيارة إلى مدينة بودابست عاصمة المجر واطلع هناك على التنظيمات السياسية والحزبية التى تعد مدارس للتربية الوطنية الحقيقية وكان ذلك فى مطلع عام ١٩٠٠ فكتب من بودابست يقول:

«إن تاريخ هذا الوطن المجرى هو أكبر مدرسة لرجل مثلى وهب حياته لخدمة وطنه وإعلاء شأنه.. هل يسمح لى الزمان بأن أرى فى مصر هذا الحزب الوطنى الحر الشريف المبادئ المتحد الأعضاء الناهض بالأمة إلى مراقى النجاح والفلاح ؟

إنى أعرف أن اليائسين سيقولون إن تأسيس حزب كهذا أمر محال ولكنى إذا كنت لا أيأس من خلاص بلادى فمحال على أن أيأس من تحقيق هذا الأمر الجليل»

واستمر العمل والكفاح والجهاد قرابة سبع سنوات.. ازداد فيها الذهب لمعانا واكتملت فيها الثمار نضوجا.. لم تنطفئ فيها شعلة الأمل ولم يتوقف فيها نهر العطاء عن الجريان ونثر بذور الخير فى كل مكان..

وقبل مائة يوم أو يزيد من رحيل الزعيم رحلته الأبدية، أراد الله سبحانه

وتعالى أن يرى الحزب الوطنى النور ويصبح حديث الدنيا بأثرها، ففى العاشر من أكتوبر عام ١٩٠٧ كتب فى لوائه يقول

«ولما كان لكل عمل وقت فقد جاء الوقت لأن يوضع للحزب الوطنى نظام تام يجمع كافة رجاله وأنصاره ومحبيه الذين مضوا السنوات وهم مشاركون لنا فى العمل بكل أنواع المشاركة، وإنى من لحظة وصولى إلى الإسكندرية ومنذ ثلاثة أيام وإلى هذه اللحظة وكل واحد من رجال هذا الحزب وأبطاله الكرام يطالبنى بوضع هذا النظام بصورة نهائية حتى يتم التعاون بين جميع المخلصين لبلادهم المحبين لأمتهم المتشربين مبادئ الشهامة والإرادة والصدق والإقدام فتكون الخدمة أجل وأكبر والعمل أفيد وأعظم.. إن الحزب الوطنى المصرى الذى جعل أول مراميه وأسمى غاياته استقلال مصر ورد حقوقها إليها موجود فيها فعلا من ثلاثة عشر عاما مضت فهو وإن لم يظهر بشكل نظامى وبلائحة ولجنة إدارة قد ظهر بأعمال اتفق أعضاؤه على خدمة البلاد بكل قوة، قاوم الاحتلال فى أوربا ومصر مقاومة مقاومة شهدها كل المصريين والغربيين وارتبط بروابط أكيدة مع جملة من سواس أوربا، ولما حدثت فاشودة ضعفت همم بعض رجال الحزب، كما انفصل عنه بعض أفراد لتمكن اليأس من قلوبهم، وثبت فى موقفه من اعتقد أن فى نهضة الأمة بنفسها سلامتها وبلوغها كل مأربها.

وكأنه كان يشعر بدنو أجله فكانت خطاه سريعة كى يرى حلم الحزب الوطنى يتحقق ويتحمل تبعات الجهاد والنضال الوطنى ويجمع الأمة ويحقق أحلامها وطموحاتها،ففى الثانى والعشرين من أكتوبر عام ١٩٠٧ كانت الخطبة الأكبر والأطول والأخطر فى حياته، والتى أسماها البعض " خطبة الوداع " فى ثنايا هذه الخطبة ولد الحزب الوطنى على يد الزعيم مصطفى كامل.. لقد كانت كلمات الزعيم ومفرداته تمثل لوحة فنية فى مجال الزعامة ومخاطبة الجماهير.. كانت الخطبة بمثابة جدول أعمال، وكانت دعوته للانضمام للحزب الوطنى هى مسك الختام لهذه الخطبة التاريخية.. يقول مصطفى كامل ضمن ما قال فى هذه الخطبة التاريخية.

... ألا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوها واقرأوا صحف ماضيها، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض هل خلق الله وطنا أعلى مقاما

وأسمى شأنا وأجمل طبيعة وأجل آثارا وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز؟

اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد إن مصر جنة الدنيا وأن شعبا يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها، وأكبرها جناية، عليها وعلى نفسه إذا تسامح فى حقها وسلم أزمتها للأجنبى.

إنى لو لم أولد مصريا لوددت أن أكون مصريا!

ولكن أى شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء الأمة التى سبقت الأمم كافة فى العلم والمدنية والأدب؟ أى رفعة يسعى الشريف إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذا لشعوب البشرية ومربى العالم كله؟ أى سؤدد ترمى النفوس الأبية إليه أعلى من إخراج الوطن المصرى من الظلمات إلى النور وإحلاله المحل الأول بين الأوطان الأخرى التى كانت فى الدجنة الحالكة يوم كانت بلادنا مشرقا للعرفان»؟

أى لذة وسعادة ومكافأة يطلبها الوطنى المصرى أكبر من اشتراكه فى هذا العمل الخطير الذى هو أجل عمل يراه العالم فى القرن العشرين، إن المكتسب الأدبى للوطن المصرى من هذه الخدمة يجاوز أتعابه ومجهوداته بكثير.

لم يكتف الطاعنون فينا بنسبة التهم المتقدمة إلينا بل قالوا إن الحزب الوطنى آلة فى يد ألمانيا تحركها ضد فرنسا وانجلترا لإحداث فتنة فى البلاد الإسلامية التابعة لهما، وما قصدوا بهذه التهمة إلا جمع كلمة الدولتين ضدنا وتنفير أصدقائنا العديدين فى أوروبا منا.

إننا نعلن للملأ كله أن الحزب الوطنى مستقل عن كل الدول والحكومات والملوك والأمراء. وأنه إنما طلب سعادة مصر واستقلالها من كل طريق يجده مساعدا على الوصول إلى الغاية، وليس هناك برهان على إفك أعدائنا أكبر وأقطع من أننا انتقدنا السياسة الألمانية مرارا وقلنا لها إن المسلمين لا يصدقون بمحبتها إلا إذا غيرت خطتها فى مصر وطلبت حل المسألة المصرية فى مؤتمر دولى كما فعلت بشأن مراكش، وشتان ما بين مصر ومراكش فى الأهمية ووفرة المصالح الأوروبية.

إن المسلمين يخدعون أنفسهم كثيرا ويسيئون إلى بلادهم حقيقة إذا

اعتقدوا أن سلامتهم فى الاعتماد على دولة من الدول، وأن لهم أن يناموا على وسادة الأمان والاطمئنان إذا جاملتهم هذه الدولة بكلمة حب وانعطاف لغاية يجهلونها.

إنما سلامتهم فى أن يعملوا بأنفسهم لصيانة بلادهم وحمايتها بالعلم والعدل والنظام والدستور، فإن البلاء فى أن يكون الإسلام سلاحا بيد الجاهل الغبى يقتل باسمه البرئ من المسلمين وغير المسلمين ويخرب البلاد ويؤذى العباد قائلا: "إن هذا من عمل الإسلام".

إن الإسلام برئ من هذه الفظائع، إن الإسلام يقضى بكل قوة على هذه القبائح، الإسلام والجهل عدوان لا يتفقان، فلا إسلام بغير علم وفضل وعدل ومدنية وإنسانية، فلترفع الأمم الإسلامية التى لاتزال قادرة على حماية بلادها وصيانة استقلالها رايته، ولتعمل على اليابان فتعتمد على الجد وحده وتطلب الحياة والسؤدد من جهودها ومساعيها لا من تعضيد دولة ورعاية حكومة أجنبية.

إن أمة دبت فيها روح الوطنية وطمحت نفسها للاستقلال لا تموت أبدا، وإن صواعق السياسة كلها لا تحول ضميرا لاذ بالوطن عن وجهته!

فضموا صفوفكم وأجمعوا أمركم واعملوا بجد وهمة واثبتوا للأعداء والأصدقاء. إننا أحق الأمم بالدستور والاستقلال، إن الوطنية الحقة تقضى على صاحبها بأن يضحى بحياته خدمة لوطنه لو دعت الحاجة لذلك، فلنضح جميعا أحقادنا الذاتية وخصوماتنا الشخصية، ولننس عداواتنا واختلافاتنا أمام المصلحة الوطنية وأمام الوطن المقدس، لننس أشخاصنا ولنترك الطمع فى الزعامات والرئاسات ونتبع أحقرنا إذا كان على الحق، فإننا إذا نصرناه نصرنا الوطن والأمة، وإذا خذلناه خذلناهما معا.

أيها السادة! إن العالم ينظر إلى مصر وما سيكون من أمر حركتها الوطنية وإن أعداءنا يدبرون ألف تدبير لهدم دعائم هذه الحركة ومحو آثارها.

فاذكروا ذلك على الدوام ليزداد الاتفاق بيننا وليوجد الإخاء بأسمى معانيه بين صفوفنا.

إنى لأدعو كل واحد منكم للدخول فى الحزب الوطنى، حتى تتسع دائرة

العمل لخدمة مصر، ويزداد المطالبون للاستقلال، الممثلون للأمة فى همتها ونخوتها واجتماع كلمتها، العاملون على إنالتها شرف الأحياء ومجد الراقين.

لعمرى كيف لا يتم تدريس هذا الخطبة كنموذج للخطب السياسية العميقة و الراقية ؟

إننى أعدها من أعظم الخطب السياسية التى ألقيت باللغة العربية خلال قرن من الزمان..الفصاحة العربية وما فيها من قوة التاثير وحسن الإنشاء والتوقيع وجزالة اللفظ ورقة المعنى والاعتدال وعدم استخدام العبارات الحادة أو الالفاظ الجارحة..

بيد أن طلبات الإنضمام للحزب الوطنى انهالت كما المطر المنهمر فور دعوة الزعيم مصطفى كامل وشملت كافة طبقات وأطياف الأمة المصرية وعقدت أول جمعية عمومية فى تاريخ الحزب يوم ٢٧/ ١٢/ ١٩٠٧ بدار اللواء وألقى الزعيم أول خطبة سياسية بالحزب الوطنى أوضح فيها أن هذا الحزب قديم قدم العمل الوطنى نفسه، وإن لم ير النور إلا هذه اللحظة، وطالب الحضور بحتمية العمل الجماعى والتفانى فى خدمة القضية الوطنية الأولى وهى قضية الجلاء ونيل الاستقلال، وأوضح أن هذا لن يتحقق إلا بتربية الأمة وتعليمها وبث روح الوطنية بين أبنائها، وحثهم على الثبات والاتحاد، ودعا إلى التمسك بالنظام الدستورى مستنكرا نظام الحكم المطلق وقال الزعيم مصطفى كامل:

«إننا لسنا حزبا سياسيا فقط بل نحن قبل كل شىء حزب حياة للأمة وإنهاض لها، فلا نغفل التعليم بين كافة الطبقات لحظة واحدة، وهو يرمى إلى الاستقلال، ويعمل لنشر التعليم حتى لا يبقى مصرى جاهلا تحت سماء مصر، ويسعى للوفاق بين الأمة وتقريب المسافة بينها وبين الشعوب الأخرى، وهو يرمى قبل كل شئ إلى أن يكون المصرى إنسانا بأسمى معانى الكلمة، وأقصد بالمصرى ليس فقط ذلك الذى نراه فى المدائن يجد ويعمل، بل أقصد بنوع خاص ذلك الفلاح الذى قضى القرون من السنين وهو يعتقد أنه ملك للحاكم ومتاع لا إرادة له فأسمى عمل نقوم به هو إنهاض ذلك الفلاح العزيز وإعلاء مكانته، فهو ممثل النشاط المصرى، ومصدر كل خير ونعيم، فليحى عصر ينطق فيه التاريخ بأن الفلاح ألقى أثقال القرون الماضية وصار رجلا

حرا يفضل أبناء وطنه المتعلمين المجاهدين فى سبيل حريته وسعادته.إننا إذا دعونا الناس للدخول فى هذا الحزب لا ندعوهم باسم سلطة عالية أو حاكم نافذ الكلمة بل ندعوهم باسم وطنيتهم، باسم شرفهم، باسم حقوق وطنهم، باسم كرامة الإنسان، باسم ذكريات آبائهم وأجدادهم، باسم مصالح أبنائهم وأحفادهم...»

وفور انتهائه من كلمته الافتتاحية انتخب الحاضرون بالإجماع مصطفى كامل رئيسا للحزب الوطنى لمدى الحياة، ليصبح بذلك أول رئيس للحزب الوطنى فى تاريخه وليمضى فى موقع الرئاسة قرابة مائة يوم فقط ليصبح بذلك أقل رئيس للحزب الوطنى بقاء فى هذا المنصب، ويكون بذلك قد حقق أحد أهم أحلامه السياسية حيث كان إنشاء وتكوين حزب سياسى يجمع بين جنباته كل الأفكار والطروحات الوطنية بمثابة حلقة مهمة من حلقات الكفاح الوطنى فمفهوم الحزب كما يراه مصطفى كامل يختلف كثيرا عن المفاهيم الدارجة لرسالة الأحزاب، فهو يرى أن حزبا وطنيا لابد أن يكون له دور تربوى وتعليمى وتثقيفى وتصنيعى وإنتاجى وزراعى ونهضوى وتنموى.. إنه يرى الحزب منارة ودارا وفنارا للوطنية الحقة التى تجمع ولا تفرق.. تبنى ولا تهدم ، إنه جاب العالم شرقه وغربه ووضع يده على بيت الداء واستطاع تشخيص المرض العضال الذى ألم بالأمة وهو الإحباط واليأس والخنوع والقدرة العجيبة على التعايش مع القهر بل والتودد لمن يقهرهم، بيد أن الرجل شخص المرض قبل بداية العلاج وكان تكوين وتشكيل حزب وطنى أحد وسائل العلاج الناجعة لأمراض الأمة كما رآها الزعيم الشاب مصطفى كامل..

وفور انتخابه رئيسا للحزب وقف مصطفى كامل يخطب مرتجلا فى الحضورقائلا:

«إنكم حملتمونى طوال حياتى حملا ثقيلا على كاهلى، فانا قبل كل شئ أشكر لكم ثقتكم بى، هذه الثقة التى كانت عونا لى فى كل أعمالى وأقوالى، وأقول لكم إنكم أنتم قوتى وساعدى بصفتكم من خير أمة أوقفت لخدمتها حياتى وقواى وعقلى وقلبى وقلمى ولسانى وصحتى، وكم من صديق قال لى أشفق على صحتك التى لا تدخر وسعا فى بذلها، ولكن الواجب لبلادى ووطنى ينسينى هذه النصائح الثمينة، فأنا الآن إذا قبلت اختياركم لى رئيسا

فإنما هو لثقتى بأن كل واحد منكم أصبح حياتى وشعورى واعتمادى بل صار كل منكم فى الشعور الوطنى أكبر من مصطفى كامل».

وبعد أن انتهى مصطفى كامل من كلمته وقف فؤاد باشا سليم صديق الزعيم والذى كان والده لطيف باشا سليم أحد دعاة إنشاء الحزب الوطنى يتلو لائحة الحزب والتى أقرت برئاسة مصطفى كامل للحزب مدى الحياة، وبدورية انعقاد الجمعية العمومية للحزب سنويا تحت اسم «المؤتمر الوطنى» ويكون من صلاحيات ذلك المؤتمر انتخاب اللجنة الإدارية والتصديق على ميزانية الحزب وأعماله والنظر فى اقتراحات الأعضاء وتقرير كل أمر نافع للبلاد وتناقش الجمعية فى كل اجتماع المسائل الحيوية فى كافة أنحاء القطر المصرى، ويبدى الأعضاء آراءهم فى كل أمر مهم، وتؤلف من أبحاثهم وأقوالهم مجموعة سنوية باسم «تقرير الحزب الوطنى» .

وبذلك ولد الحزب الوطنى من رحم الوطنية الخالصة فالتفت حوله الجماهير.

الفصل الخامس



مصطفى كامل خطيباً سياسياً

كانت موهبة الخطابة إحد أهم الأدوات التى استخدمها مصطفى كامل للوصول إلى قلوب الجماهير، وكانت كلماته قوية وعباراته رصينة وأفكاره مرتبة ورسالته واضحة، وكانت الحماسة هى العنوان الأكثر وضوحاً فى خطب الزعيم الشاب، لقد أراد أن يحرك تلك الجماهير التى أصابها الإحباط وقتلها اليأس.

أراد أن يوقظها من مرقدها، ليس ذلك فحسب، بل ويشعل الحماسة والوطنية فى قلوبها، لقد نجح ذلك الزعيم الشاب فى بث روح جديدة يحدوها الأمل والطموح، لقد التف حوله الجميع وآمن برسالته الجميع، وأصبحت الجماهيرعلى يقين بأن هذا الوطن مبعث الرجال والزعماء ومعين لا ينضب على مر العصور والدهور، لقد كانت خطب الزعيم الشاب مدرسة فى الوطنية والإخلاص، وقد قام الزعيم الشاب بجمع الخطب التى ألقاها والمقالات التى كتبها على مدار عشر سنوات ونشرها فى كتاب بعنوان " المصريون والإنجليز " وتم توزيع الكتاب وإرساله إلى معظم الساسة والمفكرين على مستوى العالم كى يقف هؤلاء على حقيقة الحركة الوطنية ومقاصدها ورسالة الحزب الوطنى وطباع وميول المصريين، فكان الكتاب وكما يقول عبد الرحمن الرافعى خير دعاية عالمية للمسألة المصرية، وقد قالت مدام جوليت آدم فى مقدمة الكتاب: " إنه يجاهد بكل الصور والأشكال ضد اليأس والقنوط وعدم الاكتراث بشئون البلاد وقلة الوطنية، تلك الآفات الثلاث التى تهدد مصر والتى هى أشد خطرا على الأمم "وقد نشرت جريدة جورنال دى كير الفرنسية مقالا حول هذا الكتاب وعنونته بأحد شعارات الزعيم " أحرار فى بلادنا، كرماء لضيوفنا " وجاء بالمقال " قرأت هذه الخطب التى ألقيت الأولى منها عام ١٨٩٥ والأخيرة ١٩٠٤ عشر سنوات من حياة الخطيب قضيت فى العمل والسعى والجهاد بلا ملل ولا خور فى العزيمة الجديرة بأن يقف الإنسان أمامها ولا يملك إلا الإعراب عن أشرف وأطهر وطنية ، إن فيها قوة وحدة وروح الشباب والأمل تملأ هذه الصفحات وتهزها وتشعر اليد

بارتعاش عند تقليبها إنها بالغة الغاية فى الحياة، ورغما عن هذه الحرارة وتلك النار المشتعلة، ورغما عن الحدة التى تلازم كل حب شديد، قد استطاع هذا الخطيب الشاب أن يحافظ دائماً على الاعتدال ويقف عند الحد الواجب فهو حاد اللهجة وفى عباراته حركة شديدة أحيانا بحيث يشعر بأنها تجرى وتعدو وتدوى كالسيل الجارف وقت ذوبان الثلوج فيخيل إلى الإنسان أنها ستأخذ فى طريقها كل شىء ولكن السد الذى أقامته نفس شريفة وفكر عال موجود - فعبارات الخطيب تغلى كالماء ثم تجرى واضحة رائقة تطرب القلوب وتنزل برفق وتسع مجراها وتروى وتلف ما تمر عليه وهناك أمر آخر يستوجب دهشتى وهو أن هذه الحياة واحدة منسجمة متصلة فهى خط مستقيم لا انقطاع فيه أترى من أول خطبة إلى آخر خطبة ضميراً واحداً وروحًا واحدة ليس فيها تناقض ولا خطوة واحدة فى غير موضعها وإلى مثل هذا ينتهى التعقل والصراحة الطاهرة وهو مثال يكاد يكون، فلا جدال أن القوم فى أوروبا يطأطئون له الرءوس احتراما له ولو كانوا خصوما له أو أعداء.. أن عمل هذا الزعيم أتعب وأصعب فهو لا يجب عليه فقط أن يتكلم أمام الجماهير كما يفعل الخطيب الأوروبى، بل هو مضطر لتربية هذه الجماهير وتعليمها وتدريبها على الفكر والإحساس، وهو مطالب أكثر من غيره باحتراس وحذر نحو بنى وطنه ونحو الأجانب وإنى أتوجع لعنائه بقدر إعجابى به ومهمته لا تعود عليه الآن بالفائدة فلا بد من نفس كبيرة امتلأت بحب الوطن وأخلاق قوية متينة ليستطيع شاب أن يكرس حياته كلها لبلاده غير طالب شيئاً آخر سوى عظمتها وسعادتها واستقلالها " وفى هذا الفصل من الكتاب نستعرض أهم الخطب التى ألقاها الزعيم.

الخطبة السياسية الوطنية الأولى
٣ مارس سنة ١٨٩٦ - الإسكندرية

كان عمره وقتئذ اثنين وعشرين عاما!! نعم اثنان وعشرون فقط وكان قد مر على الاحتلال الإنجليزى لمصر أربعة عشر عاماً.

وكان مصطفى كامل عائداً من رحلته الشاقة لطرق أبواب أوروبا شارحاً لهم وموضحاً مفردات " المسألة المصرية " وتعلقت به آمال وطموحات الجماهير المصرية، وكانت خطبه ومقالاته عنوانا للوطنية والإخلاص،

فاهتزت لها أوتار القلوب وبات الجميع على قناعة بأن الخلاص سيكون على يد هذا الزعيم الشاب، اعتزم مصطفى كامل إلقاء خطاب سياسى وطنى وسط الجماهير، فاختار مدينة الإسكندرية وكانت هذه الخطبة الرائعة التى ألهبت حماس الجماهير ونالت إعجاب واحترام جميع الدوائر الوطنية.

نص الخطاب:

«سادتى وأبناء وطنى الأعزاء:

ما اقتربت من مدينتكم الزهراء حتى شعرت من نفسى بارتياح زائد وانشراح خاص، لأننى عهدتها وأعهدها مدينة الحياة الحقيقية ومهد الرجال المشهورين بالشجاعة والبسالة والإقدام، والمقابلة الودية التى قوبلت بها من كرمائها وساداتها قبل أن أقف بينكم الليلة خطيبا زادتنى حبا لها وميلا لأهلها، وإنى أحمل كل ذلك الإكرام من أهل الإسكندرية على عظيم رغبتهم فى إعزاز مبدأ الوطنية الشريف لا على إكرام شخصى الضعيف.

ويسرنى أن أحادثكم اليوم فى شئون الوطن العزيز، هذا الوطن الذى تحبونه حباً مفرطاً، وتعملون لخيره وسعادته، وأرانى موفقاً لحصولى على هذه الفرصة الثمينة التى أتبادل معكم فيها ما يختلج نفوسنا من الآمال والأمانى التى هى معنى الحياة والباعث القوى على العمل بجد ونشاط.

ويلزمنى أن أقول لكم إنى قبل مبارحة القاهرة أخبرت بعض أصدقائى بأمر هذه الخطبة، فأشار على فريق منهم بعدم إلقائها، معللين ذلك بقولهم «إنك إذا ذهبت إلى الإسكندرية واجتمعت بأهلها وحادثتهم فى مصائب مصر وآلامها ربما نتج عن ذلك شئ من هياج الأفكار، الأمر الذى لا تحمد عقباه لأنهم شديدو الوطنية وأنت شديدها وقد تدعو شدة الشعور بالواجب إلى ما يتجاوز الحدود أحيانا» وزاد بعضهم على ذلك قوله «ولربما انتهز خصومك وخصوم الوطن العزيز هذه الفرصة لإحداث ما يقلق ويضر لتلقى التبعة عندئذٍ على أهل الإسكندرية وعليك أيضا»، فخالفتهم فى الرأى وجئت ثغركم الباسم معتمداً على حكمتكم، اعتمادى على همتكم وشجاعتكم، وإن أفضل صفة اتصف بها أهل الإسكندرية هى ولا غرو معرفة الواجب والشعور الصادق بحقيقة الحوادث والواجب اليوم على المصريين كافة إنما هو التمسك بالصبر والاعتدال أكثر من ذى قبل.

وقد اتخذتم يا أبناء الإسكندرية فى كل بلاد مصر مثالاً للهمة والحماسة، فلتكونوا كذلك مثلاً صادقاً للدعة والسكون والاعتدال لتصبحوا وتمسوا أساتذة لمصر كلها فى تأدية الواجب نحو الوطن المحبوب.

ولقد أشاع عنكم بعض كثيرى الظنون أن غيرتكم وحميتكم يستعملان أحيانا ضد صالح البلاد، وأنكم تنفذون من حيث لا تشعرون مآرب ذوى الغايات بإحداث القلاقل، وكنت كلما أسمع مثل هذه الإشاعات أستغربها كل الاستغراب، ولى الحق فى ذلك الاستغراب، لأن الغير التى تستعمل فى غير موضعها تكون دواما أضر من البلادة والخمول، فلذا أنا أناديكم- وإن كنتم أعلم منى بالواجب- مناداة محب لبلاده ولمدينتكم بنوع خاص، أن تنفوا باعتدالكم وسكوتكم تهمة من يرمونكم بحب الهياج والاضطراب.

ومثل مصر اليوم وهى على باب السعادة المقبلة مثل مريض قارب الشفاء ينصحه الطبيب بزيادة التحفظ وعدم التعرض للهواء لئلا ينتكس بالعلة فتعود عليه بويل أشد من ويلها الأول، فلنحترس جميعا معشر المصريين من التعرض إلى ما وراء تعرض الوطن نفسه إلى خطر عظيم.

وإن صفتى التسامح والغفران اللتين اشتهرت بهما الأمة المصرية كانتا من أعظم الأسباب التى استمالت قلوب الأوروبيين نحوها، وجعلتهم يعتبرون مصر كقطعة أرض من أوطانهم فهم يقطنونها آمنين مطمئنين، متمتعين براحة البال والبعد عن البلبال، ولذا وجدنا منهم على اختلاف جنسياتهم ومللهم نصراء أشداء للمطالبة بحقوق مصر وتحقيق رغائب أبنائها، ويفرحنى كثيرا أن أرى اليوم من أكابر وأعاظم القوم فيهم قد حضروا هذا الاحتفال ولبوا الدعوة بلطف وتكرم، وهو ما يدلنا على اشتراكهم معنا فى الإحساسات نحو هذه البلاد العزيزة.

وأول مدينة فى مدائن القطر سكانها الأوروبيون ووجدوا من أهلها بشرا وائتلافا ولا جرم مدينة الإسكندرية، ولكم الحق يا أهلها وأعز أبنائها أن تفتخروا بذلك أعظم الافتخار، فداوموا أيها الوطنيون الأعزاء على إكرام وفادة ضيوفكم ونزلائكم الذين يشتركون معكم فى الإحساسات نحو هذا البلد الأمين، وليكن مبدؤنا دائما «أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا».

وقد يفهم بعض الناس بالاعتدال الكف عن كل عمل يخدم البلاد ويسبب

سعادتها، فتراهم مقصرين كل التقصير عن واجباتهم، وهؤلاء يخطئون الاعتقاد، لأن الاعتدال لا يفيد التهاون والإهمال، وما أجمل الاعتدال مع العمل على خدمة الأوطان.

وإن فى مصر فئة من الناس نسيت أن الأمل داعى العمل، فلبست ثياب اليأس وقضت بظنونها على مستقبل الوطن العزيز، وجعلت مهمتها فى الأمة تثبيط الهمم وإقعاد العزائم، فلا تنادى فى المحافل والأندية، إلا بأنه ليس لمصر حظ فى المستقبل من الحرية والسعادة الاجتماعية، وأن شعبها قد مات من زمن طويل وليس لمفكر عاقل أن يؤمل له مستقبلاً جديداً، وترى رجال هذه الفئة اليائسة يرمون كل رجل بالدفاع عن حقوق البلاد المقدسة بعدم الخبرة وقصر النظر.

وعندى أن الرجال اليائسين، وإن كانوا أقل من القليل يضرون بلادهم أعظم ضرر بما يقولونه ويكررنه، إذا أن قتل العواطف الشريفة وإخماد نار الغيرة الوطنية هما ولا محالة أكبر جناية تجنى على الوطن وأهله، فليكن من واجباتنا أن نترك هؤلاء اليائسين فى سفن يأسهم تصعدهم أمواج الأفكار وتهبطهم حتى تصل بهم إلى شاطئ الخير وبر الرفاهية فنذكرهم عندئذ بفساد مزاعمهم وخطأ آرائهم.

ولا تظنوا أيها الإخوان الأعزاء أن عملكم لخير بلادكم يقابل من الإنجليز بالازدراء والاحتقار، كلا ثم كلا، الإنجليزى الذى يحتقر مصرياً يحب بلاده ويدافع عنها بصدق وإخلاص يكون محتقراً لنفسه ولقومه، لأنه هو وكل مواطنيه أول العاملين فى الأمم على تقدم بلادهم، ولا يرضيهم أن تبقى سعيدة فى داخلها فقط، بل يبذلون كل ما فى وسعهم لا تساع نطاق مستعمراتها واستدرار الخير من مواردها لها وحدها لا لغيرها.

وإذا ولجت موضوع الوطنيين المصريين إزاء الإنجليز فأرانى فى حاجة لأن أستميحكم الإذن فى التكلم عن مسألة الاحتلال وإبداء رأيى فيها بكل صراحة.

وليس من غرضى أن أطعن على الحكومة المحلية أو أنتقد على أعمالها فكلكم تعرفون مواضع الخلل فى الإدارة ومواضع الكمال والانتظام، وبديهى أن نواميس الوجود قاضية بسوء إدارة كل مصلحة وطنية يتداخل فى شئونها

تداخلا فعليا رجال غرباء لا يفقهون لغة البلاد ولا يعرفون شيئا من عوائد أهلها وأخلاقهم. وليس غرضى كذلك أن أندد بحكومة جلالة الملكة أو بالأمة الإنجليزية، لأنى أترفع عن أن أدافع عن بلادى بالطعن والسباب، فضلاً عما أحس به دائماً من وجوب احترام الشعب الإنجليزى، وإنما الذى أريد ذكره وإيضاحه هو أن الخلاف حقيقة، والخلاف بيننا معشر المصريين وبين بعض الإنجليز هو: هل زمن الجلاء عن مصر حان أو لم يحن، فدول أوروبا ذوات المصالح فى مصر تقول معنا إن زمن الجلاء قد حان منذ أعوام، والمستر غلادستون زعيم الأحرار وأكبر سياسى إنجلترا يقول ذلك القول بعينه غير خائف لوماً أو تعنيفا وبعض أبناء التاميز يقولون ضد ذلك إن زمن الجلاء لم يحن وإن مصر فى حاجة إلى وصى عليها.

وقد نرى بعض المتحزبين للاحتلال الأبدى- وهم ليسوا من الإنجليز.. والإنجليز لا يستطيعون أن يكونوا على رأيهم- يقابلون مطالبنا الشرعية بالسباب والشتائم، فهل يستطيعون اليوم أن يقولو عن المستر دجلاستون إنه عدو لبلاده كما يتهموننا بنكران الجميل؟

وبعيد عن ذهنى أنه يوجد على الأرض رجل إنجليزى يحب وطنه حباً حقيقياً ويستطيع القول إن إنجلترا تريد وضع يدها على وادى النيل، فإن ذلك الأمر، بل هذا الجزم العظيم مناقض كل المناقضة لمصلحة إنجلترا نفسها ولشرفها العالى الشأن.

وإلا فهل يرضى أبناء إنجلترا أن يستعمل شرفهم آلة دنيئة لامتلاك بلاد حرة واستعباد أمة حرة؟ وهل ترضى الأمة البريطانية الغيورة على مقامها واحترامها أن يقال عنها إنها لا شرف لها ولا احترام لكلمتها العلنية وعهودها الصريحة؟ إنى لا أظن ذلك وأعتقد أنكم كلكم على رأيى.

وهل تسمى المروءة مروءة إذا كان معناها أن أمة أوروبية استغاث بها أمير شوقى بأغاثته ونصرته، ثم عملت ملكه واسترقاق أمته وشعبه؟

إذن فنقطة الخلاف الوحيدة بيننا وبين بعض الإنجليز هى أن زمن الجلاء على رأينا حان؟ وعلى رأيهم لم يحن إلى الآن، وعهد كل عاقل بالأمة الإنجليزية أنها إذا وقفت على الحقيقة وأرشدت إلى الصواب كانت فى مقدمة أمم أوروبا مطالبة بالجلاء.

وعسير على الأمة الإنجليزية الوقوف على الحقيقة إلا إذا قام فيها خطباء من أفرادها ومن المصريين أنفسهم يبطلون ما تذيعه «التيمس» وأخواتها من ذوى الأغراض السافلة من أن الإنجليز لم يقوموا فى مصر إلى الآن بالواجب عليهم، ولقد سألنا شيخ الأحرار جلادسون أن يكون لأبناء جنسه المرشد لأمته عن حقيقة مسألة مصر وعن ضرورة الجلاء، وأملنا أن يجيب طلبنا ويحقق أمنيتنا.

ولكن إرشاد الأمة الإنجليزية إلى ما ينتظره المصريون منها وما يتقدونه فى شرفها لا يكون إلا برجال من أبناء مصر يقومون وينادون فى كل بلاد أوروبا بحقيقة أحوال مصر وأمانيها ليزيدوا من أنصارها. ويكون للوطن المصرى من الأمم الأوروبية نصراء عند مطالبته الأمة الإنجليزية بإجبار حكومتها على الجلاء.

ويكفينا لاستمالة الأمة الإنجليزية نحو مطالبنا الشرعية أن نقول لها بكل صراحة: لقد صار الشرقيون إلى ريب فى احترامك لشرفك وشك فى محافظتك على الوفاء بعهودك، فهل لك أن تطالبى بالجلاء عن مصر لتحققى للعالم كله بقاءك على عهدك الأول الشريف، ولقد غرر بك أيتها الأمة الخطيرة بعض ذوى الغايات، وقالوا لك إن الأمن لا يستتب فى مصر وإن الخديو لا يستطيع حكم بلاده برجاله، ليجبروك على الحكم بلزوم الاحتلال، فاعتقادى أن ذلك محض اختلاف وأن الأمن مستتب والأمة كلها مخلصة لأميرها محبة له.

وإلا فهل يرضى الإنجليز بأن يقال عنهم إنه ليس فى إمكانهم إعادة الأمن إلى ديار مصر بعد احتلالهم لها أربعة عشر عاما؟

إذ قلنا للأمة الإنجليزية وعرفناها إننا لا نبغض الإنجليزى، بل نبغض المحتل من حيث هو محتل، ولو كان أقرب الناس إلينا، لأننا أمة حية متمدنة نريد أن نحكم أنفسنا بأنفسنا ولا نرضى أن نبقى قصر تحت حكم وصى ننظر إلى تقدم الأمم الأخرى نظرة الكئيب التعيس دون أن نستطيع محاكاتها ومجاراتها، إذا قلنا لها ذلك وأسمعناها هذا الصوت «صوت الحق» كانت ولا ريب أول أمة قاضية على الاحتلال، آمرة حكومتها بالإسراع بالجلاء، لأن من شأن كل أمة متمدنة تمدنا عظيما كالأمة الإنجليزية أن تحترم الشعوب المطالبة بحقوقها العارفة بواجباتها.

وإذا كان صالح مصر يقتضى كما قلت لكم وجود خطباء من أبنائها يطوفون العواصم والمدائن فى أوروبا معلنين آراءهم مجاهرين بإحساساتهم مطالبين بحرية بلادهم فوجود خطباء مثلهم فى مصر نفسها يرشدون الأمة إلى الخير ويحذرونها من الوقوع فى الشر أصبح أمرا محتما.

وغنى عن البيان أن الصادق فى حب بلاده لا يعرف إلا عند الحاجة، والوطنى لا يسمى وطنيا إلا إذا خدم وطنه فى شقائه، أكثر من خدمته له فى رفعته وهنائه.

ولا ريب عندى فى أنكم كلكم تودون مثلى أن تكون مصر بلادا حرة، منتشرة فى سائر أرجائها من الإسكندرية إلى منابع النيل أنوار العلوم والمعارف، وتصبح كما كانت مهدا للفضائل والآداب، مشرقا لشمس المدينة فى بلاد الشرق، مسرحا للتنافس فى الصناعة والتجارة، مجمعا آمنا للأجانب ذوى المصالح فيها، طريقا سهلا للرائدين، لا ريب عندى فى أنكم كلكم تحبون أن تنتسبوا لمصر إذ يكون هذا شأنها، يفتخر عندئذ كل منكم أن ينادى بأعلى صوته «أنا مصرى».

ولكن ألا تحبون كذلك «مصرا» خيم عليها الشقاء وحل بها البلاء وسبقتها الأمم وأصبحت بعد فى مصاف الشعوب القاصرة، تناديكم وأنتم حولها: «ألا فانصرونى يا أعز البنين، ألا فارفعوا شأنى بين الأمم واجعلوا لى مكانا فسيحا بين الشعوب المتقدمة الحية»، أجل! أجل! تحبونها ويجب عليكم أن تحبوها وتحنوا عليها كما يحنو المرء على أمه الشفوق إذا اعتلت ويسعى فى خدمتها ويبحث عن دوائها.

ولا يكن حبكم واقفا عند حد الحب وحنانكم عند الحنان، بل ليتجاوزوا ذلك إلى العمل لخيرها وإعلاء شأنها.

وثقوا أيها الوطنيون الأعزاء بأن المستقبل لكم ولها، فاعملوا لسعادتها وتذكروا دائما قول غبتما الشهير «ليس المستقبل بمستعص على أحد»، نعم لنعمل لسعادة الحال والاستقبال، وننفذ ناموس الطبيعة لئلا نخرجٍ أنفسنا من نوع الإنسان ذلك الناموس القاضى على كل فرد بالعمل حتى تستريح النفس فى السكينة والظلام.

ولقد كنت أحضر فى أوروبا مجتمعات يتردد عليها كثير من الغربيين ذوى الجنسيات المختلفة، فكان كل يفاخر القوم ببلاه وذويه، الأمريكانى بحريه أوطانه وشرف تاريخها وحسن نظامها وكبار رجالها، والفرنساوى بشهامة أبناء وطنه وفضل جنسه على النوع الإنسانى وحرية مبادئه وشرف تاريخ

بلاده العظيم، والألمانى والإنجليزى وغيرهما كذلك، وأنا أنظر الجمع وأسمع الجميع وقلبى فائض حزنا وفؤادى ممتلىء كآبة وعيناى مغرورقتان بالدموع، وليس يجرى على لسانى غير ذكر مصائب مصر، وآلامها، فهل لنا أن نفاخر الأمم يوما من الأيام ببلادنا وأوطاننا؟ هل لنا أن نكون أمة حية قوية محترمة؟ إنى أؤمل ذلك، آمله من صميم فؤادى.

ومستحيل علينا أن نصل إلى السعادة التامة ونفوز برغائبنا الوطنية إلا إذا اتحدت كلمتنا واجتمعت قلوبنا على محبة البلاد بصدق وتجرد عن الشخصيات فلنتحد قلبا ولسانا، ولا يكن مثلنا مثل عائلة اشتعلت النار فى دارها وأفرادها متباعضون، فبدلا من أن يجتمعوا لإطفائها أخذوا يتنازعون على ما أبقته يد النار من المتاع، غير ناظرين إلى النار تصل إليهم فتحرقهم وتحرق متاعهم وتقضى على دارهم القضاء الأخير إذا لم تزل الشقاق من بينهم ويجتمعوا على إطفائها.

وإن يوما تجتمع فيه قلوبنا على محبة البلاد وخدمتها وتتحد فيه كلمتنا يكون يوم تحقيق الآمال وعنوان سعادة الحال والاستقبال، ويحق لنا فيه أن تقف أمام الأمم كافة وننادى بأعلى صوتنا وبكل فخار نحن بنو مصر الأحرار».

تعليق

تركت هذه الخطبة أعظم الأثر فى نفوس الشعب المصرى وازداد الجميع ايمانا بأن هذا الشاب الثائر هو أمل مصر فى تحقيق طموحات الاستقلال والسيادة الوطنية وقد علقت جريدة المؤيد على هذا الخطاب بقولها «وبالجملة فإن جميع الذين سمعوا هذه الخطبة الشيقة أجمعوا على أن حضرة الخطيب الفاضل قد استهوى المسامع بحسن إلقائها وبلاغة منطقه وغزارة مادته ولطيف اعتداله».. وقال أيضاً: «إنها الخطبة الأولى التى أقدم على إلقائها شاب مصرى غيور، عرف واجب الوطن وضرورة التفانى فى حبه المقدس بعد أن مر على الإحتلال الأجنبى أربعة عشر عاما.

وعلقت جريدة الفارد الكسندرى بقولها: «وهو الأمر الذى كان له أحسن وقع فى النفوس الحرة لا سيما من شاب لا يتجاوز عمره اثنين وعشرين سنة قام نائبا عن أبناء وطنه فى الدفاع عن حقوقها».

الخطبة الثانية التى ألقاها الزعيم باللغة الفرنسية
١٣ أبريل سنة ١٨٩٦ بمدينة الإسكندرية

أيتها السيدات.. أيها السادة

إنى أقف بينكم متكلما وانفعال نفسى عظيم، ولقد كان بودى أن أعتذر الذى شرفونى بدعوتى إلى إلقاء هذه الخطبة لو لم يكن إحساسى بالواجب على دعانى لإطاعة أمرهم والانصياع لرغبتهم، ماجئت إلى هذه الحفلة وفؤادى منشرح لأنى أخاطب نخبة نزلاء الأوروبيين أولئك العاملين بالنشاط، الذين هم بيننا طليعة المدنية الغربية.

ومما يزيدنى سروراً أنى واقف أمام جمعية أصدقاء لبلادى أوفياء لها، لم يقصدوا بمجيئهم هذه الليلة سماع خطيب بليغ، بل جاءوا ليظهروا علامة ودهم لوطنى ضعيف ولمسألة مصر الشريفة الحقة.

أجل أيها السادة، يتكلم الإنسان أمامكم بكل ارتياح، وافتخار عن الأوطان ويدافع عن حقوقها المهضومة ويطلب لها مستقبلاً سعيداً، فإنكم كلكم تنسبون إلى أوطان شريفة حرة سعيدة، وتحبون هذه الأوطان وتعشقونها عشقاً صحيحاً ولا استطاعة لكم غير الموافقة للذين يحبون أوطانهم مثلكم

وإننا معشر المصريين نحب مصرنا الأسيفة بكل إخلاص، ولا نود لها شيئاً آخر غير يقظتها وسعادتها، ولكن من سوء الحظ يوجد فى هذا البلد طغمة من الرجال يطعنون أشد الطعن على الوطنيين، ويدعون مع ذلك أنهم المدافعون عن الاحتلال الإنجليزى، على أنهم لو كانوا حقيقة المدافعين عنه لحسبوا عاراً عليه وخجلا، فإن انجلترا نفسها لا تستطيع أن تبغض أو تحتقر مصرياً وطنياً؛ إذ من ضمن الأسباب التى تنتحلها لنفسها للإقامة فى مصر تربية المصريين، فهل من الجائز أن يكون المصريون حسنى التربية من غير أن يكونوا وطنيين محبين لبلادهم؟ كلا !

ولقد كان أولئك الذين يدعون الدفاع عن الاحتلال الإنجليزى يزعمون أنهم أوقفونى إلى الأبد، إذ يظنون بسذاجة لا مثيل لها أن الإجحاف الذى لحق أخيراً بأحد إخواتى يضعف قواى أو يوهن عزيمتى أو يقلل مجاهدتى فى سبيل سعادة بلادى فأخطأوا الظن لأننى بعيد عن أن أمل، وسأستمر بقدر

استطاعتى فى المدافعة عن وطنى العزيز، سأستمر - ولا يوقفنى فى طريقى إلا الموت - فى وصف مصائب مصر وآلامها والمناداة فى كل مكان بحقوقها المقدسة، والمطالبة بحريتها واستقلالها

وإنا نعلم أننا بدفاعنا عن مسألة بلادنا الشريفة وبتقديسنا لها نعرض أنفسنا للضرر والخطر، ولكن اعتقدوا جيداً أيها السادة أن همتنا لا تفتر أبداً. لحق بنا ضرر أم لا.

فليس هناك من شئ أجمل فى عين الوطنى من المجاهدة فى سبيل بلادة، فضلاً عن أن المجاهدة بالنسبة لنا ليست أمراً صعباً، إذ ضد من نجاهد نحن؟ أضد الأمة الإنجليزية؟ كلا ليس جهادنا ضدها، إنما هو ضد فريق من الناس يعملون لتأييد الاحتلال الإنجليزى فى مصر إلى الأبد قضاء لأغراض شخصية أو أملاً فى تحقيق مآرب ذاتية.

أجل! إنا نجاهد هذه الفئة التى أعضاؤها أعداء للحقيقة، وضدهم وحدهم نبذل كل قوانا فإنهم وحدهم الآثمون الحقيقيون فى مسألة مصر، فهم ينشرون فى كل مكان عن حالتها الأخبار الكاذبة ويخلقون كل يوم حججاً سافلة واهية لإطالة أمد الاحتلال البريطانى وهو الحمل الثقيل الذى لا يستطاع تحمله.

ومن سوء حظ أولئك المشهورين بالمبالغة فى الدفاع عن إنجلترا أن أعمالهم وتوصلهم غالباً إلى نتائج مخالفة للغرض الذى يعملون له، لأنه كما قال حقاً فيكتور هوجو: للحقيقة والحرية مزية خاصة بهما، وهى أن ما يعمل ضدهما وما يعمل لهما يخدمهما على السواء .

أما فيما يختص بالأمة الإنجليزية فلا نستطيع إلا احترامها، ومهما وقع فإننا نحترمها دائماً، كما نحترم كل الأمم الأخرى، إذ أنه لا يصح بغض أية أمة ولا يقضى على شعب من الشعوب بخطأ بعض أفراد من أبنائه، وإنا نعلم حق العلم أنه إذا كانت الأمة الإنجليزية موافقة على الاحتلال راضية به، فذلك إنما هو لكونها جاهلة لحقيقة إحساس المصريين؛ لأنها لو كانت تعلم إحساسنا لأظهرت عدم رضائها باحتلال ضار، كهذا الاحتلال ولكانت ولا محالة قضت عليه ولكن أسفاه.. قد تساق الأمم غالباً فى أجهل السبل على يد من تثق به أكثر من غيره!

ولئن قالوا ليس فى السياسة شئ من الشرف، وإنها ليست شيئاً آخر غير الكذب والخيانة، فإننا لا نستطيع أن نتصور طرفة عين أن أمة بلغت من العظم والمدنية مبلغ الأمة الإنجليزية تجسر يوماً من الأيام على أن تخون علناً سريرتها وتحتقر أمام الناس شرفها، فإنها على نسق كل الأمم غيورة على كرامتها التى يهدرها ولا محالة أن تطيل الاحتلال الإنجليزى إلى أمد غير محدود.

وكل الذين يعرفون للشرف معنى يعتقدون مثلنا "أن ليس هناك سياسة حقيقية فعلية مثمرة إذا اعتدت القوة ولو لزمن مؤقت سريع الزوال على المبادئ الراسخة للعدالة والإنسانية وإن هذه السياسة المؤسسة على مبادئ العدالة والإنسانية هى السياسة الحقيقية بالأمة الإنجليزية، هذه الأمة التى لا تزال محترمة معتبرة عند جماعة مقهورين مثلنا، عند الذين يريد بعض سواسها أن يضحوا بهم هم ومستقبلهم فى سبيل نجاح آمالهم الباطلة.

لقد رأينا من عام ١٨٨٢ أشد المناظر وقعاً على النفوس، رأينا أكثر من ٦٠ ألف مصرى ماتوا بالتجريدات التعيسة لأعوام ١٨٨٣ و ١٨٨٤ و ١٨٨٥، رأينا تقهقر التعليم والتربية، رأينا انحطاط الآداب العامة وفقر الفلاح والوطن نفسه وكم رأينا من أشياء مؤلمة ومناظر مفتتة للأكباد، ومع ذلك كله قد حافظنا على سكينتنا وبقيت ثقتنا عظيمة بالأمة الإنجليزية وبوعودها وبشرفها واليوم يسيئون مقابلة تساهلنا وصبرنا وسكينتنا، ويخاطرون بإلقاء البلاد وأبنائها فى هاوية.أجل أيها السادة يخاطرون بإلقائنا فى أعمق الهاويات وأخطرها، إنى أريد أن أتكلم عن حملة السودان.أما من جهة استرجاع السودان فكلنا نريده وكلنا يجاهر بذلك علنا كل يوم فإننا نعتقد اعتقاداً صحيحاً أن مصر بدون السودان تكون أحقر أرض وأفقر بقعة فى الدنيا، وبطلبنا جلاء الجنود الإنجليزية عن بلادنا لا نطلب فقط تحرير مصر من الإسكندرية إلى وادى حلفا بل نطلب تحرير كل وادى النيل لا يمكن أن يحكم النيل كله إلا بحكومة واحدة.

وإنا نود من صميم أفئدتنا أن نسترد المقاطعات السودانية التى هى لبلادنا روحها نفسها، وإننى قد أعلنت من جهتى هذا الإحساس عدة مرات، وقلت منذ خمسة أسابيع لأبناء وطنى من أهل الإسكندرية إن أعظم واجب على

سمو الخديوى عباس باشا هو إعادة أملاك مصر المفقودة إليها، وأنا أعيد هذه الليلة ما قلته وما أقوله دائماً، أبداً، ولكنا ما أردنا قط ولا نريد أبداً أن نسترجع السودان تحت قيادة الإنجليز.

فإن وجود الإنجليز على رأس جيشنا يكفى وحده لعدم نجاح الحملة، يكفى لتحقيق مصيبة عظيمة، وبوجودهم على رأس الجيش يحفرون بيننا وبين السودانيين هوة من أعمق الحفر تؤخر لزمن مديد صلحنا معهم، أولئك الذين كانوا من رعايا الخديوية المصرية.

وفضلاً عن ذلك فإن الذى يجعل المصريين ناقمين من حملة دنقلة إنما هو سوء المقصد الذى يبدو عند كثير من رجال إنجلترا السياسيين عندما تتكلم الدول بشأن الجلاء عن مصر، فإنا لا ننكر هذه الحملة فقط لكونها داعية لتعريض كل جنودنا لخطر عظيم، وأن من إحدى نتائجها التى لسوء الحظ تبدو لنا مؤكدة إنشاء جيش جديد وجعل العساكر الإنجليزية تحتل مصر كلها فى الحدود كما فى المدائن. ولكننا ننكر هذه الحملة بنوع خاص لأنها تؤخر لزمن طويل تحرير بلادنا.

أجل أيها السادة. إنها تؤخر تحرير بلادنا وهو التحرير الذى نتمناه من كل قلوبنا والذى طالما وعدنا به.

ذلك لأن انجلترا قد كشفت بيدها الغطاء عن مقصدها، وليس هذا من الوقت فقط، بل من سنة ١٨٨٧ عندما أراد السير دورمندوولف أن يعقد مع جلالة السلطان اتفاقيته المشهورة، فإن جملة من المادة الخامسة كانت تشير إلى ذلك بالعبارة الآتية:

"إذا ظهر فى ذلك الوقت - يشير إلى الوقت الذى عين للجلاء أى عام ١٨٩٠ - خطر داخل مصر أو خارجها، وكان ذلك الخطر يستوجب تأجيل الجلاء تنسحب الجنود الإنجليزية من مصر بعد زوال ذلك الخطر".

فيفهم إذن من اتفاقية وولف أنه كان يخشى ظهور خطر ما فى وقت الجلاء، وبعبارة أخرى كان فى الحسبان أمر مسألة السودان وما يجرى بيننا اليوم، إذ أن خلق الاضطرابات وإيجاد الأخطار ليسا بالنسبة للسياسة الإنجليزية إلا أقل ما تنتجه يد التصنيع.

وإذا كانت انجلترا تريد بصدق نية وكرم أخلاق أن ترد السودان إلى مصر فكان يكفيها لبلوغ هذه الغاية أن تنجلى عن القطر، فإن الجلاء وحده يعيد لنا السودان.

لماذا بقى السودانيون مصرين على عصيانهم ضد مصر؟ لماذا لا يقبلون أى اتفاق معنا؟ لا ينكر أحد فى العالم أن وجود الإنجليز فى مصر هو الذى جعلهم بهذه الحالة.

أجل لنتكلم قليلا عن هذا التعصب الخيالى الذى يقول أعداؤنا إنه فى نفوسنا، إن أعداء مصر يريدون أن يمثلونا أمام أوروبا بهيئة قوم متوحشين مستعدين لإفناء كل أوروبى ساكن بلادنا متى رحلت العساكر الإنجليزية عناء. لقد تطرف فى هذا الادعاء أولئك الأعداء، فأرادوا أن يغشوكم أنتم أنفسكم ويسخروا من سلامة نيتكم، حيث يكررون أمامكم فى الجرائد وفى كل مكان هذه الأكاذيب وهذه الوشايات، كيف ذلك أيتجاسرون على أن يقولوا أماكم هذه الأقوال أنتم يا أوفى أصدقاء مصر وأعز ضيوفها؟ كيف يستطيعون أن يغشوكم بدناءة كهذه عن صفات أمة مودتها لكم علانية؟ أمة قابلتكم - ونقول ذلك بأعظم فخار - بأوسع كرم وسخاء، إن القول بتعصبنا إنما هو أكذوبة.

الأمة المصرية متعصبة ! وامصيبتاه ! أما ترون بأنفسكم أيها السادة أنه إذا كانت فى العالم أمة صفتها الخصوصية اللطف والوداعة فإنما هى ولا شك الأمة المصرية، فإن الكثير من الأوروربيين يعيشون بأعظم سكينة مختلطين اختلاطاً دائما مع الفلاحين، أى مع أكثر الناس تمسكا بالدين، والبعض منها يجاهرون فى تجارتى الربا والخمور المحرمتين فى الدين الإسلامى، كل ذلك مع ما لهم مع الفلاحين من حسن العلائق، فهل هذا من التعصب؟

هل احتجتم مرة من المرات إلى عضد عسكرى انجليزى ضد مصرى ما؟ هى يستطيع خصومنا أن يثبتوا أن جيش الاحتلال يحميكم ضدنا؟ وأن وجود العساكر الإنجليزية ضرورى لسلامة حياتكم بيننا. كلا. أيها السادة، كلا؟

ليفتش أولئك الذين يتهموننا بالتعصب فى كل تاريخنا، وليبحثوا إذا كان الأوروبى فى زمن من الأزمان أسيئت معاملته، من الجائز أن يذكرنا الخصوم بالذكرى التعيسة للثورة العسكرية المشئومة التى كانت سبباً فى مصائب عديدة ولكن كل رجل عاقل عادل يقول معنا إن تجاوز الحدود يقع كثيراً فى

المظاهرات الأهلية الكبيرة، والدليل على ذلك الثورة الفرنساوية، ولقد حصلت فى كل البلاد اضطرابات وهى حاصلة الآن وتحصل فى المستقبل وفضلا عن ذلك فإن التاريخ سيوضح لنا إذا لم تكن هذه الاضطرابات حدثت بأعمال رجال كان لهم قصد مخصوص.

ولماذا نذهب للبحث فى التاريخ برهاناً على تسامحنا الدينى؟ أليس أمام أعينكم اليوم أسطع البراهين على هذا التسامح الدينى الجميل، أتظنون أنه إذا كانت أمتنا متعصبة أما كانت تنتهز الآن فرصة غياب كل قوة عسكرية ذات شأن لكى تقوم وتحدث أى اضطراب؟ أتظنون أنه إذا كانت الأمة المصرية متعصبة، هل كانت تسمح أبداً لأبنائها أن يذهبوا لمحاربة أمة أشد تمسكا بالإسلام منها؟ أليس الذين يدعون أننا متعصبون فى الدين يظهرون أنفسهم بمظهر السخرية عندما يقولون كذلك إن الأمة المصرية يزداد تعلقها بالاحتلال؟ كيف إذن تكون الأمة فى آن واحد متعصبة فى الدين ومحبة للإنجليز!

إن لأعدائنا مقصدين من القول إننا متعصبون فى الدين، إهاجة الأمة، وإلقاء بذور الشقاق بين الأوروبيين والمصريين، ولكن من حسن حظ مصر أن الأمة محافظة على السكينة عارفة بقيمة الاعتدال الدينى وحسن معاملة الأوروبيين.

فلقد تعارفت أوروبا ومصر منذ قرن وأحبتا بعضهما فاعتبرت أوروبا مصر قطعة منها - قال ذلك وأحسن القول الخديو إسماعيل - ومصر اعتبرت كذلك وجود الأوروبيين بيننا كضمانة للتقدم والرفاهية.

وإنا نعلم جيداً أيها السادة أنكم أحسن نصراء الجلاء، لأنه من جهة موافق للعدالة والشرف الدولى، ومن جهة أخرى لأن مصالحكم قاضية به، أجل إن من صالح الأوروبيين النازلين فى مصر أن يتحقق الجلاء لأنه إذا صارت انجلترا مالكة لمصر تصير حياة الأوروبيين على شواطئ وادى النيل من الأمور المستحيلة، فإنكم هنا وكلاء المدنية الأوروبية فى العلوم والفنون، كما أنكم وكلاؤها فى التجارة والصناعة واليوم الذى تصير فيها انجلترا صاحبة مصر تضع يدها على كل شئ غير تاركة شيئاً ما لأحد وتدعى عندئذ أنها الوكيل الوحيدة للمدنية أمام وادى النيل. إننا معتقدون كل الاعتقاد أن اليوم قريب

حيث نترك وراءنا ماضيا مملوءا بالحوادث لنسير سواء ويدنا فى يدكم على طريق التقدم نحو أسطع مستقبل.

ومتى تخلصنا من هذا النظام الإدارى الذى وجهته قادة بريطانيا العظمى وخرجنا من هذا الشتاء الطويل الذى استمر أربعة عشر عاماً والذى كاد يميت أعضاءنا نعيد السير ثانيا واثقين من حقنا ومن عطف الشعوب كافة وعدالتها وفى ذلك اليوم يكون تقدم مصر باهراً .ومتى تخلصت التجارة من الملل الذى يسببه لها الاحتلال الإنجليزى فستفتح لنا ولكم إفاقا ذهبية ومتى تخلصت الصناعة من العوائق التى يخلقها لها الإنجليز فى الجمارك لغاياتهم فسترقى الصناعة الأهلية وتعود فائدة رقيها على أبناء مصر وعلى ضيوب مصر.

عندئذٍ يعقب الأزمات الكثيرة المتوالية السلام، وتعقب الريب والشكوك الثقة، ويعقب الموت الحياة فلنتمن جميعاً أيها السادة تحريراً عاجلا لوادى النيل وسعادة أبدية لهذه الأرض العزيزة، أرض الفراعنة الأمجاد.

الخطبة التاريخية بمناسبة مرور مائة عام على ولاية محمد على
٢١ مايو سنة ١٩٠٢

سادتى وأبناء وطنى الأعزاء :

إنى إذا وقفت الليلة أمامكم لأذكركم بمجد مضى وعظمة خلت، وأحيى معكم أكبر تذكرا فى حياة مصر والمصريين، فإنى أعلم أنكم جئتم مرتاحين لسماع هذا الخطاب، وأنكم ترون مثلى أن خير احتفال يقام لأكبر عامل من عمال المجد المصرى، هو المقارنة بين أيامه وأيامنا، وأعماله وأعمالنا، واستنباط عبر التاريخ النافعة، وعظاته البالغة، وتمثيل الوطن فى مجده وعظمته وإظهاره للعيون والأبصار على حقيقة الحالة الحاضرة، أسيفا كئيبا حزينا، مرتديا ثياب الحداد، باكيا على أيام كان فيها حامل الشرف والفخار بين الممالك والأقطار، أى حال حال مصر فى هذا اليوم بعد مرور مائة عام هجرية على الحادث الخطير والأمر العظيم الكبير، على اجتماع الأمة واتفاقها حول رجل واحد واختيارها له أميرا عليها يدبر شئونها ويرفع شأنها ويعلى مقامها، أى حال حالها وأى موقف موقفها وهى التى ملأت الدنيا دويا ونافست أقوى الممالك فى جلالها، ثم انحدرت انحدار السيل من قمة ذلك الموقف العالى حتى هوت إلى هاوية ذل وانحطاط وصارت مثالا للمسكنة والهوان! صبرا أيها الوطن المحبوب على بلواك! فما ازدحم بنوك اليوم إلا لينشدوا أكبر العصور وأجل الأيام، ويجمعوا أمرهم بينهم على إحيائها بالجد والعمل والوفاق والوئام، صبرا أيها الوطن العزيز صبرا! فقد ناجت الضمائر وتفاهمت النفوس والخواطر، وشعر كل مصرى بأنه الوارث لأفضل الأوطان وأعز البلدان. صبرا صبرا! فمن يرى ذلك الظل الممدود، ظل مؤسس العائلة الحاكمة (محمد على الكبير) ويبصر بعين بصيرته روحه الطاهرة ترفرف فوق الرءوس ويسمع صوته العالى يذكر المصريين بأقدس الواجبات نحو الوطن، وأهله، وينظر بعين الحقيقة إلى يده القادرة العاملة، مشيرة إلى سبيل الفلاح والرقى، من ذا الذى يرى ويبصر ويسمع ذلك ولايعتبر؟ من ذا الذى ينتسب بدمه أو بماله أو بعلمه إلى ذلك الرجل العظيم ولا تصغر نفسه فى

عينه إذا رآها نفس رجل دون الرجال؟ من ذا الذى يذكر منا مجد مصر فى عهد ذلك الأمير ولا يذكر أنه مسئول عن زواله مطالب باسترداده؟ أسمع المعترضين يقولون: عجبا عجبا! أيؤمل الخطيب أن تنال مصر فى حاضر الأيام أو فى مستقبلها ما نالت فى غابرها، وتلبس من جديد ذلك الثوب الباهر الفاخر الذى حسدتها عليه الليالى والحوادث وسلبته منها يد الغدر والانتقام؟ أجل أيها السادة! إن للمصرى أن يؤمل لبلاده مجدا كمجدها الماضى وعزا وسؤددا وجلالا، كيف لا وحياة (محمد على) وأعماله كلها دروس ترشد المصريين إلى أن تاج المجد لا يوضع إلا على رأس العامل المجد، وأن رايات الفخار لا تنال إلا بالعمل والجهاد، وأن أمة فتحت البلاد والأمصار يوم كانت لا تتجاوز ثلث عددها اليوم قادرة على بلوغ غاية العز والرفاهية ونيل أسمى ما يرام من الحضارة والعمران. كيف سار (محمد على) بمصر وكيف أنقذها من مهاوى الهلاك، وكيف أخرجها من عالم الظلمات إلى النور، وكيف فتح بها وضرب وغلب وكيف ساد ولم يسد وكيف ملأ من جنودها الديار وأخضع لسلطانها البحار والأنهار، وكيف رفع ذكرها إلى أعلى منار وجعلها عاصمة الشرق ومصدر الأنوار،وكيف أبهج هذا الثغر بتزاحم الجوارى فى ثغره، وعمم المعامل والمصانع فى المدائن، والقرى ونشر المدارس والمكاتب فى أنحاء البلاد، وأخرج من أبنائها نجوم علم يهتدى بهم ولا يضل بنورهم؟ كيف وفق هذا الرجل العظيم لهذه العظائم؟ كيف أباد المفسدين والظالمين وجمع القطر تحت لواء واحد وكان ألف قطر فى وطن واحد؟ هل استعان بغير المصرى على تحقيق غاياته أم استعار أمة من حديد ورجالا من صلب وأرواحا شبت بين الموت والنار حتى أوتى ذلك الجلال ونال من العظمة ما نال؟ كلا! لم يصل إلى ذروة المعالى وأقصى غايات الرجال إلا بعقلك وبأسك أيها المصرى العزيز، فسلاما وألف مرة سلاما على هذا العزم المقبور وهذه الهمة المدفونة، سلاما على من نسى نفسه بعد أن أنسى العالم كل إنسان سواه. سلمت الأمة المصرية أمرها لمحمد على والبلاد ممزقة بين المماليك يذيقونها أنواع العذاب والنكال، والشرع فى أيديهم شرع الجور والاعتساف، والقانون فى قبضتهم قانون الظلم والاستبداد، والبلاد منقسمة على نفسها. اسمها مصر وهى ألف قطعة وقطعة، لا جامعة بين أهلها ولا رابطة بين بنيها، ولا راحة ولا نعيم ولا حرية ولا عمل! تولاها الرجل العظيم وهى عليلة

ضئيلة لا حراك بها، فقطع دابر المفسدين والأشرار وأزال دولة المماليك كما يزول الغبار، وانقضت تلك السلطة المريعة التى قوضت أركان الدين والعقيدة وهدمت بنيان الوطن والأمة وما تركت فضيلة حتى جنت عليها ولا رذيلة حتى مجدتها، انقضت وكأنها ظل زائل أو سحابة صيف لم تدم إلا قليلا، انقضت والعالم بين مصدق ومكذب يتساءل كيف أتيح لرجل واحد أن يحول مجرى الليالى والأيام ويغير تيار الحادثات العظام؟ مضت أيام المماليك ووقف (محمد على) ناظرا إلى هذه الأمة ليرى أى أمر تقدر عليه وأى عمل تستطيع، فرآها بعد عهد الشقاء وزمن البلاء وأيام المحن والفتن قادرة على القيام بأعظم الأعمال، فيها من روح الحياة وقوة النهوض ما يزحزح الجبال الراسيات وتخر أمامه الشم الثابتات، فجند من أهلها الجند وأى جند جند؟ جند الغزاة الفاتحين حملة النصر والفخار، جند من المصريين قوما لا تراهم أمة حتى تسلم وتستسلم، جند من أعلوا مكانته ورفعوا رايته وجعلوا اسم مصر فى كافة الأرجاء والآفاق عنوانا للمجد الرفيع والشرف الصحيح. أخرج من أولئك الفلاحين الذين طالما تصرفت فيهم الكوارث كما شاءت أبطالا وشجعانا اهتزت الأرض تحت أقدامهم إجلالا وإعظاما، وعجزت جيوش العالم عن مجاراتهم ومناظرتهم، بعث (محمد على) من السكينة عزما، ومن السكون همة وإقداما، وسار جيشه من مكان إلى مكان حاملا لواء الظفر والغلبة، فائزا فى كل بقعة بالنصر والفخر، فما هذه الروح العجيبة التى نقلت بنى مصر من حال إلى حال حتى صار الجريح يأبى أن يغيب عن ميادين القتال، والطفل ولوعا بمناظر الحرب والنزال؟ ما هذا التغير الفجائى الذى اندهش لآثاره العالم طرا؟ وأى سر جعل الأمة المهضومة الحقوق المسلوبة الإرادة أمة فتح وغزو وفوز ونصر؟ السر فى هذا الانقلاب وذلك التغير أن الرجل العظيم الذى تولى أمر مصر أدرك بواسع عقله أن فى أمتها كنوزا من الشهامة والذكاء مدفونة فكشف عنها الغطاء وأظهرها للعالمين ساطعة بهية تخطف الأبصار، السر فى ظهور المصريين على مسرح العالم بمظهر الفاتحين القادرين أن (محمد على) لم يترك لليأس سلطانا على نفسه ولم يقف فى طريقه لأول عائق حاول منعه عن العمل، بل اجتاز المصاعب والعقبات بعزيمة ماضية وثبات دونه الحديد قوة وبأسا. اجتاز المصاعب ولم يرضه أن تكون مصر قوية فى البر ضعيفة فى البحر فوهبها أسطولا ضخما

لم يمض على إنشائه وتكوينه أكثر من أربع سنوات، وهبها أسطولا كان فى الصف الأول من أساطيل العالم تباهى به الإسكندرية ثغور الأرض وهو يباهى بها وبوادى النيل الدنيا ومن عليها. كان الغربيون إذا جاءوا مصر زائرين يقفون أمام هذا الأسطول حائرين مندهشين، بهرته عظمة مصر وارتقاؤها سلم المعالى فى قليل من الأعوام. ما عساى أقول اليوم عن جيش مصر وأسطولها، ولو نقلت إليكم كتابات المنشئين والمؤرخين، وآراء جماعات الكتاب عنها لخلتم هذا الوطن غير ذلك الوطن ومصر غير مصر، ولظننتم أن حادثا استثنائيا محا أمة عاداها الزمان فلم يترك لها إرادة ولم يلبسها غير لباس الوهن والاستسلام. رددوا الطرف معاشر المصريين فى صحف التاريخ، تروا أن مصر لم تكن ميدانا للجنود والبحارة الممثلين لرفعة قدرها ليس إلا، بل تبدو لكم مصر المحبوبة فوق ذلك فى مصاف الأمم الصناعية ذات الشأن الأول، تبدو لكم المدائن والقرى مزدحمة بالصناع والعمال يحيون أطيب حياة ويخدمون الأوطان أشرف خدمة، تبدو لكم بولاق والخرنفش وشبرا وقليوب وشبين والمحلة الكبرى وزفتى وميت غمر وفوه ومنوف وابيار والأشمونيين والمنصورة ودمياط ودمنهور ورشيد والاسكندرية والروضة والجيزة وبنى سويف والمنيا وأسيوط وأبو تيج وفرشوط وملوى ومنفلوط والفشن وطهطا وجرجا وقنا ميدانا للمعامل والمصانع والورش على اختلافها. وتبدو لكم بحليها وحللها زاهرة عامرة تسعد مصر والمصريين وتكفى البلاد حاجاتها وتوفر لأهلها ثروتهم ولا تعطى الأجنبى من خيراتها إلا بمقدار. ارجعوا البصر كرة أخرى إلى مصر قبل عهد (محمد على) وقارنوا بين حالها فى ذلك الحين وما صار إليه فى عهده، تجدوا أرضا بلقعا تحولت إلى رياض وجنان وفضاء واسعا صار فيه الألوف والملايين يحرثون الأرض ويزرعون ويستثمرون وشقاء تولى ونعيما أقام، وفوضى زالت وأمنا استتب، وزراعات جديدة دخلت إلى البلاد فأحيتها وأنمت ثروتها وملأت نواحيها رغدا وسعدا. ومن ذا الذى يستطيع أن يقف أمام هذه الأمة موقف المحقق المدقق وينكر على (محمد على) فضله فى إحياء أراضى القطر ونقل زراعة القطن إليها وأياديه البيضاء على كل من يعيش من الزراعة ويعكف عليها؟ من ذا الذى ينكر إصلاحاته العديدة فى الرى، والقناطر البديعة التى أقامها والمصارف التى أنشأها والمشروعات التى لا تزال قاعدة لكل إصلاح؟ من ذا الذى

يحارب الحقيقة والتاريخ ليتجاهل أن مصر تجنى اليوم من ثمرات أعمال (محمد على) عشرات الملايين من الجنيهات وأنه صاحب الفضل الأكبر على كل فرد من أهلها والنزلاء المستوطنين بها. محال أن تخرج مصر واحدا من أبنائها يأتى على الحقيقة والوطنية إعلان فضل (محمد على) والاعتراف بأعماله الجسام وأفعاله العظام، ومحال أن ينسى مصرى تربى فى مهد العلم والأدب إحسان هذا الأب الكبير والمحسن البار العظيم، وهو الذى تعلم القراءة والكتابة بعد الأربعين ليكون خير قدوة للمصريين، وهو الذى فتح المدارس والمكاتب وملأ الديار نورا وعرفانا، وتولى تربية صغار الفلاحين فبهر العالم بفرط ذكائهم وعظيم استعدادهم للتعلم والانتقال من شأن إلى شأن. دعوا الصانع والمزارع، واسألوا كل متعلم فى مصر: ماذا كان يكون حالك لو لم يعلم (محمد على) أباك من قبل؟ أما كنت تكون فى ظلمات الجهالة بعيدا عن مشارق النور والحياة والوجود؟

أجل، إن كل مصرى شب وتعلم وتهذب وعرف أن حياة الفكر والجد هى الحياة الصحيحة وأدرك أن أسمى الهبات هبة العقل وأن أجمل حلية لهذه الهبة الغالية تثقيفها بالعلوم والمعارف، مدين لمؤسس العائلة الخديوية بما هو فيه من نعمة ونعيم وإنه لخليق بكل مصرى نال العلم بفضل (محمد على) أن ينتسب إليه بالروح والوجدان انتساب بنيه وذويه إليه ويسلك السبيل الذى وجه الهمم والعزائم إليه ليبلغ بالوطن والبلاد الشأن الأولى والمقام المحمود.

أيها السادة:

مهما بحث الباحث فى حياة (محمد على) ومهما حكم على عصره فإنه لا يستطيع إلا الاعتراف بأنه أحاط مصر بسور من القوة والرهبة، ورمى إلى إنشاء حكومة منتظمة فيها تدير أمورها على قواعد راسخة وأصول ثابتة، وجمع شملها فبعد أن كانت مفرقة موزعة على المماليك يتصرف كل واحد منهم فى الأموال والأرواح والأعراض كما يشاء وتشاء الأهواء صارت وطنا واحدا لأمة واحدة يجمعها لواء واحد تحت سيادة أمير عظيم لا يذكر اسمه إلا مقرونا بالاحترام والإعظام. ومهما اختلف الناس فى اعتبار نتائج أعمال (محمد على) فلا مراء فى أنه وهب مصر عقلا مديرا وقلبا شاعرا وساعدا شديدا ومجدا تليدا، وأنه وهب المصريين وطنا وأمة وحكومة ولسانا، وطبع

على قلوبهم وأفئدتهم محبة الوطن والشهامة والإقدام وحبب إليهم الفتح والنصر ورفع الراية المصرية على كل صقع ومكان. انظروا معاشر المصريين إلى سياسته فى حكومته تجدوها قائمة على مبادئ ثلاثة لا تدوم دولة بغيرها ولا تحيا مملكة بغير إحيائها: وهى أولا حماية الوطن من اعتداء الأجنبى وسلطته، ثانيا ترقية الجيش المصرى إلى أسمى الوظائف وترشيحه إلى استلام مقاليد الأمور حتى لا تحتاج البلاد لأجنبى يزاحم بنيها، وتدريب المصريين على كل عمل وصناعة حتى تحفظ الثروة الأهلية فى البلاد ويزداد الوطن عزا ورغدا ونعيما، ثالثا الامتناع عن الدين واجتنابه كل الاجتناب. بأى قلب أم بأى ضمير أم بأى لسان أحدثكم عن حماية الوطن وصيانته ومنع اعتداء الأجنبى على ربوعه وصده عن منازله، ومصر اليوم تمثل الاستسلام للإنجليزى والرضوخ لسلطته، والامتثال لإرادته، وهى هى التى ردته عن الديار تحت إمارة (محمد على) وفى ظل رايته. وقالت له: مكانك أيها المهاجم! مكانك أيها الداخل! مكانك أيها المزاحم، إنى أمة حية تأبى الضيم والهوان ولا تدرك للحياة معنى بغير الحرية والاستقلال! بأى قلب أم بأى ضمير أم بأى لسان أحدثكم اليوم معاشر المصريين عن حماية آبائنا للوطن ودفاعهم عنه ونضالهم عن حوزته أيام (محمد على الكبير) وقد حاولت إنجلترا أن تقضى على هذا الملك الجديد وهذه الدولة الناشئة وتزيل من سماء المجد والإقبال هذه الشمس المشرقة فأراها يومئذ بنو مصر أى أمة هم، وأراها (محمد على) أى أمير هو! فتركت الثغور والبلاد، آسفة على فشلها، معجبة بهذا المجد الباهر والعزم القاهر والوطنية الحقة والهمة الحديدية. اعجبوا أيها المصريون لهذا الحادث الخطير ولتصرفات الليالى كيف أفرحت مصر وأبكتها فى يوم واحد، أفرحتها فى يوم ١٤ سبتمبر من عام ١٨٠٧ حينما جلت الجنود الإنجليزية عن ثغر الاسكندرية بعد احتلال دام ستة أشهر، وأبكتها فى يوم ١٤ سبتمبر من عام ١٨٨٢ حينما دخلت الجنود الإنجليزية عاصمة الديار المصرية. كوفئت مصر فى يوم أبكر مجد وأشرف فخار، وعوقبت فى مثل ذلك اليوم بعد خمسة وسبعين عاما باحتلال جر عليها العار والشنار، كوفئت لأنها صانت الوطن والديار، وعوقبت لأنها سلمت البلاد وانشقت على نفسها ونسيت تاريخها وتناست مطامع أعدائها وامتلأت نفوس دعاة الثورة فيها بالأنانية والأغراض الذاتية والآمال الشخصية، فذهب

الوطن فريسة، وقدمت الأمة على هيكل الدنايا ضحية، وتولى المجد القديم والعز التليد وأقام الذل والهوان. هذه عبرة العبر فى التاريخ وموعظة المواعظ، فالتقطوها معاشر المصريين الراغبين فى خير البلاد ورفعتها، واذكروها فى كل وقت وآن، اذكروها، وتأملوا فى تاريخ ذلك الرجل العظيم، تأملوا كيف ينتدب علماء الغرب وحكماءه وسادات أدبائه وفضلائه ليعلموا المصريين العلوم والصناعات، حتى إذا صاروا من رجالها وتحلوا بجمالها سلمهم مقاليد الأعمال وكافأ المعلمين الغربيين على عملهم وزودهم بالشكر والإحسان. رأى محمد على أن الدين (بفتح الدال) أساس الاستعباد، وأن أسمى المبادئ الجديرة بالاتباع مبدأ القائلين "أدن تَسْتَعْبِد واستدن تُسْتَعْبَد" فلم يستدن لأنه خطب السيادة ولم يخطب الاستعباد، وطَلب القوة ولم يطلب الضعف والمذلة. حقا إنها لآية الآيات ومعجزة المعجزات، كيف يشيد (محمد على) المدارس والمعامل ويقيم الأبنية للجنود والعساكر، وينظم الرى والفلاحة، ويشكل جيشا بلغ عدد رجاله مائتين وثمانين ألف جندى (٢٨٠٠٠٠) وأسطولا كان البحارة فيه لا يقل عددهم عن ستة عشر ألف بحرى (١٦٠٠٠) وكانت إيرادات مصر إذ ذاك لا تتجاوز مليونين ونصف مليون من الجنيهات، ثم لا يستدين عزيز مصر ولا يعرف الدين ولا الدين يعرفه! ائتونى بعظماء الرجال وكبراء الأمم وفحول السياسة، واعرضوا عليهم هذا العمل المدهش وهذه الآية الكبرى، وأنا كفيل بأنهم لا يصدقون به ولا يؤمنون بها، هل فى طاقة رجل مهما بلغ من العظمة وقوة الإرادة أن يقوم بهذه العظائم ولا يتعثر فى ذيله بالديون الثقال؟ من هذا الرجل الذى تعدى حدود الطاقة البشرية حتى استطاع أن يخرج أمة من الجهالة والظلمات إلى العلم والنور، ويشيد فيها ملكا قائما على جيش عديد وأسطول قوى رهيب ومعامل ومصانع ومدارس، ثم لا يستمد بمال الغير ولا يستعين على أعماله بغير قوة البلاد وهى التى حملها الزمان من قبل ما يدك الجبال ويفل الإرادة الماضية ويودى بعزائم الرجال؟ ما هذا المجد الفخيم الذى يحدثنا عنه التاريخ؟ أين ذلك المصرى الذى كان إذا جاب المدائن والممالك تحولت عن غيره الأنظار والتفتت إليه الشعوب بعيون الإعجاب والاعتبار؟ أين ذلك الذى إذا فاخر القوم ببلادهم أعطى المقام الأول ونال الشرف الأعلى وأعد وطنه فى مقدمة الأوطان ومصره فى الصف الأول من مصاف الأمصار والبلدان. أين عصر نقل عنه

الناقلون أن الدول غدرت بمصر وحرقت أسطولها فى ثغر (ناورين) وأماتت من بحارتها البواسل ستة آلاف رجل وتقدم ضابط فرنساوى بالخبر إلى رجل الحروب وبطل المواقع إبراهيم باشا، فهز الأمير رأسه وقال: "ما أنشئت السفن والبواخر إلا لتكون فريسة النار أو البحار فلست بآسف عليها، وإن أبى لقادر أن يجدد مثلها فى عام أو بعض عام!". أين ذلك العهد البعيد ليتعزى به المصرى الحزين الأسيف؟ أين هو ليبعث فى القلوب المستميتة شيئا من الحياة والقوة، ويدل المصرى على حقيقة موقفه وقيمته ومكانته؟ أين هو ليخطب فيكم بلسان الحال فيبلغ من نفوسكم مالا يبلغه لسان المقال؟ أين كانت اليابان يومئذ؟ أين كانت هذه المملكة الناشئة والدولة الفاخرة؟ كانت - وكأنها لم تكن - فى دياجى الظلمات وغياهب الجهل، تعد إذا ذكرت فى عداد الأموات، فقف أيها المصرى فوق أطلال التاريخ وارقب الحوادث وانظر إلى أى حال صارت اليابان وإلى أى حال صرنا، وماذا كنا نبلغ من الشأو والشأو لو سلكنا ذلك السبيل الذى وجهنا إليه محمد على الكبير. ليس الموقف موقف حزن يميت النفوس بل موقف عظة واعتبار، وإن العبرة الكبرى فى حياة (محمد على) والدرس المفيد الذى يلقيه التاريخ على أبناء هذه الديار، أنهم لم يفقدوا العصبية والوحدة الملية، ولم يقفوا فى طريق التقدم على حين استرسال غيرهم فى السير إلى الأمام إلا لأنهم فقدوا الثقة بأنفسهم ونسوا ما قاموا به من جلائل الأعمال. ثقة الأمة بنفسها هى الأساس الذى يبنى عليه مجدها ويشاد عزها وسؤددها، ترى الأمة إذا اعتقدت الخير والقدرة فى مجموعها وأفرادها تغلبت على الحادثات والأيام وقهرت ألد أعدائها واجتازت المصاعب غير هيابة ولا وجلة. هذه أمم الغرب يترك الفرد من أبنائها بلاده ويطوف الأرض من جانب إلى جانب، وهو فى كل مكان ينزل به قوى الجنان شاعر بأنه الممثل لوطنه الدال عليه، معتقد أنه رايته التى إذا أهينت أهين وإذا مست بسوء قامت لأجلها بلاد وقعدت، وما هذا الاعتقاد وذلك الشعور إلا لأن الأمة وثقت ببعضها وارتبط كل فرد ببقية أفرادها، فصارت كتلة واحدة لا يعتدى عليها زمان ولا يجرؤ على المساس بها إنسان. أما الأمة التى ظنت السوء بنفسها وتركت هذا الظن الفاسد ميراثا لأبنائها وأحفادها فقل عليها السلام وادعها أمة الموت والفناء. لا يؤلم المصرى المحب لبلاده مثل ما يسمعه ذات اليمين وذات الشمال من سوء مظنة

المصريين بأنفسهم وتناقل هذه الأقوال المميتة للخواطر القاتلة لكل حركة واردة من الكبير إلى الصغير وشيوعها حتى بين الأطفال الناشئين. ما هذا السم القتال الذى تناولته الأمة عن طيب خاطر؟ ما هذا البلاء المدمر للبلاد الذى حل بها وتساقط على رؤوس أهلها وهم إليه ناظرون؟ كيف تنسى هذه الأمة العزيزة أنها هى التى فتحت وقهرت وضربت وانتصرت وبهرت العالمين بقدرتها وشدة بأسها؟ لا ريب أن أصل هذا البلاد وجرثومة ذلك الداء إهمال أمر التربية الوطنية ومحو آثار التاريخ المهذب للعقول والأرواح من المدارس والمكاتب، التاريخ هو المدرسة الجامعة لكل طبقات الأمة والمعلم الذى يتأدب بأدبه الأمير الخطير والوزير الشهير والعالم والطالب، والفقير الصغير، من ذا الذى يقرأ تاريخ محمد على ويرى على صفحاته آيات الشهامة والبسالة التى حلى بها المصريون أيامهم وأسماءهم وأوطانهم ولا يشعر بأنه ينتسب لأمة عالية إن أهانها الزمان أياما فلسوف يرغم على احترامها وإكرامها ورد سؤددها إليها، من ذا الذى يسمع بتلك السفن الجارية والجيوش الجرارة والمعامل العديدة والمدارس الجمة والحياة العامة والاستقلال المصان ولا يرى نفسه من سلالة قوم فاتحين متمدنين جديرين بأن يخلد مجدهم وتدوم أيامهم. يقول الجاهلون إن الزمان لم يترك من آثار محمد على شيئا مذكورا، ولا يدرون أنه ترك شيئا كبيرا، ترك بذور المجد والمدنية، ترك المواد الحيوية لإحياء الأمم وإعلاء قدرها، ترك العلوم والأنوار. إن لم يكن إلا هذا الأثر - أثر العلوم والمعارف - فحسب العصر الماضى شرفا وفخارا، لأنه ألقى إلينا السلاح الذى ما حارب الجهل والرذيلة حتى تغلب عليهما، ألقى إلينا مفتاح الرقى والتقدم وآلة المجد والغلبة وسلم السؤدد والمعالى ونبراس الكمال، ألقى إلينا معدا الحياة فإن استخدمناها كما استخدمها سدنا كما ساد وسادت الديار، وإن أسأنا استعمالها أسأنا إلى أنفسنا وقضينا على الحاضر والمستقبل شر قضاء. قد ينسى بعض المصريين أن (محمد على) تولى أمر البلاد باختيار أهلها وانتخابهم، وأن علماء مصر وأعيانها رفعوه إلى الإمارة بأيديهم فى مثل هذا اليوم من مائة سنة هجرية مضت، وأن هذه رابطة أكيدة بين الأمة والعائلة الحاكمة لا يصح لأحد أن ينساها ولا يليق بمصرى أن يتناساها، هذا إخاء بين الشعب والأمير لا تنفصم له عرى، ولا ينحل له رباط. إذا كانت مصر لم تذكر فى بعض حوادثها الماضية وأيامها السالفة

هذه الرابطة وهذا الإخاء مما أودى بها وساقها إلى مهاوى الدمار والشقاء، فخليق بها أن تذكر الآن وفى كل آن هذا العهد المتين وتزداد بعرش الخديوية ارتباطا وتعلقا كلما مضت الأيام وتوالت الأعوام وكيف لا يذكر المصريون ذلك العهد ويبذلون الأرواح والأموال فى سبيل تأييده وصيانته وهو هو الحامى لبقايا المجد والاستقلال. فى أى موقف يرى المصرى بلاده الآن؟ فى موقف البلاد المستعبدة التى تنتظر من وقت إلى آخر تحقيق وعود دولة متمدنة عظمى ولا تزف لها الأيام إلا مطلا فى الوعد وبلاء على بلاء.

دخلت إنجلترا هذه الديار مدعية إصلاحها وتأييد عرش الخديوية المصرية فيها ونشر ألوية الأمن والعدل فى نواحيها وإعداد المصريين إلى إدارة شئون بلادهم بأنفسهم، ثم الجلاء عنها وتركها لأهلها، فماذا عملت وأى طريق سلكت وإلى أى نتيجة وصلت؟

وكان أول عمل للدولة الإنجليزية أنها قدمت الوعود والعهود للعالم كله بالجلاء عن مصر ولو بعد حين، وتركها لأهلها المصريين، فاعتقد صدق أقوالها الكثيرون من الشرقيين وقالوا: "محال أن يكذب القوم المتمدنون!" لأنهم لم يكونوا ليعلموا أن السياسة الغربية قائمة على مخالفة الوعود والنكث بالعهود، وأن المدنية البريطانية تطلب سيادة الأمم من مثل هذا الطريق حتى صرح الساسة الإنجليز أنهم لم يقدموا هذه الوعود وتلك العهود إلا للسذج والبسطاء، وأنهم ينزهون العقلاء والحكماء عن التصديق بوعد فى السياسة أو بعهد فى تدبير امتلاك الأمم واغتيال حقوقها، فعلم المصرى يومئذ ما لم يكن يعلم، علم أن إنجلترا احتلت بلاده لتقييده بقيود الذل والاستعباد، لا لتضع على رأسه تاج الحرية والاستقلال، علم أن وطنه صار مرمى السهام البريطانية، وأن حياته ومجده على خطر، وسمع صوت البلاد يناديه الحذار! الحذار ولكن صوت الإنجليزى ارتفع ليدله على وسائل الرضوخ للمذلة والاستماتة، ارتفع ذلك الصوت، صوت العاملين على ابتلاع مصر مناديا بأن المصريين لا يزالون أمة طفلة محتاجة لمرب حكيم ومرشد عليم، فهل هم المربى وذلك المرشد؟ دل سلوك انجلترا فى مصر ويدل على أنها لا تريد لعرش الخديوية قوة ولا للبلاد خير، ولا للمصريين تقدما وارتقاء، ونحن لا نقول هذا القول جزافا بل نقدم عليه ألف برهان وبرهان،

ومادام الإنجليز يفاخرون ويفتخرون بحرية القول والكتابة فإننا نناقشهم الحساب ونسألهم أمام الملأ كله عن نتائج سياستهم بعد عشرين عاما، نسألهم أين الأمن الذى ادعوا توطيد أركانه؟ هل ازدياد الجرائم والجنح والمخالفات وتعدد السرقات وكثرة اللصوص واعتراف النائب العمومى بذلك كله وتفنن الأشرار فى إشعال النيران وحرق القرى والبلدان مما تفاخر به انجلترا وتعده آية يحق لها أن تمن بها على مصر والمصريين؟ هل انتقال الوظائف من أيدى المصريين شيئا فشيئا وخروج السلطة من قبضتهم وإماتة كل نفوذ لهم مما يرشحهم لاستلام مقاليد الأمور والسير بالبلاد إلى الأمام؟ هل محو كل روح وطنية فى المعارف وقلب مدارس الحكومة حتى صار عاليها سافلها، يؤهل المصريين للتقدم فى ميادين الحضارة والعمران؟ هل إنشاء المحكمة المخصوصة، وتعالى المحتلين على المصريين واعتداؤهم على القانون والعدالة والنظام العام مما يؤيد المساواة فى البلاد ويزيد القطر ارتقاء وانتظاما، هل رفع العلم البريطانى على عاصمة السودان وإخراج العدد العديد من الضباط المصريين من الجيش بعد أن أبلوا ضد الدراويش أحسن بلاء وقاموا بأعمال تخلد لهم المجد والفخر مما يؤيد عرش الخديوية المصرية ويستوجب حمد المصريين؟ هل بقاء الحكومة بغير سلطة مراقبة عليها من الأمة كما يشاء المحتلون مما يجعل مصر فى بحبوحة الراحة والأمن ويوطد أركان الدستور فيها؟ ذكرت الدستور وطالما ذكره الذاكرون من أنصار الاحتلال ورجاله، فأين هو الدستور؟ أين ذلك الدستور الذى يلجم الحكومة بلجام من حديد ويهب الأمة حرية الرأى والفكر وحق المراقبة على أعمال الحكام وسن القوانين والشرائع ومناقشة الوزارة عن الصغائر والكبائر؟ أين ذلك الدستور ونحن لا نرى إلا مستشارين من الإنجليز يحركون الحكومة يمينا ويسارا، ويتلقون الأوامر من رجل واحد ولا يحاسبون أمام أحد من أبناء هذه الأمة؟ هل معنى الدستور سقوط السلطة المصرية وقيام السلطة البريطانية مقامها؟

كلا ثم كلا! إنما الدستور هو منح الأمة حق الإشراف على كافة الأعمال ومراقبة ما تجريه الحكومة لخيرها أو لضرها، وسؤال الوزارة عن كل صغيرة وكبيرة، وتغييرها بغيرها إذا أساءت استعمال السلطة أو تهاونت فى خدمة

البلاد بالدستور، هو ألا يستطيع أحد، مهما كان عظيما، وطنيا أو أجنبيا، أن يمس القوانين والنظامات بشئ، فهل يوجد رجل واحد فى هذه الأمة يجرؤ على القول بأننا اليوم متمتعون بنعمة الدستور وأن المحتلين لو شاءوا تغيير أى نظام موجود أو خرق سياج أى قانون لا يستطيعون؟

لعمرى إن ما يسميه المحتلون وأنصارهم بالدستور لهو الفوضى فى لباس النظام، والاختلال فى قالب الاحتلال، وإلا فأين الضمانة التى تطمئن لها القلوب والخواطر؟ أين ذلك المجلس الذى وعدت به بريطانيا على لسان اللورد فرين؟ أين هو لتعتقد الأمة المصرية أن الدولة البريطانية لم تحتل بلادها إلا لتسعد حالها وعلى شأنها وتوقف المصرى على مكانته وتعرفه أنه إنسان له حقوق الإنسان؟ يظهر بعض الإنجليز اندهاشا قيامنا ضدهم، ولست أدرى كيف أكيف هذا الاندهاش؟ كيف أكيف وهم أبناء أمة متمدنة تعرف معنى الوطن والوطنية وتدرك أن الحرية هى أسمى نعيم وأن صيانة البلاد من اعتداء الأجنبى أقدس فرض على أهلها، كيف أكيفه وقد قال اللورد فرين: "إنه يحق للمصريين أن يبغضونا من عميق قلوبهم إذا أقمنا طويلا ببلادهم مهما أسعدناهم وأسبغنا عليهم من النعم، لأن الاستقلال لا ثمن له!". نحن نرى من العار والخيانة عدم المطالبة بالجلاء، نحن نرى من الجبن والاستماتة عدم المطالبة بالدستور أى بالنظام الذى تتمتع به الأمم المتمدنة، ونحن نرى من موت الشعور وفقدان الوجدان السكوت عن حقوقنا الشرعية التى يعترف بها كل إنسان، ونعتقد أن الإنجليز أنفسهم يحتقرون كل مصرى لا يرى هذا الرأى ولا يجاهر به، لأنهم إن أحبوا أن يخون الرجل وطنه لأجلهم، لا يحبون الخائنين، وإن كرهوا القائمين فى وجوههم المدافعين عن بلادهم لا يستطيعون إلا تعظيم الوطنية ورجالها أنى كانت وأنى كانوا.

أيها السادة :

أصبحنا بعد مائة عام قضينا جانبا منها فى الجد والعمل وغرس بذور المدنية وفتح أبواب مصر والسودان للعالم المتمدن فى آخر مصاف الأمم، يمتاز عنا الصرب والبلغار وشعوب صغيرة لم تكن فى الحسبان، بالحرية والاستقلال والاحترام العام، فمن البلية والشقاء والموت الأدبى أن نقف متفرجين على حركة العالم ونترك الأمم الأخرى ترتقى منصة السمو

والجلال! هذه حياة (محمد على) لنا أن نستنبط منها ما يفيد البلاد فى الحال والاستقبال، لنا أن نضربها مثلا للأبناء والناشئين ليعلموا أن مصر كانت من القوة والبأس بمكان، وأنها تكون كذلك لو طرقوا أبواب الاتحاد والوئام وسلكوا مسالك العزم والإقدام.

لا تقوم مدنية مصر فى مستقبل الأيام ولا يدوم لها شأن إلا إذا شيدت على الأمة وبالأمة وعرف الفلاح والصانع والتاجر والمعلم والمتعلم وكل فرد من أفرادها أن للإنسان حقوقا مقدسة لا يصح المساس بها، وأنه لم يخلق ليكون آلة بل ليعيش عيشة الأحياء، وأن حب الوطن هو أسمى شعور تتحلى به نفس بشرية، وأن أمة ضاع استقلالها لا مقام لها ولا شأن لأبنائها. الوطنية أيها السادة، هى العماد لكل مملكة والأساس المتين لكل دولة، الوطنية هى الروح العاملة فى كل بلاد العالم المتمدن، الوطنية هى أم المعجزات وأصل كل تقدم وارتقاء، الوطنية هى التى تنقل الشعب الجبلى إلى الحضارة والعمران، والاقتدار وسمو القدر فى قليل من الأعوام، الوطنية هى الدم فى عروق الأمم والحياة لكل ذى حياة.

الوطنية هى الغذاء الذى يحتاج إليه جسم مصر وروحها قبل كل غذاء فقدموها للأبناء فى غدواتهم وروحاتهم وحركاتهم وسكناتهم، واطبعوها على قلوبهم.

أيها السادة :

إن الرجل العظيم الذى غير أحوال مصر وكساها حلة من المجد والفخار وفق عمله بين مبادئ المدنية العصرية ومبادئ الدين الإسلامى الكريم، لأنه رأى أن فى الإسلام كافة المواد الحيوية لأرقى مدنية يشتهيها بنو الإنسان، وأنه الدين الذى يؤهل أهله وذويه إلى أسعد حالات الحياة وأتم نعيمها، فإذا اقتدينا به واعتمدنا على الإسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته، وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها واعتبرنا بعبر التاريخ وتركنا النزاع الذى أضر بمصر والإسلام واجتنبنا كل افتراق وشقاق، بلغنا أقصى ما يرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع. وإننا لا نبغى فى هذا الطريق الذى يدعونا لسلوكه كل محب لمصر معاداة أحد من النزلاء أو الخروج عن خلة إكرام الغريب التى اشتهرنا بها، بل إننا نشكر كل أجنبى يساعدنا على خدمة

الأوطان كما شكر آباؤنا من قبل وكما شكر تاريخ مصر سليمان باشا، وفارين، وسجرا، وكلوت بك، وسيريزى، وبسون بك، وجومار، وجومل، إلا أننا نطلب الاحترام المتبادل والاشتراك فى المنفعة اشتراك إخاء، لا اشتراك شحناء وبغضاء، وإنه يسرنى أن أعلن شكر الأمة المصرية كلها لأولئك الكرماء من النزلاء الذين شاركوها فى مصابها بالحرائق الأخيرة والنوازل المؤلمة، فجادوا بالأموال عن كرم وسخاء، وخففوا بها وبصادق العواطف الآلام عن المنكوبين.

يحلو لى أيها السادة أن أختم خطابى بكلمة قالها نابليون يوم دخل مصر، قال ذلك الرجل الكبير: "لا تكون الأسماء العظيمة إلا فى الشرق"، فالشرق كان ولا يزال ميدانا واسعا للمجهودات الكبيرة الهم العالية، لا يزال الشرق مهدا لعظماء الرجال وكبراء الشعوب، وإذا كان قد حرمهم حينا من الدهر طويلا فما علة ذلك الحرمان إلا اليأس والقنوط.

فانزعوا اليأس من قلوبكم معاشر المصريين، وطهروها من القنوط وسوء الظن بالله وقدرته، وابنوا مجدكم المقبل على التربية الوطنية السليمة الصحيحة، وضموا صفوفكم واجمعوا أمركم ليخرج من بينكم رجال عظماء يبدلون ليل الأوطان بالنهار ويردون ما فقدت من استقلال ومجد وفخار!

الخطبة الاخيرة
دعوة الجماهير للانضمام للحزب الوطنى
٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ - القاهرة

سادتى وأبناء وطنى الأعزاء

بأى لسان أشكركم على مظاهرتكم الودية لى وانعطافكم العالى على، وليس لى مطمع فى هذه الحياة إلا أن أراكم متفقين معى شعورا ورأيا وقد حققتموه فأبلغتمونى أقصى ما أتمنى.

المبدأ وخادمه

ألا إنى أعلم أنكم أردتم بمظاهرتكم هذه أن تجيبوا أولئك الأعداء الظاهرين والمستترين وتسمعوهم أصواتكم جهيرة وتقولوا للملأ كله إنكم أعوان الشعور الوطنى وأنصار النهضة المصرية، وأن خدام هذه البلاد يجدون منكم على الدوام كل مؤازرة ورعاية.

إنى أعلم أنكم تعتقدون كما أعتقد أن الذين يهبون قواهم وأعمارهم لبلادهم لا يحسبون لأشخاصهم وجودا مستقلا عن المبدأ الذى يعملون لنصرته، بل يندمجون فى المبدأ نفسه، فكل تحية إليه فهى تحية إليهم.

ولذلك أستقبل دلائل الحب والميل التى تظهرونها نحوى على أنها إكرام لأشرف مبدأ قام ويقوم فى خدمته الإنسان، ألا وهو مبدأ إحياء الوطن ورد مجده واستقلاله إليه.

حياة مصر بعد الاتفاق عليها

أيها السادة! إن مصر خطت فى الثلاث السنوات الأخيرة خطوات واسعات فى سبل النهضة الأهلية وأسمعت الأمم والدول صوتا ما تعودن سماعه من قبله.

ظن الساسة الإنجليز أنهم إذا اتفقوا مع فرنسا على مسألة مصر طويت أوراق هذه القضية الخطيرة وخفت كل صوت ومات كل أمل وحل اليأس محل الرجاء، وصار الشعب المصرى أثرا كتلك الآثار القديمة التى يأتى السائحون لرؤيتها فى كل عام.

ولكنهم أخطأوا خطأ كبيرا، نعم أخطأ أولئك الساسة الذين يظنهم العالم كله أمهر الناس فى تدبير الشئون وإعداد الحوادث ومعرفة المستقبل.

أخطأوا لأن العزلة التى صرنا إليها بعثت فينا روحا جديدا أرشدنا إلى الحقيقة التى لا قوام لشعب بدونها ولا حياة لأمة بغيرها، ولا وجود لنفر من الناس إذا لم يتبعوها، وهى: أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها، وأن الشعب كالفرد لا يكون آمنا على نفسه إلا إذا كان قويا بنفسه مستجمعا لكل عدد الدفاع وآلات الذب عن الشرف والمال والحياة.

نعم فقهنا أن الشعوب التى لا ترجو الرقى إلا بمعونة جيرانها وأصدقائها ولا تحفظ استقلالها إلا بالاعتماد على حلفائها، هى شعوب فى خطر وحياتها مهددة فى كل وقت.

دهش الذين كانوا لا يرون فينا إلا أمواتا تتحرك كما بهت أعداء الوطنية المصرية من هذه الروح الجديدة التى دبت فى الأمة وقالوا: عجبا أيحيا هذا الشعب؟ أتنهض مصر بنفسها؟ أتعمل للاستقلال وحدها؟ أتقدر على تحقيق مطالبها بمحض إرادتها؟ أتقاتل اليأس والقنوط وتتغلب على الحوادث والكوارث؟

أجل وألف مرة أجل! إن مصر بالغة آمالها ومحققة أمانيها بإرادتها وهمتها، إنكم تقولون يا أعداء مصر إننا عشنا القرون الطوال أذلاء تعساء يحكمنا الغير وتتبدل السلطة الأجنبية، ولا يتبدل شقاؤنا وتجعلون هذا القول حجة علينا ودليلا على أننا خلقنا للذل والهوان، وأن السيادة الأهلية لن تسكن وادى النيل أبد الزمان! كذبتم وحق مصر يا أعداء مصر! كذبتم على الله والناس، فما بقاء هذه الأمة بعد اشتداد الإحن والمصائب وتعدد الإهانات والنوائب ووجود الروح الوطنية فيها بعد كل ما كان إلا دليل قاطع على أنه قد حان الوقت لأن تسترد حقوقها المسلوبة وتسترجع مكانتها فى الوجود، تقولون يا أعداء مصر إنها لبثت زمنا طويلا مكبلة بقيود الذل والاستعباد، وتتساءلون كيف تعيش بعد ذلك فى سؤدد واستقلال؟ وفاتكم أن ذلك الماضى المظلم يزيدنا تمسكا بحقنا فى مستقبل مضئ باهر، نسيتم أن الشقاء المديد أدعى إلى هناء مثله مديد، وأن شعبا قضى القرون وقواه لا تنصرف إلى خير الوطن يكون أقوى شعوب الأرض يوم يوجهها إلى هذه الغاية السامية.

تقولون يا أعداء مصر أننا لو أفلحنا لما نلنا هذا الاستقلال إلا بعد حين طويل فنجيبكم أننا لو سلمنا بقولكم لما جاز لنا أن نتأخر لحظة واحدة عن العمل.

لأننا لا نعمل لأنفسنا، بل نعمل لوطننا، وهو باق ونحن زائلون، وما قيمة السنين والأيام فى حياة مصر وهى التى شهدت مولد الأمم وكلها وابتكرت المدنية والحضارة للنوع الإنسانى كله!

إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ونبتهج به، وندعو له كأنه حقيقة ثابتة، وسيكون كذلك لامحالة!

فمهما تعددت الليالى وتعاقبت الأيام، وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب غروب فإننا لا نمل ولا نقول أبدا: لقد طال الانتظار!

إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها، وأعلى مطلب ترمى إليه فى مستقبلها، فلا الدسائس تخيفنا، ولا التهديدات توقفنا فى طريقنا، ولا الشتائم تؤثر فينا، ولا الخيانات تزعجنا، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية.

نعم إنا لو تخطفنا الموت من هذه الديار واحداً بعد واحد، لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا: "كونوا أسعد حظا منا، وليبارك الله فيكم ويجعل الفوز على أيديكم ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطنى والحرية الأهلية والاستقلال المقدس!

بلادى بلادى! لك حبى وفؤادى، لك حياتى ووجودى، لك دمى ونفسى، لك عقلى ولسانى، لك لبى وجنانى، فأنت أنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر!

حب مصر وإحياؤها

يقول الجهلاء والفقراء فى الإدراك إنى متهور فى حبها، وهل يستطيع مصرى أن يتهور فى حب مصر؟ إنه مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التى يدعو إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها.

ألا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوها واقرأوا صحف ماضيها،

واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض هل خلق الله وطنا أعلى مقاما وأسمى شأنا وأجمل طبيعة وأجل آثارا وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز؟

اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد إن مصر جنة الدنيا وأن شعبا يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح فى حقها وسلم أزمتها للأجنبى.

إنى لو لم أولد مصريا لوددت أن أكون مصريا!

قد يرى السفهاء، والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصرى مما لا يليق بإنسان،ولكن أى شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء الأمة التى سبقت الأمم كافة فى العلم والمدنية والأدب؟ أى رفعة يسعى الشريف إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذا لشعوب البشرية ومربى العالم كله؟ أى سؤدد ترمى النفوس الأبية إليه أعلى من إخراج الوطن المصرى من الظلمات إلى النور وإحلاله المحل الأول بين الأوطان الأخرى التى كانت فى الدجنة الحالكة يوم كانت بلادنا مشرقا للعرفان؟

ليت شعرى، أى لذة وسعادة ومكافأة يطلبها الوطنى المصرى أكبر من اشتراكه فى هذا العمل الخطير الذى هو أجل عمل يراه العالم فى القرن العشرين، إن المكتسب الأدبى للوطن المصرى من هذه الخدمة يربى على أتعابه ومجهوداته بكثير.

متطرفون!

أيها السادة!

يروق لبعض الجهلاء والمسخرين لخدمة الإنجليز أن يلقبونا "بالمتطرفين" ويقسموا الأمة فرقا وأقساما، ومادروا أنه لا يصح أن يوجد فى البلاد الفاقدة استقلالها المتحكم فيها الأجنبى إلا حزب واحد هو حزب الوطن، حزب الحرية حزب الاستقلال، وقد جهلوا أو تجاهلوا أنه ليس للبلاد التى يحتلها الأجنبى إلا سياسة واحدة: وهى سياسة المطالبة بالاستقلال، وأن كل قول أو عمل يؤدى إلى إضعاف الروح الوطنية وهدم جزء أو كل من ثقة الأمة بنفسها وبمستقبلها هو أكبر أذى يلحق بالبلاد نسوا أن قانون الحاكم فى

معاملته للمحكومين خاضع لدرجة احترامه لهم، فإن رآهم أمواتا فى أزياء أحياء يقولون مالا يعتقدون ويطلبون منة الإصلاح كما يطلب السائل الإحسان.. لا كما يطلب صاحب الحق حقه، استبد فيهم وسخرهم للسلطة كما تسخر الأنعام!

نلقب بالمتطرفين! ولماذا؟ لأننا نطالب بحقوق مصر واستقلالها! لأننا نذكر إنجلترا بشرفها وعهودها ووعودها! لأننا نقول لها بصوت الحق والاعتقاد القوى، إن المستقبل يكفل ذلك وأنه خير لها ألا تقاوم الحوادث فيما بعد، وألا تحاول إعدام أمة خلقها الله للحياة والعمل!

متطرفون! لأننا نعلن ثقتنا الكاملة بمستقبل بلادنا، ونقول لهذه الأمة فى الصباح والمساء: اليوم عسر وغدا يسر واليوم أسر وغدا فخر، اليوم احتلال وغدا استقلال، اليوم عناء وشقاء وغدا رخاء وهناء!

متطرفون لأننا نقول للأمة اعملى وحافظى على السكينة، إياك والقلاقل فهى تخدم العدو وتضر بالوطن، إياك والانقسامات فإنها منشأ الخراب والدمار، إياك وهوس العداوات الدينية فإنها آفة الآفات وجالبة المحن، إياك وسوء ظن الملأ المتمدن بك فإن الشعوب فى المدنية متضامنة ويا شقاء من سار ضدها!

متطرفون! لأننا نقول للأمة خذى من العلم أوفر قسط وتسلحى بأسلحته واملأى وادى النيل من نوره، وردى إلى الفقير حقه ونصيبه من هذا المنهل العذب.

متطرفون! لأننا نرد تهم العدو ونثبت للعالم كله أننا متمدنون وأنه ليس للتعصب بيننا وجود وأن الإسلام عامل قوى لترقية الأمة ونشر أنوار المدنية فيها.

متطرفون! لأننا رفعنا أصواتنا محتجين على فظيعة الفظائع فى دنشواى وعارضنا السياسة الإنجليزية فى دعاويها ووقفنا فى وجوه أعدائنا، والحق سلاحنا والصراحة عدتنا والإقدام مطيتنا.

متطرفون! لأننا نمثل مصر للأمم تتدفق حياة ونشخصها قوية ناهضة شريفة المقاصد أبية لا ترضى المذلة ولا تعرف الكذب والخداع.

متطرفون! لأننا لا نطلب استعمار بلاد الغير ولا استعباد شعب من شعوب الأرض، بل نقنع بطلب الاستقلال لوطننا.

فإن كنا نعتبر متطرفين لأننا نعلن ذلك كله ولأن هذه خطتنا فأكرم بالتطرف، ويافخارنا بأن نلقب بالمتطرفين!

ومن منكم لا يفخر بأنه متطرف، وأيكم لا يريد أن يكون الاعتدال فى هذه الحالة شيئا آخر سوى الخوف والجبن والرياء واستعمال خطتين واتباع سياستين ومخاطبة الناس بلسانين؟ ومن ذا الذى يرضى لنفسه ولقومه بهذا الاعتدال وما هو فى الحقيقة إلا المذلة فى أبشع مظاهرها والموت الشنيع الموجب لاحتقار الأمم جمعاء.

عجبا! عجبا! أنلقب نحن بالمتطرفين لأننا نطلب استقلال وطننا من أشرف السبل وبأكمل الوسائل ولا نريد أن نتعداه بالاعتداء على أحد، على حين أن الإنجليز لم يكتفوا باستقلال وطنهم بل استعبدوا الأمم وتوسعوا فى الاستعمار وملكوا البحار ولا يزال أكثرهم يقول: هل من مزيد؟

هل هم يلقبون بالعقلاء المدبرين لأنهم إنجليز ونلقب نحن بالمتطرفين لأننا مصريون؟ هل الوطنية التى تروق وتعجب هناك، تؤذى وتؤلم هنا؟

هل مصر دون بريطانيا فى الجمال حتى تحدد محبة المصريين لمصر ولا يعرف لحب الإنجليز لبريطانيا حد؟

كلا وأيم الحق كلا، إن مصر جديرة بأن تحب بكل قوة، بكل عاطفة، بكل جارحة، بكل نفس، بكل حياة!

لا عجب إذا وقف من لا يعرف هذا الحب باهتا أمام من يعرفونه، لا عجب إذا دهش الذى لا يتألم لمصاب وطنه ولا يشعر بأوجاع بلاده ممن يتألمون ويشعرون، لاعجب إذا كان الذين خلقوا وقلوبهم من صخر يعدون وطنية من ولدوا ولهم قلوب إنسانية جنونا فى جنون.

أعداء الوطنية

أيها السادة:

لا يجهل أحد منكم أن الحركة الوطنية المصرية أزعجت محبى الاستعمار من الإنجليز فحاربوها بدنشواى فخابوا، وبزيادة جيش الاحتلال فأخفقوا،

وبتهمة التعصب الدينى ففشلوا وأضحكوا العالم طرا، وها هم الآن يحاربونها بالخونة والمنافقين بعد أن عهدوا الأمر للدخلاء طويلا فلم يبلغوا منا مأربا، وإنهم لمخفقون أيضا فى هذه السياسة الجديدة، إنهم لو جردوا جيوشا من أعداء الحركة الوطنية المصرية فإنها لا تزداد أمامهم إلا قوة وحمية وثباتا وإقداما.

ليقلبوا نظام التعليم ما استطاعوا وليحاربوا الناشئين ما أرادوا،فإن رجال الغد لا يكونون إلا مصريين وطنيين متشربين بمحبة بلادهم متطلعين لأن ينيلوها من المجد والسؤدد أسمى مما نالت الأمم الأخرى، لينفقوا الأموال ذات اليمين وذات الشمال لشراء الضمائر الخربة والنفوس المنحطة، فإنهم إن كسبوا فردا واحدا قام من الوطنيين الصادقين العشرات لهدم ما يبنون ودك ما يقيمون.

إن أمة دبت فيها روح الوطنية وطمحت نفسها للاستقلال لا تموت أبدا، وإن صواعق السياسة كلها لا تحول ضميرا لاذ بالوطن عن وجهته!

أيها السادة :

إن الوطنية واحدة لا تتعدد! وقد يضل الإنسان فى أمور كثيرة ويخطئ فى مسائل عدة، ولكن إذا كان هناك شعور لا يضل الرجل فيه ولا يخطئ أبدا فى تقديره وتكييفه وإظهاره بكل مظاهره فهو الشعور الوطنى، لا يحتاج المرء إلى علم ولا إلى فلسفة ولا إلى خبرة وتجارب ليقول إذا سأله السائل: "ما رأيك فى مسألة احتلال الإنجليز لبلادك؟" : "إن خروجهم غاية آمالى وإن العمل له أقدس الفروض المحتمة على".

إن أجهل الشعوب وأبعدها عن العلم والحضارة والمدنية تشعر بهذا الشعور لأنه طبيعى ولا يكون الإنسان إنسانا إلا به.

لذلك كانت ضجة الأمم شديدة ضد من قالوا بإماتة هذا الشعور، ونادوا بأن الوطن خيال وأن الراية قطعة من قماش وأشاروا باعتصاب الجنود لو قامت الحرب ودعت الأمة أبناءها الأشداء للذب عنها.

انظروا إلى فرنسا وهى الدولة التى امتلأت صحف تاريخها بذكر الوطنية وآثارها الفخمة وورث الأبناء عن الآباء فيها حب الوطن والدفاع عنه حتى

صار هذا الشعور مقدسا لا يقربه أحد بسوء، كيف تهتز الآن من شمالها إلى جنوبها ويقول خدامها الأمناء بأعلى أصواتهم:

حذار حذار من "هرفى" وأنصاره فإنهم يريدون هدم بناء الوطنية الفرنسية، أى بناء المجد الحقيقى والحياة العالية، وإن عدوى أفكارهم أضر بفرنسا من كل جيش فاتح".

فإذا كان هذا مبلغ سخط الشعوب القوية الراقية على أعداء الوطنية، فكم يجب أن يكون سخطنا شديدا عليهم ونحن أحوج شعوب الأرض إلى هذا الشعور الذى لا ننال حقا إلا به ولا نبلغ مأربا إلا بفضله.

إننا ما رأينا وماسمعنا ولا روى لنا التاريخ أن أمة سلبت حقوقها واختلس استقلالها وضربها الأجنبى ضربة الاستبداد والاستعباد يقوم من أبنائها من يمجد هذا الأجنبى ويقول له:

"أنت السيد وأنت المنعم فافعل ما شئت؟"

أسمعتم أن أيرلنديا واحدا قال هذا القول، أوصل إليكم أن بولونياً من أجهل البولونيين طأطأ رأسه أمام الحاكم الأجنبى؟ أم علمتم أن صغار البولونيين أدهشوا العالم كله بتمسكهم بوطنيتهم؟

إن من يظن أن الإنجليز يحبون الخونة يخطئ خطأ كبيرا، نعم إنهم يستخدمونهم لأغراضهم ولكنهم يحتقرونهم أشد الاحتقار، لأن شعبا ينشأ الفتى فيه وهو يرى امتلاك الأرض ومن عليها حقا من حقوق أبناء جلدته لا يعتبر الخيانة إلا جناية الجنايات.

أين كانت تكون عظمة انجلترا وسلطتها لو كان فيها من الخائنين من ترى مصر، هل كانت تسود الأمم وتملك رقاب الشعوب وتبلغ من الثروة والسؤدد هذا المبلغ؟

كلا وأيم الحق كلا، إنها كانت تكون ممزقة الوجود متفرقة الكلمة متباينة الآراء يلعب بها الأجنبى ويسيرها فى الطريق الذى يختار.

فلا قوام لأمة ولا سلامة لبلاد إلا بقوة العقيدة الوطنية، ولا تدرك الشعوب هذه القوة إلا إذا كانت شديدة الحكم على من يتلاعبون بالوطنية، قاسية فى تأديبهم ومعاقبتهم.

سمعت البعض يقول عنى إنى شديد فى تقريع من خالفوا الواجب الوطنى ومالوا عن مصلحة البلاد، فأجيبهم اليوم بأنه إذا صح التسامح فى بعض الأمور وفى ظروف معينة، فإن التسامح فى الوطنية إعدام لها وقضاء عليها، وإن من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان.

سياسة المغالطة

ينادى البعض فى هذه الأيام بأن كلمة الاستقلال توجع الإنجليز وأنه أشير عليهم من بعض أنصار مصر فى انجلترا بأن الأصلح والأوفق الاكتفاء بطلب الإصلاح وإهمال مسألة الجلاء والاستقلال، أو على الأقل تأجيلها إلى حين، ويعمل ذلك البعض لترويج هذا الرأى، ويندفع فى طريقه طاعنا فى المطالبين بالاستقلال قائلا إنهم متطرفون!

وإنى مفصح الآن أمام الأمة كلها عن رأيى فى هذه السياسة التى يتوهم ذلك البعض أنها أكبر ضرب من ضروب الدهاء.

أحرار الإنجليز ومصر

إن العمل بآراء الإنجليز الذين يشتغلون بمسألة مصر فى انجلترا ليس مما يطالب به مصرى، لأن هؤلاء الإنجليز يعملون لخدمة انجلترا بالذات، فهم يريدون أن تكون سياسة بلادهم سياسة لين ومهارة بدلا من أن تكون سياسة شدة وصلابة، وهم إن اتفقوا معنا فى بعض المسائل قد يختلفون فى الجوهر، ولذلك نرى بعضهم يرى بمزيد الاستياء الحركة الوطنية الداعية إلى الاستقلال.

فنحن مسلوبون والإنجليز هم السالبون،ونحن طلاب حق مقدس والإنجليز هم مغتصبو هذا الحق، فلا سبيل إلى الاتفاق بيننا وبينهم إلا باعترافهم بحقنا ورده إلينا.

أما القائلون بأنه يتم الاتفاق بين المصريين والإنجليز على أساس تضحية الشرف البريطانى، وتضحية استقلال مصر، أى خيانة المصريين لوطنهم وخيانة الإنجليز لشرفهم ووعودهم وعهودهم، فإنما يوجهون إلى الأمتين أكبر مسبة ويطلبون اتفاقا باطلا، وأى احترام لعقد أساسه الخيانة الصريحة؟ إننا

نشكر كل إنسان ينصف مصر ويعترف بحقوقها كلها أو بعضها، ولكنا لا نتقيد برأى أحد ولا نتأثر بسياسة خاصة، بل يجب أن نكون خدام العقيدة الصحيحة السليمة، خدام العقيدة الوطنية.

فإن قال المنتصرون لمصر فى بعض أمورها من أحرار الإنجليز إن المطالبة بالاستقلال تؤلم قومهم وطالبونا بالعدول عنها، وجب على كل مصرى أن يجيبهم قائلا: "لكم دينكم ولى دين".

فساد سياسة المغالطة

يتوهم أنصار سياسة المغالطة أنهم مهرة قادرون وسياسيون محنكون، فلذلك هم يريدون أن يخدعوا الدولة الإنجليزية ويغلبوها بقوة الدهاء، هم يقولون: "لنهجر طلب الاستقلال ولنطالب الإنجليز بالإصلاحات الداخلية مثل تأسيس مجلس نيابى ونشر التعليم حتى إذا صرنا أصحاب الحول والطول فى البلاد قلنا لهم: "انجلوا عنها" فلا يستطيعون إلا أن ينجلوا خاضعين ممتثلين.

اللهم إنى أعترف بأنى لست من المهرة فى السياسة حتى أدبر مثل هذا التدبير وأصرح بأنه لم يخطر لى لحظة واحدة على بال بأنى قادر على أن أصرع السياسة الإنجليزية بمثل هذه المهارة الفائقة، كما أنى مع عداوتى الأكيدة للاحتلال، لا أرى الإنجليز قد تحولوا بسرعة البرق أطفالا صغارا حتى تدخل عليهم هذه الحيلة المضحكة.

باطلا يعتقد البسطاء أن الإنجليز مع كونهم ينوون البقاء فى مصر يقبلون منح أهلها حكومة دستورية، لأنه لو جاز ذلك لكان وجودهم فى هذه الديار يوم يؤسس فيها مجلس نيابى تام واسع السلطان نافذ الكلمة لغوا، ولأصبحوا فى هذا القطر لاعبين.

إن إعطاء المصريين مجلسا نيابيا حقيقياً - لا صورة يراد بها السخرية وذر الرماد فى العيون - هو تجريد للاحتلال من كل سلطة، فلا يستطيع المعتمد البريطانى إبقاء مثل دنلوب فى نظارة المعارف مع سخط الأمة كلها عليه، ولا يمكن تعيين مثل المستر هيل فى مدرسة الحقوق والأكفاء من المصريين يعدون بالعشرات إن لم نقل بالمئات، ولا يقدر أن يطلب أربعمائة ألف جنيه لبناء

ثكنات للجيش البريطانى والبلاد فى أزمة شديدة وحاجتها للمال ظاهرة العيان، ولا يتيسر له صرف تلك الاعتمادات الطائلة للسودان ومصر فى أشد الحاجات إليها، ولا يجد سبيلا لمسخ الحكومة الأهلية وتمكين الإنجليز من كل فروعها ومحاربة الأمة فى كل ميولها وسلبها جميع حقوقها.

إنما تساعد انجلترا بكل قواتها على تأسيس حكومة دستورية فى هذه الديار يوم تنوى حقيقة الجلاء عن مصر: ولذلك طلبت دائما المجلس النيابى مقرونا بطلب الاستقلال.

ألا إن الخطة التى وضعتها الحكومة الإنجليزية عندما احتلت هذا القطر هى ترشيح المصريين لأن يحكموا أنفسهم، وإقامة معالم الدستور بينهم ثم الجلاء عن بلادهم، هى خطة متماسكة كل التماسك ولا يمكن تنفيذ مبدأ من مبادئها دون المبدأين الآخرين، فترشيح المصريين لأن يحكموا أنفسهم يجعلهم أقوياء أشداء راقين فى الشعور الوطنى فلا يرضون بحكم الأجنبى، ومنحهم مجلسا نيابيا يحصر السلطة فى أيديهم فلا يبقى للإنجليز بجانبهم عمل ما.

ولذلك صرحت أيها السادة بفساد سياسة المغالطة وبضررها الشديد على مصر والمصريين لأنها تؤدى إلى اعتراف فريق من الأمة بقبول الاحتلال وتظهره بمظهر الضعف الشديد ولا تثمر ثمرة ما، هذا فضلا عن كونها قاتلة للروح الوطنية بإبعادها المصريين عن ذكر الاستقلال والتعلق به.

سياستنا

أسمع المعترضين يقولون : وبم تمتاز سياستكم على سياستهم وما ثمراتها؟

فأجيب بأن سياستنا هى سياسة الصراحة والمناداة بالحق والدعوة للاستقلال، وهى وحدها الموصلة إلى كل الغايات الحسان، فالصراحة وقول الحق من الخلال التى تحمل الحاكم على احترام المحكوم.

فالإنجليزى لا يشك فى أن كافة المصريين يودون الاستقلال من أعماق قلوبهم، فإذا رأى بعضهم يقول عكس ذلك ويتحبب إليه ويطعن فيمن يخالفونه فى خطته عرف أنه منافق واحتقره ورمى الأمة بعدم الاستعداد للاستقلال.

وقد قال غمبتا حقا وصدقا: "لأجل أن تنال محبة الإنجليز يجب أن تنال

احترامهم" أن الإنجليز أنفسهم فى حاجة لمن يسمعونهم الحقيقة الصارخة، وهى أن أساءتهم وآلمتهم فى الظهر فإنها أفيد فى الواقع من نفاق المنافقين وكذب الكاذبين.

أليس أولئك المنافقون هم الذين أدخلوا فى نفس اللورد كرومر اعتقادات كاذبة بشأن الأمة المصرية فاعتدى عليها قولا وفعلا، وفر بيده هاوية بينها وبينه بفظيعة دنشواى، ويسبها فى وطنها ودينها حتى فارقها وألسنتها تشيعه بالسخط الشديد؟

فمن من الإنجليز يرضى لشرف بلاده ومصلحتها أن يكون كل عهدها فى مصر كروموريا؟ ألا يقول معنا بضميره إن لم يقل بلسانه: إن الصراحة والصدق هما أمتن أساس لأشرف سياسة.

الاستقلال والوصول إليه

إن الذين يطالبوننا بعدم ذكر الاستقلال إنما يريدون أن تموت الروح الوطنية فى مصر، أى أن تموت الأمة المصرية، لأن حياة هذه الأمة ومستقبلها مرتبطان بمقدار قوة هذه الروح فى الشعب.

يتساءل البعض عن الوسيلة الموصلة إلى الاستقلال، وهذا تاريخ الشعوب البشرية يدلهم على أن الوسيلة الموصلة إلى الاستقلال تنحصر فى بث روح الوطنية الصحيحة والشهامة والإقدام فى الأمة، وإعلاء ملكتها، وإيجاد حب السؤدد والرفعة، ومسابقة الأمم الراقية،وجعل الاستقلال رائدها.

فإذا تمكنت هذه الروح وتلك الميول من كل مصرى فتحت المدارس العلمية والصناعية والتجارية والزراعية فى كل مكان، وظهرت آثار النخوة والهمة والتضامن فى كل جهة وناحية، واتحدت الأمة فى الغايات والمقاصد وازدادت ثروتها فى المال والعلم والوطنية والوئام، وقضت على كل عوامل الخصام والانقسام وصارت أمة من أقوى الأمم فعلا، واضطرت إنجلترا يومئذ لأن تتفق معها على الجلاء والاستقلال، تفضيلا لمودتها على عداوتها، لأن أمة تبلغ هذا الشأن لا تلبث أن تستخدم الحوادث، وما الحوادث مسيرة بإرادة دولة أو برغبة إنسان، فتنال استقلالها رغما من كل معارض فيه.

فالدعوة للاستقلال وبث الروح الوطنية الطاهرة، هما المؤديان إلى تحقيق

آمال الأمة المصرية، فليكن معتقد المصريين جميعا أن نجاة مصر لا تكون إلا بهمم المصريين، وأن ارتقاءنا موكول إلى عزائمنا. فلنطلب النهوض من أنفسنا ولنعمل له بالهمة والصدق والاتحاد.

يقول البعض إن المناداة بالوطنية كلام فى كلام، نسى ذلك القائل أن أهم الأعمال البشرية وأرقى الجهود الإنسانية تنحصر فى إدخال عقائد جديدة فى النفوس، لأن العقيدة تحرك الجبال.

فإدخال الروح الوطنية فى نفوس المصريين لتجتمع كلمتهم حول الوطن العزيز ويتفقوا فى المطالبة بمجده واستقلاله، لهو أكبر الأعمال.

ومن قال ضد ذلك فقد أنكر الديانات وتأثيرها والتاريخ وأحكامه والعوامل الفعالة فى الشعوب كلها.

العالم ومصر

أيها السادة:

عرف المصريون أجمعون أن اعتقاد العالم فيهم قد تغير، وأنه أصبح يرى فيهم أمة حية رشيدة بعد أن كان يعتقد فيهم ضد ذلك، ولماذا؟

أليس لأنه علم أنهم محبون لوطنهم راغبون فى خيره واستقلاله وأن الحركة الوطنية المصرية فى نمو مستمر.

ليقل لنا الطاعنون فينا أكانت تبلغ هذه الحركة الوطنية شأوها الحالى لو لم تكن قد سيرت بقوة وصراحة صارمة لا محاباة فيها؟ أليس من الحقوق الطبيعية لمن سلب حقه أن يعلو صوته بدرجة صوت سالبه، إن لم يرتفع فوقه؟

فأى لوم يوجه إلينا أننا فى أقوالنا وكتاباتنا وأفعالنا نذكر الأمة الإنجليزية بالكرامة والاحترام فهل فعل المحبون للاستعمار من الإنجليز فعلنا؟ هل قالوا مثل قولنا؟ هل كتبوا مثل ما كتبنا؟

كلا وألف مرة كلا، إنهم ما أسمعونا إلا الشتائم والمطاعن البذيئة والتهم الباطلة، هذا شيخ ساستهم لورد كرومر أبت عليه آدابه وتجاربه وخبرته أن يترك مصر دون أن يسب أهلها جميعا ويلقبهم بالعميان ويقضى عليهم بالذل إلى أبد الزمان، فهل قام مصرى واحد بسب الأمة الإنجليزية كما سب لورد

كرومر الأمة المصرية؟ هل خالف واحد منا الأدب والكمال أو نسى سمو القضية التى نخدمها وقلد اللورد فيما قال.

لا ريب فى أن العدو نفسه يجيب سلبا أمام ضميره ويعترض بأن المطالبين باستقلال مصر ساروا فى طريقهم والحمية والحكمة عندهم متلازمتان.

المعارضة الوطنية والحكومة الإنجليزية

أيها السادة :

إن الحكومة الإنجليزية التى فخارها فى وطنها الجدل والمناقشة والسعى وراء الحقيقة تعلن عجزها فى مصر إذا جارت أولئك المضطربين من الحركة الوطنية النادبين سوء حظهم لوجود أفراد فى هذه الأمة يقولون الحق جهارا ولا يخافون فيه لومة لائم، لأن الحكومة القوية تزداد قوة بفضل المعارضين الواقفين لها بالمرصاد المنادين بسيئاتها المشهرين بأغلاطها الدالين لها على عيوبها، فما بالك بسلطة الرجل الفرد، بسلطة الأجنبى الجاهل بأخلاق الأهالى وميولهم ومطالبهم ورغائبهم؟

أليست هى أحوج السلطات إلى قوة معارضة تقف أمامها موقف الخصم العنيد الذى لا ينزل عن حق ولا يسكت على عيب ولا يستر نقصا ولا يجامل فى خطأ، بل ينادى بما يراه ويعتقده وينتقد الأعمال بصراحة وبطش شديد؟

إلا أن حكومة كحكومة مصر لا يزال شكلها ونظامها أبعد الأشكال والنظم عما يرجوه المصريون لبلادهم ويطلبونه فى الصباح والمساء، لأجدر حكومات العالم بأن تسمع أصوات المخالفين لها وتنظر فى انتقاداتهم بعناية لا بتعنت وغيظ، فإن الموقف موقف خدمة عامة وعمل للصالح العام لا موقف خصام وعناد.

يقول بعض الصحف إن الحكومة تأبى تقرير ذلك الأمر النافع وهذا المشروع المفيد لأن المعارضين أو المتطرفين أو المتحمسين أو أعداء إنجلترا فى مصر طلبوا ذلك الأمر وهذا المشروع. وأن المسألة صارت إلى المشاكسة والعناد والمبالغة فى النكاية بالخصم.

ومثل هذا القول هو أكبر مسبة توجه إلى رجال الحكم!

إن الحكومة الصالحة العاملة لخير الرعية هى التى تلتقط الحقيقة أنى وجدتها، وتعمل بالرشد والصواب ولو كان خصمها هو مرشدها، فهى تزداد قوة على قوتها ونفوذا عند الرعية إذا اتبعت رأى خصمها متى كان حقا، لأنها تثبت بذلك أنها حكومة خير ورشاد لا حكومة طيش وأهواء.

أما إذا اعتقد الجمهور فى الحكومة أنها لاتعمل إلا ما تريد وأنها تهمل كل صوت يرتفع بالحق مادام قائله ليس من مملقيها، فإن قمامها يسقط فى نظر الناس ويسئ الكل الاعتقاد فيها وتكون قد أوجدت بنفسها وبإرادتها الشقاق والافتراق بينها وبين المحكومين.

أى معنى لافتخار الإنجليز بسيادة حرية القول وحرية الأقلام فى مصر إذا كانت هذه الحرية لا تفيد الحكومة شيئا ولا تصلح المعوج من أمورها؟ وهل القصد من هذه الحرية أن يسمح للمصريين بأن يبكوا استقلالهم وينادوا بالويل والثبور على سالبيه ليس إلا؟

اللهم إن حرية لا تعطى الأمة حقا فى إدارة شئون البلاد، ولا تجعل للناطقين باسم الشعب سلطانا أدبيا محترما عند الحاكمين، لحرية أجنبية عن حرية الشعوب المتمدنة ولإهانة حقيقية للأمة تقدم إليها فى شكل نعمة.

سيئات المحتلين وفساد حكمهم

ماذا يريد الإنجليز منا؟ أيريدون أن نسمى سيئاتهم حسنات ونصفق لضياع حقوقنا واستيلائهم على بلادنا،وتجريدهم إيانا من كل سلطة ونفوذ؟ هل كانوا يسرون بمثل هذا الحال لو كانت بلادهم محتلة بدولة أجنبية؟

اتفاقية السودان

من من المصريين يذكر اتفاقية السودان ويشكر المحتلين؟ وكيف يشكرهم وهم قد ضغطوا على حكومة فى قبضتهم فأتت ما أرادوا مع مخالفة الأمر للفرمانات السلطانية وبطلانه من الوجهة القانونية؟

من ذا الذى يمدح هذه السياسة، سياسة القوة والجبروت التى أنكرت حقوق مصر فى السودان فعلا بعد أن روينا أرضه بدمائنا الغالية وأنفقنا عليه الأموال الطائلة؟

أين العدل؟؟

أى مصرى يرضى عن قوم لا يعرفون العدل والإنصاف والمساواة وتلك الكلمات الضخمة والمعانى الفخمة إلا إذا كان الأمر متعلقا بمصرى، أما إذا كان له مساس بإنجليزى فلا عدل ولا إنصاف ولا مساواة!

أليست الوكالة البريطانية هى التى أقامت الدنيا وأقعدتها يوم ادعى أمامها أحد الأرمن بأن أخاه سجين فى سراى رأس التين وأنه يعذب بغير حق؟ ألم تنتدب يومئذ المستر شابمن للتحقيق وتفتيش السراى أى القيام بعمل لم نسمع بمثله فى حكومة أخرى؟ ألم تقل يومئذ فى الجرائد الخادمة لسياستها إن هذا أكبر مظهر من مظاهر العدل وإنه يحق للمصريين أن يشكروا المحتلين ليلا ونهارا ويرتلوا آيات الثناء عليهم؟

فأين هذا العزم اليوم؟ أين تلك الهمة العالية فى تأييد العدل وعدم التمييز بين الصغير والكبير؟

كيف سكنت عواطف المدنية والإنسانية والإنصاف والمساواة مرة واحدة فى قلوب السادة الإنجليز لما اتهم عالم من كبار العلماء الفرنسيين مستر دنلوب بتهم شنيعة يأبى الحر قبولها والسكوت عليها.

أين المظهر العادل للعدل أيها المحتلون؟ أين أبناء الأمة التى تعد من أكبر مفاخرها عدم التستر على مرتكب أثيم؟ أين اختفوا!

أين هم لنسمعهم الحق الذى لا ريب فيه ونقول لهم بصوت جهير إن عدم محاكمة دنلوب بعد الفضائح التى أعلنها المسيو لامبير معرة كبرى على الاحتلال والمحتلين!

ينسب البعض سكوتهم أمام هذه التهم الصريحة إلى أنهم لا يريدون إرضاء الرأى العام أو الظهور أمامه بمظهر الضعف.

حقا إنها لحجة تضحك، وإنها لسياسة لا ترضاها لنفسها حكومة "بهنزين" أيظن المسيطرون من الإنجليز أن إخراج دنلوب من المعارف أضر بالسياسة الإنجليزية من بقائه!

إننا كنا نعتقد أنهم أذكى وأفطن من أن يقولوا ذلك، وإلا فكيف فاتهم أن بقاء دنلوب هو أكبر وصمة للاحتلال، وأننا لو كنا نريد تحقير الحكم

البريطانى فى مصر لما طلبنا منهم أكثر من بقاء دنلوب بعدتهم الأستاذ لمبير، أليس بقاؤه أكبر دليل نقدمه للأمة على أن آن لها أن تترك مدارس الحكومة خاوية لا يقصدها طالب وتؤسس هى مدارس لأبنائها بأموالها وهمم القادرين من رجالها لتنال الاستقلال العلمى والأدبى وتستريح من أعمال دنلوب ومساعيه!

إذا كان الأستاذ لامبير يقرر أن خطة دنلوب هى التى دفعت بطلاب الحقوق إلى صفوف الوطنيين فصاروا فى مقدمتها، فكيف لا يدرك الإنجليز أننا لو كنا لا نرمى إلا إلى جمع كافة القوى الحية ضدهم وأن هذه طلباتنا الوحيدة، وأننا لا نريد الخير لبلادنا ولا نطلب الإصلاح، لابتهجنا ببقاء دنلوب عاملا على زيادة الوطنيين المصريين ومجدا فى بث روح العداء فى قلوب الناشئين للانجليز واحتلالهم! إن الأمة المصرية تنظر اليوم بمزيد الاهتمام إلى ما تنوى الوكالة البريطانية عمله مع دنلوب، فإن هى تركته وشأنه علم من لم يكن يعلم فى هذا القطر وفى غيره من الأقطار أن العدل خيال فى مصر لا حقيقة، وأن الإنجليز يغفرون لرجالهم كل السيئات ويتربصون للمصريين فيعاقبونهم على أصغر صغيرة.

فإذا كانت هذه هى النتيجة التى يعمل لها المعتمد الإنجليزى الجديد فليفعل، فإنما هو يهدم بيمينه البقية الباقية من نفوذ بلاده عند المغرورين الذين لم يسيئوا بها الظن تماما ويقوى عقدة الذين لا يرون فى نواياها ومراميها شيئا من الخير لمصر والمصريين.

محاربة الأكفاء من المصريين

كيف يطالب المصريون بأن يحسنوا الظن بالمحتلين وهؤلاء هم الذين يدعونهم كل يوم إلى إساءة الظن بهم.

كيف يصدق العلماء والفضلاء والأكفاء من المصريين أن الإنجليز يريدون حقيقة لهذه البلاد التقدم والارتقاء وهذا مستر دنلوب يأمر كل مدير لمدرسة عالية بأن يطعن فى كفاءة المصريين الذين يطلبون وظائف التدريس!

وإذا تركنا المستر دنلوب وارتقينا إلى رئيسه الأعلى معتمد إنجلترا فى مصر، فماذا نجد من نياته! نجد أن السير إلدون غورست قد عين المستر

هيل مديرا لمدرسة الحقوق وسخر بذلك من المصريين عامة ومن الأكفاء خاصة.

ألم يقل لهم بلسان الحال: "إنى لأسخر من معارفكم وآدابكم وكفاءتكم واستعدادكم وخبرتكم وشهاداتكم لأنكم مصريون وأقدم عليكم من هو دون أصغركم علما وفضلا وخبرة لأنه إنجليزى؟"

فهل بعد هذا يطالب المصريون بأن يحسنوا الظن بالإنجليز؟ وهل هناك عداء صريح من قوم لآخرين أكبر من هذا العداء؟ وهل يليق بشرف دولة كبرى كالدولة الإنجليزية أن تحارب المصريين بمثل هذه الصغائر وهى التى أقسمت أمام العالم كله أن جل رغائبها إعداد المصريين لأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم؟

ومتى يتسنى لهم ذلك؟.. القاعدة السائدة فى السياسة الإنجليزية بمصر، هى تجريد المصريين من كل سلطة، وإبعادهم عن كل منصب ذى عمل، والاستعانة بالضعفاء والمارقين منهم على تمثيل مصر فى المناصب التى يشغلونها بأسوأ صورة.

دنشــواى

يقول سير إدوارد غراى بأعلى صوته فى مجلس العموم الإنجليزى إن لورد كرومر لم يعامل المصريين كأمة منحطة، فماذا كان يريد أن يعمل اللورد ليعترف بأنه عاملهم كذلك؟

أليست دنشواى وحدها بكافية لأن تثبت مدى الدهور والأجيال أن الإنجليز أهانوا المصريين إهانة قاسية لا تنسى أبدا، ولا يمكن اختلاف اثنين من المنصفين فى الحكم عليها؟

ينادى الساسة الإنجليز بأن الحكم فى دنشواى كان سياسيا وكان يقصد به تأديب الأمة، وإذا طلبت الجماهير العفو عن المسجونين بسبب هذه الحادثة قالوا: "إنما أنتم تطلبون العفو لتعدوه انتصارا على السياسة الإنجليزية".

فهل هذا هو العدل الذى تجود به علينا المدنية البريطانية؟ هل هذا هو الإنصاف الذى تريد أن تعلمنا إياه الدولة الإنجليزية؟ أيعاقب أهالى دنشواى بتلك الشدة المتناهية لأن الأمة لم تكن مع الإنجليز فى حادثة العقبة، وهل

الحكومة التى تخلط بين السياسة والعدل إلى هذا الحد فتعاقب البرئ وتكافئ المجرم تستحق أن يمدحها مادح ويثنى عليها إنسان؟ وكيف يدهشها قيام المعارضين فى وجهها واعتراضهم عليها بكل شدة وقوة؟

إننا لو كنا نريد دوام العداء والنفور واستحكام الشقاق والتنازع لطلبنا بقاء مسجونى دنشواى فى سجونهم الأعوام الطوال، لأنه كلما مرت السنون وهم على حالهم تجددت آلام الأمة وجرى ذكر دنشواى على كل لسان، وهكذا سياسة العناد لا تثمر إلا عكس المقصود منها ولا تؤدى إلا إلى ضد الغاية المطلوبة.

إن الرجال لا يحكمون بمثل هذه السياسة ولا تدبر شؤونهم بمثل هذا الاعتساف.

إذا كان الإنجليز يجهلون أقوال المصريين وما يدور بينهم، فليعلموا أن فى هذه الأمة رجالا مستنيرين رشيدين يعادلون أكفأ العقلاء من الإنجليز وأنهم يغارون على الحق والعدل ولا يرضون بأن تكون الأحكام فى البلاد قائمة على الغايات والأهواء، وهؤلاء الرجال هم القوة المفكرة التى تحترمها كل حكومة فى العالم وتسترشد بآرائها فى المواقف الحرجة.

إننا نقدم العدل والرحمة على السياسة، ولذلك طلبنا ونطلب بأعلى أصواتنا العفو عن مسجونى دنشواى، ونقول بكل صراحة إن السياسة الرشيدة هى التى تعمل لتخفف الآلام الناشئة من هذه الحادثة الموجعة، لا العمل على تقويتها وزيادتها بدعوى أن طلاب العفو ليسوا من أنصار الاحتلال!

ألا فاقرأوا معاشر الإنجليز التاريخ الإسلامى وانظروا فى أعمال أولئك الخلفاء العظماء الذين كان الواحد منهم ينشد الحقيقة فى كل وقت وفى كل مكان ويمتثل للحق ولو كان قائله من أحقر الناس.

فخليق بالإنجليز وهم الذين يدعون أن مدنيتهم سادت كل مدنية أن يذكروا أن رجال المدنية الإسلامية لم يكونوا ليقولوا: "السياسة فوق الحق". بل كانوا يقولون ويؤيدون هذا القول بألف دليل ودليل: الحق فوق كل شئ.

الثروة والأزمة

أيها السادة، يفاخرنا الإنجليز على الدوام بأنهم أغنوا البلاد وملأوها ذهبا حتى حدثت الأزمة الأخيرة وخفت هذا الصوت الذى صمت من سماعه الآذان أعواما طوالا.

فما قيمة الثروة التى يفاخرون بها بجانب الحرية الشخصية والعمومية وسيادة المصرى فى بلاده واستقلاله فى وطنه؟ ومن من المصريين لا يفضل أن يكون أفقر الناس جميعا وحكومة بلاده قائمة على العدل الصحيح على أن يكون أغناهم وأثراهم ويهدد من المحتلين بعقوبات دنشواى؟

وإذا كان من المسلم أن ارتفاع أثمان أراضى الزراعة تابع لثمن القطن، وأن هذا خاضع لطلبات العالم ولحاجة الناس للقطن المصرى بنوع خاص ولقلة المحصول الأمريكى وللمضاربة، فما أثر الإنجليز فى هذه الثروة؟

لا شك أنه جرت إصلاحات جمة فى الرى وأن الأعمال التى بدئ بها فى عهد الخديويين السابقين تقدمت فى العهد الحاضر، ولكن هذا الإصلاح فى الرى ليس مزية خاصة للحكم البريطانى، ثم ألم يكن هذا من فائدة الإنجليز أكثر مما هو فى فائدتنا؟ ألم يكن من مصلحتهم إرضاء دائنى مصر وفتح السودان وإصلاحه بأموال مصر.

ومن الذى ينكر اليوم أن الأزمة المالية الحاضرة ناشئة عن فوضى البورصة وعن ثورة الشركات التى دبرتها اليد التى قيدت الشركات المؤسسة بمقتضى القانون المصرى بقيود جمة لإيجاد أسهم للتأسيس حتى تؤسس الشركات كلها بمقتضى القانون الإنجليزى.

من الذى ينكر أنه كان فى استطاعة الإنجليز أن يطلبوا من الدول وضع قانون للبورصة ويقيدوا السماسرة والشركات بقيود متينة صيانة لمصالح البلاد.

وأى خلل فى المالية المصرية أكبر من الذى فضحه المستشار المالى السابق نفسه حين أعلن أن مصر خسرت ٧٠٠٠٠ جنيه فى كل مليون اشترت به أسهم الترنسفال فهل كانت تجرى هذه الأمور كلها لو كان للأمة مجلس نيابى يراقب أعمال الحكومة وكانت الحكومة مؤلفة من عناصر أهلية وليس

للأجنبى عليها سيطرة؟ ومن ذا الذى يتغنى بعد الآن بالإصلاح المالى البريطانى فى هذا القطر.

إن الذى يفاخر بزيادة الثروة وبوصول مالية الحكومة المصرية إلى مركز سام يجب عليه قبل كل شئ أن يعدد الأعمال العامة والمنافع المختلفة التى عادت على القطر من هذه الزيادة.

فهل يستطيع الإنجليز أن يدعوا أنهم رقوا الفلاحين "أصحاب الجلاليب الزرقاء" ونشروا أنوار المعارف بينهم وهم الذين سدوا أبواب المدارس فى وجوههم وقالوا لهم: "حكمنا على أولادكم بأن يكونوا فقراء تعسين وألا يتسلحوا أبدا بسلاح العلم".

هل من مفاخر العهد البريطانى أن ينفق على المجانية ابتداء من هذا العام ١٦٠٠ جنيه ليس إلا، وميزانية الحكومة بلغت خمسة عشر مليونا من الجنيهات على حين أن التعليم كان مجانا فى كافة مدارس مصر يوم لم تكن ميزانية الحكومة تزيد على المليونين؟

هل يقدر الإنجليز أن يدعوا أنهم أصلحوا الحالة الصحية فى البلاد وغيروا من معيشة الأهالى وأن مدينة العاصمة صارت نظيفة فاخرة لا يجد المتنقل فيها محلا للانتقاد فى فصل من فصول السنة؟ هل لهم أن يدعوا أنهم حموا الأطفال من الأمراض المختلفة التى تقتلهم مئات وألوفاً؟

فما فائدة الأموال التى تجمع والخزينة التى تملأ بالذهب الوهاج إذا كانت الأسوار قائمة بين الفقراء والعلم، والأحوال الصحية على أسوأ حال، والعدل مزعزع الأركان، والمصرى لا يملك فى بلاده نفوذا، ولا يسمع له صوت، والأمن مختل أى اختلال؟

الأمن العام

دعا الإنجليز حب نزع السلطة من المصريين إلى تدمير الإدارة المصرية تدميرا حقيقيا بإحلال سلطة المفتش محل سلطة المدير، فصار الأشقياء لا يخافون الحكومة لأن قوتها الحقيقية تلاشت من أمامهم، وصرنا نسمع بحوادث القتل والفتك فى كل بلد، مما أذهل الناس جميعا، وقد اضطرب المحتلون فى التشريع اضطرابا عجيبا، فتراهم يغيرون القوانين ويقلبون

المبادئ التشريعية بسرعة فائقة كأنهم يبدلون فى مواد لائحة من لوائح البوليس والمخالفات لا فى قوانين أساسية يساس بها شعب كبير، وهم اليوم يطلبون تقرير النفى الإدارى الأمر الذى أسخط الأمة كلها وأظهر فشلهم الفاضح.

وهذا خلل كبير فى إدارة شئون مصر، فإن كل بلاد حرمت قوة تشريعية حقيقية تكون خاضعة لسياسة الأهواء.

الحكومة الأهلية

لذلك قلنا إن المصريين لا يرضون بإصلاحات سطحية يعطونها ذرا للرماد فى العيون، بل إنهم لا يطمئنون على أنفسهم وبلادهم إلا إذا عادت الحكومة الأهلية بسلطتها وسطوتها ورهبتها وكانت الحكومة دستورية خاضعة لمبادئ التمدن الحديث ومستمدة قوتها من الشعب وعاملة برغائبه ممتثلة لأوامره.

وإذا كان بعض الإنجليز يرون أن ما عمل فى مصر فى الخمسة والعشرين عاما الأخيرة كافيا لتشريف إنجلترا ولائقا بمدنيتها وبما ينتظر منها، فإننا نعتقد أن إنجلترا قادرة على أن تعمل أحسن مما عملت وتحترم شرفها وعهودها وتاريخها وتقاليدها بخطة أخرى غير الخطة التى اتبعتها.

إن الإنجليز الذين يتألمون لمطالبتنا باحترام تعهدات الملكة فيكتوريا وتصريحات كبار وزرائها ينسون أن مخالفة هذه التعهدات وتلك التصريحات أشد إيلاما لهم فى الحقيقة من كل انتقاد يوجه إليهم، وأن الذين يدعوهم لاتباع سياسة العدل والمدنية إنما يدعوهم لما هو أليق بهم وبشرف دولتهم وعظمتهم.

كيف لا ومطاعن الطاعنين وشتائم الشاتمين لا تؤثر فى شرف إنجلترا وسمعتها عشر معشار ما يؤثر قول العالم المتمدن عنها إنها تعادى الوطنيين المصريين وتحاربهم لأنهم يطلبون اتباع مبادئ الوطنية وتعميم التعليم وإقامة الدستور مقام الظلم والاعتساف، وينادى بأنهم لا يرضون بحكومة الرجل الفرد سواء كان مصريا أو أجنبيا، وأن مداركهم ارتقت إلى حد أنهم يعتبرون أنهم من عائلة الشعوب المتمدنة، ويطلبون أن يعاملوا كذلك.

لذلك كان من المؤكد عندنا نجاحنا عاجلا أو آجلا، لأن الزمان يكفل النجاح لصاحب الحق على الدوام!

أعداء الحزب الوطنى والنزلاء

هذه خطتنا أيها السادة وهذه مطالبنا التى مرمى إلى تحقيقها، فهل يقول منصف عادل بأنها غير موافقة لصالح مصر والمصريين.

كلا، ولكن عصابة الكتاب الأوروبيين فى هذه الديار حملت علينا حملة شعواء، ووجهت إلينا من السباب ما لا يتصور صدوره من رجال متمدنين، ورمتنا هذه العصابة بتهم شنيعة لو كان لها نصيب من الحقيقة لكنا من المجرمين.

ولقد يتوهم البعض منا أن هؤلاء الكتاب يعبرون عن أفكار النزلاء الأوروبيين فى هذه الديار ونزعاتهم، ولكن هذا الوهم باطل، لأن أولئك النزلاء يحبون مصر على ما أعتقد، ويعترفون لها بالجميل ويرجون لها الخير ولا ينسون أنها البلاد التى لاقوا فيها الإكرام التام والحفاوة الزائدة ووجدوا تحت سمائها ما يطلبون من كسب عميم وخير وفير.

إن النزلاء الأوربيين يقدرون الوطنية حق قدرها لأنهم يحبون بلادهم حبا جما ويظهرون هذا الحب فى كل آن، فمن منا يصدق أن أولئك الذين يعيشون وفخارهم استقلال أوطانهم ويعتقد الواحد أنه راية بلاده يمثلها أنى كان وأن الاعتداء عليه اعتداء عليها يجاهدون ضد أمة تنهض مطالبة بالاستقلال وتعمل لزوال الاحتلال!

إنى أعتقد اعتقادا جازما أن لنا فى النزلاء الأوربيين أصدقاء عديدين وأن عدد أولئك الأصدقاء يزداد كلما أثبتنا لهم بالدليل والبرهان أننا نريد أن تكون مصر عضوا عاملا فى جسم الأمة المتمدنة، وأننا نطلب الاستقلال لتكون بلادنا مصدر النور والعرفان فى الشرق كله، وأننا لا نريد مطاردة أحد من الناس، بل نعد من شرف مصر وامتيازها على غيرها من البلاد أنها ترحب بكل قادم إليها وتوسع له فى ديارها غير خائفة على أبنائها من مزاحمة أو منافسة، بل مسرورة بكثرة العاملين وهمم الساعين المجدين.

تهمة الثورة

بماذا طعن الطاعنون فينا:

قالوا إننا نريد إحداث ثورة دينية فى البلاد وأنه أوعز إلينا من الأستانة بها.

وهو قول الجاهل أو المتجاهل المتعنت الذى يريد أن يحارب خصومه بكل سلاح، غذ كيف يقبل العقل السليم أو يتصور إنسان ذو لب وإدراك أن قادة الأفكار فى مصر يعملون لهدم البقية الباقية من استقلال هذه البلاد ويحزبون أوروبا بأسرها على مصر والمصريين، ألم نقل مرارا وتكرارا إن كل فتنة تحدث فى مصر لا تفيد إلا المحتلين؟ ألم نكن أول الداعين للسكينة المطالبين أبناء وطننا بأن يعملوا بعزم وهمة وصراحة ولكن مع السكينة والمحافظة على الأمن العام، ألم نجعل أساس سياستنا وقاعدة خطتنا وروح أعمالنا استخدام الوسائل السلمية لنيل حقوقنا والتمسك بالطرق القانونية دون غيرها؟

ومن الذى يستطيع أن يقول إن للاستانة منفعة فى إحداث ثورة فى مصر؟ وما الذى يدفعها إلى ذلك؟ أعداوتها للمسيحيين وأسمى وظائف الدولة فى قبضتهم؟ وماذا يكون مركز الدولة العلية لو ثارت مصر وضربتها أوروبا الضربة القاضية؟ ألا تكون هى المسئولة بالذات عن ذلك إذا صح أنها تحرض على ثورة فيها؟ أو ليس التحريض داعيا إلى المؤازرة؟ فأى مؤازرة ترضى تركيا أن تقوم لنا بها على أوروبا كلها؟

إن القائلين بذلك أعداء متعنتون أو جهلاء لا يدركون معنى ما يقولون، لأن المصرى الذى يدعو إلى فتنة أو يعمل لها يكون عدوا لبلاده، وإذا وجد فى العالم دولة تنصح للمصريين باستعمال السكينة وملازمة الحكمة والتبصر فهى الدولة العلية، لأنها بلا نزاع أشد الدول غيرة على سلامة مصر وأكثرهن فائدة من عدم ازدياد مصائبها وبلاياها.

تهمة خيانة مصر

رمانا الطاعنون أيضا بأننا نريد أن نخرج الإنجليز من مصر لنعطيها لتركيا كولاية عادية، أى أننا نريد تغيير الحاكمين لا طلب الاستقلال والحكم الذاتى.

وما هذه التهمة إلا تصريح بأن علوم الغرب وآدابه التى نقلت إلى مصر من مدة قرن من الزمان ما زادتنا إلا تمسكا بالعبودية والمذلة، وأن معرفتنا لحقوق الأمم وواجباتها لم ترشحنا إلا أن نكون عبيدا أرقاء.

فهذه التهمة هى مسبة للمدنية والمتمدنين، وقضاء على الأمة المصرية بأنها لا ترقى أبدا، ولا تبلغ مبلغ غيرها من الشعوب، لأنه إذا كان المتعلمون من أبنائها يطلبون إحلال نير محل نير واستبدال استعباد باستعباد، فكيف يطمع طامع فى تقدمها وارتقائها ووجود ضمير أهلى لها؟

إن القائلين بذلك يدعون الناس لأن يسخروا من عقولهم ومداركهم لأن الصومالى والحبشى وكافة الأمم التى هى دون الأمة المصرية بمراحل فى العلم والأدب والشعور دافعته عن استقلالها أجمل دفاع وبرهنت للعالم طرا أن حب الوطن فطرة فطر الناس عليها وأن الإنسان لا يحتاج إلى علم ولا إلى أدب ليشعر بهذا الشعور.

فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا، وعلى مسمع من أمم الأرض كلها، وأننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإنما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون.

وإذا كانت إنجلترا تسعى الآن للتقرب من الدولة العلية تغيير سياستها نحوها تغييرا محسوسا، فمن الذى يلوم المصريين على أن يكونوا أقرب الناس من تركيا قولا وفعلا وأن يحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا؟

تضييق الوطنية

قال أعداؤنا فيما قالوا: إننا ضيقو الفكر، صغار الآمال، وإننا نأبى على الذين ولدوا فى مصر واستوطنوها أن يكونوا مصريين، وهذا قول لا يقوم عليه برهان.

إننا إذا قاومنا بكل قوانا تلك الفئة التى قابلت إحسان مصر بالنكران، وأعلنت على البلاد وأهلها حربا عوانا، فإننا نميز بينها وبين بقية الشرقيين من ترك وعرب وسوريين الذين إختاروا مصر وطنا لهم وأحبوها وشاركونا فى الآلام والآمال وصاروا مصريين فعلا.

إننا نستقبل بمزيد السرور والانشراح كل راغب فى الدخول فى جنسيتنا، معترف بحقوقنا، مقدر لشرف جهادنا، عامل على بلوغ الاستقلال، لأننا نريد زيادة قوى الوطن والاستزادة من الأيدى العاملة لخيره ولنفعه ومجده وعظمته.

وإن الأمم التى تخاف دخول الغريب فيها وانتماءه إليها هى الأمم الضعيفة فى وطنيتها، المضطرب فؤادها على جامعتها، ونحن اليوم بحمد الله أمة قوية الشعور راقية الإحساس لا تخاف على وطنيتها، فليدخل فى الجنسية المصرية من أراد فإنه إن لم يزدها قوة زادته هى حمية وإقداما،وملأت قلبه بحب الحرية والاستقلال.

التعصب الدينى

قال أعداؤنا أيضا : إننا نخلط الإسلام بالوطنية، ونتكلم دائما عن المسلمين ونطلب إدخال الدين فى التعليم، وفسروا ذلك بأنه تعصب ذميم.

فكيف لا تكون إنجلترا وألمانيا متعصبتين وهما الدولتان المتمسكتان بالتعليم الدينى فى مدارسهما ونتهم نحن بالتعصب الدينى؟ لماذا يكون الإنجليزى وطنيا وبروتستانتيا فى آن واحد ولا يكون المصرى المسلم وطنيا ومسلما؟ ألا تكون الوطنية صحيحة سليمة إلا إذا قضت على الدين ومحبته؟

إلا أن الحقيقة الساطعة التى لا ريب فيها هى أن الوطنية والدين يتفقان، بل وقد يكونان متلازمين.

نحن إذا طلبنا إرشاد أمتنا إلى الحقيقة الدينية، فما ذلك إلا لأن الأضاليل والأكاذيب والخزعبلات التى راجت بين العامة باسم الدين قلبت حقيقة هذا الدين، فصار الجهل والتأخر والانحطاط وكل الآفات مما يلقى على الدين وينسب إليه والدين منه براء.

لذلك كان من المستحيل إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية، لأنه لا سبيل لإبادة جيش الباطل الذى ألف ونظم باسم الدين إلا بالدين نفسه.

فالتعليم الدينى ليس فرضا من الوجهة الدينية فحسب، بل هو كذلك أيضا من الوجهة الوطنية، لأنه لو وقف المرشد أمام الأهالى ونبههم إلى واجباتهم باسم الوطن والعلم والمصلحة وأجابه الضالون منهم بما عندهم من الاعتقادات الباطلة بأن الدين ينافى ما يقول لما قهرهم واستمالهم إلى فكره إلا إذا أثبت لهم أن الدين ليس ما اعتقدوا، بل إن الدين مخالف لتلك الخزعبلات التى آمنوا بها وأنه متفق مع العلم والوطن تمام الاتفاق.

على أن بث الحقيقة الإسلامية بين المسلمين من أكبر الأسباب الموجدة

للتسامح والتقرب من الشعوب الأخرى، إذ لا تعصب مع علم ولا نفرة مع نور ورشاد، فمن منفعة العناصر كلها أن يعرف المسلمون دينهم على حقيقته وأن تزول أوباء الجهالات والخرافات من بينهم.

تحريض المسلمين على الدول

لم يكتف الطاعنون فينا بنسبة التهم المتقدمة إلينا، بل قالوا إن الحزب الوطنى آلة فى يد ألمانيا تحركها ضد فرنسا وإنجلترا لإحداث فتنة فى البلاد الإسلامية التابعة لهما، وما قصدوا بهذه التهمة إلا جمع كلمة الدولتين ضدنا، وتنفير أصدقائنا العديدين فى أوروبا منا.

إننا نعلن للملأ كله أن الحزب الوطنى مستقل عن كل الدول والحكومات والملوك والأمراء. وأنه إنما طلب سعادة مصر واستقلالها من كل طريق يجده مساعدا على الوصول إلى الغاية، وليس هناك برهان على إفك أعدائنا أكبر وأقطع من أننا انتقدنا السياسة الألمانية مرارا وقلنا لها إن المسلمين لا يصدقون بمحبتها إلا إذا غيرت خطتها فى مصر وطلبت حل المسألة المصرية فى مؤتمر دولى كما فعلت بشأن مراكش، وشتان ما بين مصر ومراكش فى الأهمية ووفرة المصالح الأوروبية.

إن المسلمين يخدعون أنفسهم كثيرا ويسيئون إلى بلادهم حقيقة إذا اعتقدوا أن سلامتهم فى الاعتماد على دولة من الدول، وأن لهم أن يناموا على وسادة الأمان والاطمئنان إذا جاملتهم هذه الدولة بكلمة حب وانعطاف لغاية يجهلونها.

إنما سلامتهم فى أن يعملوا بأنفسهم لصيانة بلادهم وحمايتها بالعلم والعدل والنظام والدستور، فإن البلاء فى أن يكون الإسلام سلاحا بيد الجاهل الغبى يقتل باسمه البرئ من المسلمين وغير المسلمين ويخرب البلاد ويؤذى العباد قائلا: "إن هذا من عمل الإسلام".

إن الإسلام برئ من هذه الفظائع، إن الإسلام يقضى بكل قوة على هذه القبائح، الإسلام والجهل عدوان لا يتفقان، فلا إسلام بغير علم وفضل وعدل ومدنية وإنسانية، فلترفع الأمم الإسلامية التى لاتزال قادرة على حماية بلادها وصيانة استقلالها رايته، ولتعمل على اليابان فتعتمد على الجد وحده

وتطلب الحياة والسؤدد من جهودها ومساعيها لا من تعضيد دولة ورعاية حكومة أجنبية.

فإن السياسة التى تدفع بهذه الحكومة لمساعدة أمة إسلامية فى ساعة من ساعات حياتها قد تتغير بتغير الظروف والأحوال فلا تساعدها فى ساعة أخرى.

وإنه خير لمرشدى المسلمين والناصحين لهم أن يحملوا على أسباب الفشل والسقوط التى نشأت بينهم ويحاربوا الجهلاء والأغبياء منهم قبل توجيه الملام إلى الهاجمين عليهم، فإنما الجهل هو الذى دعا الأجنبى لأن يطمع فيهم، ولو نظم المسلمون بلادهم وأثبتوا للعالم أن الإسلام دين مدنية وعمران وقوة ورفعة، لما اعتدى عليه أحد ولخطب ودهم كل إنسان!

الاتحاد والعمل

أيها السادة، دعا اللورد كرومر قبل سفره جميع العناصر الأجنبية للاتحاد ضد المصريين تنفيذا لسياسة التفريق التى عمل لها طول حياته، فاسمحوا لى أن أدعوكم للاتفاق والاتحاد وإزالة كل سبب للنفور والشقاق بينكم وبين النزلاء، فإن الاتحاد هو القوة الكبرى، ولولاه ما قام الشعب فى العالم وما وجد التضامن بين أفراد الهيئة الاجتماعية.

إنه ليحزنكم كثيرا أن تجدوا المنافقين والخائنين من أبناء البلاد، وهو حال يحزن ولكنه ليس خاصا بمصر، بل هو عام فى الدنيا كلها، وإذا أحزن الوطنيين الصادقين من جهة فإنه يسرهم من جهة أخرى، لأنه يبعد العناصر الفاسدة من الحركة الوطنية ويجعلها طاهرة خالصة من كل شائبة.

فضموا صفوفكم وأجمعوا أمركم واعملوا بجد وهمة وأثبتوا للأعداء والأصدقاء أننا أحق الأمم بالدستور والاستقلال، إن الوطنية الحقة تقضى على صاحبها بأن يضحى بحياته خدمة لوطنه لو دعت الحاجة لذلك، فلنضح جميعا أحقادنا الذاتية وخصوماتنا الشخصية، ولننس عداواتنا واختلافاتنا أمام المصلحة الوطنية وأمام الوطن المقدس، لننس أشخاصنا ولنترك الطعن فى الزعامات والرئاسات ونتبع أحقرنا إذا كان على الحق، فإننا إذا نصرناه نصرنا الوطن والأمة، وإذا خذلناه خذلناهما معا.

أيها السادة! إن العالم ينظر إلى مصر وما سيكون من أمر حركتها الوطنية وإن أعداءنا يدبرون ألف تدبير لهدم دعائم هذه الحركة ومحو آثارها.

فاذكروا ذلك على الدوام ليزداد الاتفاق بيننا وليوجد الإخاء بأسمى معانيه بين صفوفنا.

إنى لأدعو كل واحد منكم للدخول فى الحزب الوطنى، حتى تتسع دائرة العمل لخدمة مصر، ويزداد المطالبون للاستقلال، الممثلون للأمة فى همتها ونخوتها واجتماع كلمتها، العاملون على إنالتها شرف الأحياء ومجد الراقين.

الفصل السادس



الإنتاج الفكرى والأدبى لمصطفى كامل

كان إنتاج مصطفى كامل الفكرى مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بجهاده الوطنى ورسالته السامية نحو تحرير بلاده من المحتل الإنجليزى الغاشم، حيث قام بتأليف وكتابة العديد من الكتب والرسائل نقوم باستعراضها سريعاً مع التركيز على كتاب «الشمس المشرقة» نظرا للرؤية العميقة التى يحتويها هذا الكتاب.

«أعجب ما كان فى الرق عند الرومان»

لقد بدأ مصطفى كامل رحلته مع الإنتاج الفكرى الموجه وهو فى السنة الأولى بمدرسة الحقوق فى عام ١٨٩٢ حيث قام بتأليف رسالة بعنوان

«أعجب ما كان فى الرق عند الرومان» وكانت الرسالة تناقش الاستعباد الرومانى للرقيق ومقارنة ذلك بالتعاليم الإسلامية الراقية .

«رواية فتح الأندلس»

فى عام ١٨٩٣ قام مصطفى كامل بكتابة رواية فتح الأندلس والتى كانت تحتوى على قصص البطولات التى قام بها المسلمون فى بلاد الأندلس، وركز الكاتب على صفات الشجاعة والإقدام والإخلاص والتى كانت سبباً مباشراً فى النصر ودخول الإسلام إلى أوروبا .

«أخطار الاحتلال البريطانى لمصر»

فى عام ١٨٩٥ قام مصطفى كامل بكتابة رسالته الأشهر مخاطر الاحتلال البريطانى والتى كانت بمثابة ناقوس الخطر الذى استخدمه لتأليب الرأى العام الاوربى على الاحتلال الإنجليزى، وقد اقتبست مدام جولييت آدم فقرات عديدة من هذه الرسالة وضمنتها فى كتابها الشهير «إنجلترا فى مصر» .

مصر والاحتلال الإنجليزى

فى عام ١٨٩٦ قام بجمع أعماله ومقالاته فى كتاب مصر والاحتلال

الإنجليزى حيث انتشرت انتشارا سريعا وحرص الناس على اقتنائها، لما تحويه من موضوعات تلهب الروح الوطنية وتحض الشعب على التحرك والعمل من أجل طرد المستعمر وذلك بنشر التعليم والثقافة والحفاظ على القواعد الأخلاقية .

كتاب المسألة الشرقية

فى عام ١٨٩٨ ظهر أهم كتاب سياسى لمصطفى كامل بعنوان كتاب المسألة الشرقية والذى يعد من أهم الكتب السياسية فى تاريخ مصر

الشمس المشرقة

فى عام ١٩٠٤ ظهر كتاب «الشمس المشرقة» وكما يقول الدكتور مصطفى رجب إن الكتاب يركز على أهم عوامل النهضة فى رأيهو وهى الحرية التى يتمتع بها اليابانيون وهذا الإيمان المطلق بدور التربية والتعليم فى التغيير الاجتماعى.

يحتوى هذا الكتاب على رؤية عميقة تجاه الإصلاح الشامل والمنشود، فإصلاح التعليم كمنظومة لا يكفى لتحقيق الهدف بل يجب أن يكون مقرونا بالتربية فالتعليم بدون تربية لا فائدة منه .

لذلك رأيت أنه من عظيم الفائدة أن أضع بين يدى القارئ أهم فصلين من هذا الكتاب بالإضافة إلى المقدمة التى كتبها مصطفى كامل فى الثانى عشر من مايو عام ١٩٠٤ .

«أحمد الله رب العالمين وأصلى على نبيه سيد المرسلين وبعد فإن أفضل ما يربى الأمم ويرشدها إلى طريق الحضارة والمدنية والرفعة شرح الأسباب التى دفعت بغيرها إلى غايات الرقى ووضعت على رأسها تاجًا من العظمة والمجد وضرب الأمثال لأبنائها بأمثالهم الذين لم تقعدهم حادثة عن النهوض ولم يملأ اليأس قلوبهم لمصاب أهلى أو خيبة وطنية، بل اعتقدوا أن لكل شعب حقًا فى الاستقلال ونصيبًا من السعادة فجدوا واجتهدوا واتحدوا وعملوا حتى نالوا هذا الحق وذلك النصيب ولقد كان البعض منا -معاشر الشرقيين -يقول ويلقن هذا القول للصغار والكبار إننا أمم انقضى دورها ودالت الأيام على مدنيتها ومحا الزمان وجودها

السياسى، وليس فى وسعها التسلح بمدنية أوروبا ومقاومتها بها، وأن لا بد لها من الاستسلام للغرب وقبول حكمه وسلطانه بلا عمل للحاضر وبغير جهاد فى سبيل المستقبل، فقامت أمة اليابان مكذبة لهذه الدعوى منادية الشرقيين أجمعين بأن طريقى الارتقاء ميسر لقصاده وأن من جد وجد وكل من سار على الدرب وصل.

تساءل الناس بدهشة وعجب من هذا الشعب الذى خرج من القبور ليزعج الأحياء بأصوات مدافعه وقنابله وحركات جنوده فى البحر والبر ومطالب سياسته وتغلبه على الدولة التى ظنت وظن العالم معها أنها لا تغلب وفوزه هذا الفوز الذى حارت فيه العقول وكادت الدنيا ترتاب فيه، وكيف أدرك هذا الشأو فى سنوات قلائل وجارى الغرب فى أمور وسبقه فى أخرى، ومن ذلك الرجل العظيم الذى سهر الليالى لإسعاده وأتعب نفسه لإعلاء شأنه وقال : "لابد لأمتى من نيل ما لم تنله أمة أخرى فى أقصر زمن" فلبت الأيام نداءه وامتثل الزمان لإرادته ورأى العالم ما رأى من سؤدد رفيع وسلطان تهتز له البحار والبلدان وشمس مشرقة تضئ العالمين.

سمعت الناس يتساءلون عن نبأ هذه الأمة الشابة فأحببت أن أقدم لهم الجواب على ما يسألون وجئت أصارح بين أيدى أبناء وطنى الأعزاء ثمرة مطالعة طويلة وبحث دقيق وأنقل لهم من أخبار هذه الأمة الصفراء ما يسهل إدراكه على الخاصة والعامة من القراء.. نعم الموضوع يستحق المؤلفات الضخمة ولكنى أظن أن فيما أتيت به الكفاية وأعتقد أن تاريخ اليابان هو خير ما يلقى على أمم الشرق من الدروس النافعة ولذلك كتبت ما كتبت مؤملاً مساعدة الحوادث فى تنبيه الغافلين وإيقاظ الراقدين وإرشاد الناشئة إلى أن : "لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة" وأنها مهما رأت من الأيام السوداء تعد للمستقبل أجمل وأكبر الأيام البيضاء إذا عملت واتحدت وعلمت أن الأمة متضامنة فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها وأن العاقل يجب أن يعمل ليأتى عمله بالثمرة المقصودة ولو فارق الحياة قبل نضجها وفاز غيره من بنى وطنه باقتطافها.

وأنه ليحلو لى أن أضع هذا الكتاب والعالم كله ينظر إلى اليابانيين نظرة استغراب وإعجاب ويعد انتصارهم الباهر وظفرهم العظيم على نهر يالو وفى

سد مدخل بورآرثر أجمل ما دونته تاريخ الحروب وأبدى فيه الرجال مهارة ودراية وتدبيرًا ونظامًا وشجاعة وإقدامًا.

وقد هدد القيصر اليابان بتأديبها مائة مرة فلم يجبه الميكادو بكلمة تهديد أو وعيد ولم يبد شيئًا من الادعاء والخيلاء بل أمر جنده بالعمل عالمًا أنه أبلغ من الكلام فعملوا وبهروا واضطر أعداؤهم قبل أصدقائهم للاعتراف بقوتهم وتمام استعدادهم وكمال درايتهم.

وما أشبه اليوم بالأمس، فقد كان " لى هونغ شانغ" وأعوانه يقولون عن اليابانيين قبل الحرب الصينية اليابانية ما شاء الحقد والغيظ ويصمونهم بكل أسماء الهجو والاحتقار حتى عرفوهم فى ساحات الوغى واعتبروا بما لاقوا من فشل وانكسار وطأطأوا الرءوس أمامهم امتثالاً وإعظامًا، وإذا استمر اليابانيون على هذه الخطة التى أعجب بها الناس تم لهم أمام الروس ما تم لهم أمام الصينيين - والفرق بين الدولتين عظيم لا يقبل الشبه والمقارنة - وكان انتصارهم على جارتهم الصفراء دون فوزهم على جارتهم البيضاء بكثير، على أنه لو لم يبلغوا فى هذه الحرب أكثر مما بلغوا لحق لهم الافتخار والمباهاة.

والله أسأل أن ينتفع قومى بهذه الموعظة البالغة ويحقق آمالى ويرينى من همم رجال الأعمال ما يزيدنى ثقة بأى بلادى ما ترجو من حياة عالية ومجد واستقلال.

مصر فى ١٢ مايو سنة ١٩٠٤

مصطفى كامل

وتلك مقدمة أول كتاب ألفه مصطفى كامل بعنوان : «الشمس المشرقة» .

بأى قلم يكتب المصرى عن أمة كانت فى عداد الأموات يوم كان قومه فى الصف الأول من الأحياء تعجب الدنيا بهم ويتفاخر الشرقيون بأعمالهم وترهب الأعداء جيوشهم وأساطيلهم، بل كيف يستطيع المقارنة بينهم وبيننا وقد كنا نراها عارًا فأصبحوا يرونها شنارًا، وكنا ندعو الشرق للاقتداء بنا فقاموا يدعونه للسخرية منا، وليس بعجيب أن يقف المصرى موقف الحيرة إذا أراد المقارنة بين أمتين إحداهما حليفة انجلترا والأخرى مفترسة بين أنيابها، الأولى تضرب الروس وتنافس أكبر الممالك، والثانية لم تكتف بما أصابها من ويل وبلاء بل انقسمت على نفسها وضرب اليأس على قلوب الكثيرين من أبنائها، وأنى للكاتب أن يقارن والمقارنة لا تكون بين الصاعد والنازل، والمتقدم والمتأخر، والحاكم والمحكوم، والساند والمسنود، والغالب والمغلوب، والشمس المشرقة، والشمس التى غربت :

وهل يجد المصرى تسلية فى الرجوع إلى الماضى المجيد ليعرف الفرق بين ما كنا عليه وما كانوا فيه ؟ أو ليس فى هذا البحث منتهى الإيلام للفؤاد والوجدان السليم ؟

نعم تذكرنى هذه الأساطيل اليابانية التى تجوب البحار وتتصرف فى مملكة الماء تصرف ابن السماء فى رعاياه التعساء بذلك الأسطول الفخيم الذى كان لمصر فى أوائل القرن الماضى.

وأرى فى هذا الجيش الأصفر الذى أذاق الروس مر العذاب وسقاهم كئوس الموت الزؤام صورة جنود حالفها النصر السنين والأعوام ودخل تحت رايتها القاصى والدانى من شعوب الأنام، ولكن ما أشد وقع هذه الذكرى على النفس وما أكبر هموم ذى الإحساس والشعور ؟

إنى كما أرى فى التاريخ العبر والأمثال والمرهم لجراح الأمم أرى فيه شقاء الذين تولعوا بالمجد والاستقلال، وقضى عليهم أن يعيشوا فى زمن الاحتلال والانحلال، وما مراجعة ذلك الماضى المجيد إلا كرد الحياة لمحمد على الكبير ليرى بعينى رأسه فى أى حال صارت مصر وأى مقام أدرك اليابانيون، ألا تراه أشقى الناس جميعًا لو ترك اليوم قبره وهجر عالم الأموات ليبصر ما

نبصر ويشهد ما نشهد، وتشوهت لديه مصر وقد تركها جميلة قادرة تعشقها الدنيا ولا يستطيع الدنو منها إنسان.

كأن قنال السويس لم يفتح إلا ليؤذن بضياع مصر وعظمة اليابان فقد كان عام ١٨٦٩ خاتمة الحياة الكبيرة فى مصر ومبدؤها فى بلاد الميكادو، ومنه أخذت إنجلترا تدبر الاستيلاء على بلادنا الأسيفة لأنها وفى قبضتها جبل طارق وبوغاز باب المندب لم تر أبدًا من وضع يدها على هذا الطريق الحيوى لها، ولو كان لرجالنا عقول تدبر ومدارك ترشد لما فتحوا القنال أو لما ناموا بعد فتحه وأتوا بكل ما يساعد الإنجليز على بلوغ أمنيتهم وتحقيق أعز أحلامهم، ومن ذلك التاريخ أخذت اليابان تخطو فى طريق التقدم حتى وصلت إلى ما نراها عليه وهوينا نحن إلى ما يملأ القلب حزنًا وغمًا.

ولو بحثنا بحث إنصاف واعتدال فى الأسباب التى قضت علينا لوجدناها فى استعمال الحكام والأمراء للسلطة المطلقة استعمال جنون واستبداد واستخدامها لأهوائهم النفسانية ومطامعهم الشخصية وإماتتهم الشهامة فى الأمة وقتلهم لكل إرادة فيها وإدخالهم الاعتقاد فى نفوس أبنائها بأنهم ضعاف عاجزون لا حول لهم ولا قوة وأنهم متاع للحاكم يلعب به متى شاء ويبيعه إن أراد، وهكذا السلطة المطلقة إذا ضلت تخرب فى يوم واحد ما يعمر فى قرون، وبالعكس إذا وجهت للخير تبنى فى يوم ما لا تبنيه حكومات الدستور فى سنين وأعوام.

وكما أنها فى الحالة الأولى أضاعت مصر وجرت عليها الوبال فإنها نهضت باليابان فى الحالة الثانية نهضة لم ير التاريخ لها مثيلاً، ولم تسمع الأمم بما يحاكيها من قبل، فقد وفق الله لهذه الأمة السعيدة رجلاً لم يعتبر حق الملك والسيادة قوة سحق وإبادة، بل نظر إليه نظرة صائبة، وعرف أنه يجب أن يكون مصدر الخير والسعادة، وأن أمة كاملة وضعت ثقتها فيه وأجمعت على محبته والخضوع لإشارته والامتثال لإرادته لجديرة بأن تنال منه النفع العميم والخير الوفير والإصلاح المستمر والحرية المنعشة للقلوب المنمية للقوى والدستور الذى يكفل للأمة بقاء هذه الحرية.

ومما لا يحتاج لبرهان أنه لابد للأمم من صفات مخصوصة للمحافظة على كيانها واستقلالها والسير إلى الأمام فى سبيل التقدم والارتقاء وأهم

هذه الصفات الشهامة وحسن اعتقاد الأمة فى نفسها، وقد توفرت هاتان الصفتان فى الأمة اليابانية توفرًا كاملاً فلا يفوقها شعب فى الجرأة والإقدام وتضحية النفس حبًا فى الشرف الذاتى أو الشرف العام، وبلغ حسن اعتقادها بنفسها أنها لم ترض أن تكون أصولها إنسانية، فانتسبت للآلهة وتفننت فى مفاخرها ومجدها حتى صار اليابانى لا يرى على وجه الأرض أفضل منه إنسانًا.

وعندى أن هاتين الصفتين هما اللتان حفظتا الأمة التركمية إلى اليوم رغمًا عن الحوادث العديدة التى لو لحقت بغيرها من الأمم لقضى عليها من زمان، وهما إما فطريتان فى الشعوب أو مكتسبتان، ومن يقول: إن من الأمم من تولد جبانة ذليلة وتموت كذلك ولا يصلحها التعليم ولا يغير أخلاقها ومخطئ فكما أن سلالة الزنجى تتغير بعد سنوات معدودة وتصير بيضاء إذا تغلب دم البيض على دمه، فإن الأمة التى تربى على الشهامة ورفعة النفس والفضائل تكسب مع مرور الزمان هذه المزايا وتصير خالدة فيها.

وبديهى أن مصلحة الحكام الظالمين تقتضى دائمًا قتل عواطف الشهامة والهمة والشعور الراقى فى الأمم لأنهم يريدون أن يحكموا قطيعًا من الأغنام فى صورة الإنسان لا أمة ذات شمم وإرادة، ومحال على من يعمل لارتقاء أمته أن يهمل الأخلاق، فإن حياة الأمم بها والمنفعة الكبرى للتاريخ هى إقناع الناس بأنهم لم يكونوا جبناء من يوم مولدهم وأن رضوخهم للظلم جاء لأسباب عارضة قهرية وأن محو هذه الصخائب السوداء من ماضى أمة ميسور إذا ابيضت صحائف الحال والاستقبال.

ولست مبالغًا إذا قلت: إن تاريخ الأمة المصرية يساعد المرشدين والوعاظ وقادة الأفكار أكثر من تاريخ غيرها من الأمم على إحياء العواطف العالية فيها وإزالة اعتقاد السوء الذى توارثته مدة من الدهر طويلة وإرشادها إلى مهمتها السامية بين شعوب الشرق والإسلام ووظيفتها فى هذا العالم وإذا جاء يوم يفتخر المصرى فيه بأنه مصرى ويقبل الموت حبًا فى مصر طائعًا فرحًا فبشر أهل هذه الديار بكل ما يبتغون من سيادة وعظمة واستقلال.

لما انتهت الحرب بين الصين واليابان منذ عشر سنوات وظهرت دولة الميكادو بمظهر القوة والعلم والرقى كتب أحد أكابر الكتاب الروسيين فى مجلة روسية مقالة على اليابانيين قابل فيها بينهم وبين المصريين ونقلتها

إحدى الصحف الفرنساوية فرسخت فى ذهنى إلى اليوم وكلما تذكرتها تألمت أشد الألم، فقد قال الكاتب فيها :

" لقد كنت فى باريس من عام ١٨٧٥ إلى عام ١٨٧٧ واختلطت كثيرًا بالطلبة اليابانيين والمصريين وكنت أميل إلى الآخرين ميلا كبيرًا لأنى كنت كلما زرت أصدقائى منهم طافوا بى على القهاوى ونوادى السرور وجلبوا لنفسى من الأفراح غايتها بخلاف اليابانيين فإنهم كانوا لا يحدثوننى إذا اجتمعت بهم إلا باختراع جديد أو مؤلف حديث، وإذا خرجت معهم كنت لا أخرج إلا إلى مجتمع علمى أو مكتبة كبرى أو لسماع خطاب سياسى أو أدبى، وكنت فى الحقيقة أسأم مقابلة أولئك " الضئال النحاف" وأفضل أحبائى المصريين عليهم، ولكنى رأيت اليوم ما لم أره يومئيذ : رأيت أن هؤلاء صاروا تحت حكم الإنجليز وأولئك سادة الشرق الأقصى.

وإنى لا أنكر على المصريين ذكاءهم وكفاءتهم ولكنهم كانوا عارفين أنهم يتعلمون ليكونوا آلات للحاكم، وأن ميدان الشهرة والمكسب ضيق أمامهم وأن الأوروبى يفضل عليهم فى بلادهم مهما فاقوه علما واستعدادًا بخلاف اليابانيين فإنهم كانوا واثقين بأنهم يتعلمون ليقودوا أمتهم ويغلبوا الأوروبيين وينالوا السيادة على الصفر والبيض معا، والسبب مع هذا واضح فى خمود همم المصريين مع ما هم مشهورون به من الذكاء الباهر، وفى نشاط اليابانيين وتشوفهم لمعرفة كل جديد واكتشاف كل سر مكنون.

ويا حبذا لو ذكر الكاتب نفسه وقومه بهذه الحقيقة الآن وقال إنه لم يكن يدور فى خلده يوم كان يخالط أولئك اليابانيين "الضئال النحاف" أنهم سيضربون دولته الضخمة الهائلة ضربات مؤلمات وأنهم يأتون فى خمسة وثلاثين عامًا بما لم تأت به الروسيا فى قرون وأجيال وأن لا وجود للأمم بغير الوطنية والحرية، وأنه لا قوة للأولى بغير الثانية ولا حياة للثانية بغير الأولى، وأن الحرب الحاضرة هى أكبر عبرة تعلم الأمم التى لا تزال متأخرة فى طريق الحضارة والعمران أن الدستور العادل هو سياج الممالیك والدول وأن شعبًا ينمو فى ظله ويرقى تحت لواء الوطنية العالية يفوز على سواه مهما كان قليل العدد وكان منافسة كبيرًا.

وأى منظر أفخم وأسمى مما يراه العالم الآن.. أمة تبلغ ٤٩ مليونًا من

النفوس متحدة الكلمة مجتمعة الرأى متفقة الإحساس والشعور ملتفة حول عرش الميكادو لإعلاء شأن بلادها وقهر أعدائها ونصرة جنسها وحقوقها فكيف قامت بهذه المعجزة الباهرة ؟ أليس لأن الوطنية روحها الذى دبت بين كبارها وصغارها ورجالها ونسائها وأغنيائها وفقرائها.. لأن هذه الروح الطاهرة تنمو فيها بفضل الحرية والمساواة والدستور ؟.

نعم، يجيب على ذلك الكاتب الروسى وغيره من كتاب العالم وساسته ورجال النظر فيه، أن يعجبوا من أمر هذا الشعب الذى أثبت قواد جنده فى البر والبحر أنهم أقدر الناس على المهارة وسرعة الحركات وحسن التدبير والمناورات مع أنهم أبناء الأمس، لا تقاليد لديهم ولا تاريخ للحرية والبحرية عندهم بخلاف أعدائهم فقد مضت القرون وهم يقودون الجند برًا وبحرًا ويتمرنون فى ساحات القتال.

إن ثقة الأمة بنفسها وانطلاقها من قيود الذل والاستعباد وتفانيها فى سيادة الوطن وعظمته، تفعل ما لا تفعله قوى الأرض كلها، فذلك الزارع اليابانى الذى يحرث غيطة ليعيش هو وأهله ويقوم بواجب الضريبة لحكومته ليس بأقل إحساسًا من القائد العظيم الذى يزحزح الروس عن مواقعهم ويلبس النساء والأطفال فى الروسيا ثياب الحداد، وتلك المرأة اليابانية التى تخون زوجها الروسى لخدمة وطنها وتكشف أسراره لتقدمها لحكومتها ليس دون "ترجو" ومن معه وطنية وشعورًا فالكل سواء فى سمو الإحساس والأميال والكل نفس واحدة فى حب اليابان وتقديسها والعمل لتشريفها، وما هذه الأفعال المدهشة التى قام بها الميكادو ورجاله فى زمن قصير إلا ثمرة ذلك الشعور الحى ألا وهو الوطنية.

فيا من تعجبون بالأمة اليابانية وتعظمونها فى الصباح والمساء قفوا قليلاً ومجدوا تلك الروح التى أفاضت عليها السعادة والسيادة ودلوا الشعوب الغافلة عليها لعلها تقوم من رقادها وتهتدى إليها نتبلغ كل أو بعض ما بلغت اليابان.

ما انتشب القتال بين دولتى الميكادو والقيصر حتى اختلف الناس فى مشارق الأرض ومغاربها وافترقوا فرقتين : هذه مع الروس وتلك مع اليابانيين تقول الأولى إنى أنتصر للصليب وأرجو فوزه ويعلل بعض أفرادها

ممن لا دين لهم سبب ميلهم لدولة القياصرة، بأن نصرة اليابان تكون خطرًا عامًا على الجنس الأبيض لأنها تعجل بالخطر الأصفر وقال نصراء اليابان أقوالاً كثيرة كلها معقولة مقبولة طبيعية كما سترى، وقد أبدى خاصة المصريين وعامتهم قبل إعلان الحرب وبعده ميلهم الشديد لليابانيين ورأى عقلاؤهم هذا الميل دليلاً قاطعًا على ارتقاء فى الشعور وقوة فى الإدراك والتمييز لأنهم انتصروا لعدو الروسيا التى طالما اعتدت على بلاد المسلمين وكانت يدها أول يد حركها الصليب لتجزئة دولة آل عثمان وسلخ أهم بلادها منها ولا شك أن ارتقاء الشعورى الإسلامى إلى هذا الحد يفيد أن المسلمين أدركوا أنهم متضامنون فى كل أمر مهما بعدت الديار وأنه لو نطقت عظام أولئك المجاهدين الأبطال الذين ذهبوا ضحية الحروب التى أثارتها الروسيا على المسلمين والإسلام لأتت أطيب ثناء على اليابانيين الذين دوخوا العدوة القديمة للدولة العلية ولعل الروس أنفسهم يجدون هذا الشعور طبيعيًا كما أن الذين ينتصرون لهم لجامعة الدين لا يرون فيه شيئًا من الغرابة وقد علمونا كيف تكون العواطف والأميال.. وهناك أسباب أخرى غير هذا السبب الطبيعى لميل المصريين لدولة اليابان فإنها دولة شرقية نالت من القوة والارتقاء ما لم تنله دولة أخرى فى الشرق وقيامها لإيقاف الغرب عند حده، فضلا عن أنها راقية حرة دستورية، وكل نفس عالية تميل بالطبع للكمال ومن يتمسك بأذياله، وكيف لا يميل الإنسان لقوم يقول الخطيب فيهم ما شاء أن يقول ويكتب الكاتب ما أراد أن يكتب ويرى الحقير منهم نفسه أخًا لأعظم عظيم أمام القانون وكيف لا ينتصر لهم على قوم ضاقت الحياة بينهم فى وجه رجال مثل "تولستوى" كان يجب أن يعظمه الحكام قبل المحكومين.. ومن جهة أخرى فإننا لو نظرنا إلى الحق الصرف والعدل الصحيح نرى اليابانيين محقين فى مطالبهم لأن الروسيا لم تكتف بسعة بلادها وكبر ممتلكتها التى تغنيها عن كل استعمار، بل طوحت بنفسها فى الشق الأقصى وجارت بقية الدول فى تحقير الأجناس الأخرى من بنى الإنسان وتقدمت هى وفرنسا وألمانيا فى عام ١٨٩٥ إلى اليابان وأخرجتها من بور آرثر وكوريا وغيرهما من المواقع التى تنازلت لها الصين عنها بمقتضى معاهدة الصلح التى أبرمت عقب حربها معها، ثم ما لبثت الروسيا أن احتلتها دون أن تضحى بنقطة واحدة من دم جنودها، فكيف لا تسخط اليابان عليها وتحاربها ألف مرة ؟

فضلا عن أن مجاورتها لها خطر حقيقى عليها لابد لها من دفعه الآن قبل استفحاله.

وإذا صح ما يقوله بعض كتاب أوروبا من أن انتصار اليابان يحدث انقلابًا عامًا فى الشرق الأقصى ويبعث فى الأمم الصفراء روحًا جديدة ويجمع أمرها ويوحد كلمتها ويوجهها إلى طريق الجد والعمل فإننا نبتهج لتحقيق هذه القضية لأن فى الصين سبعين مليونًا من المسلمين ينعش تقدمهم قلوب الأمم الإسلامية ويجدد للإسلام حياة كبرى فى الشرق الأقصى.

ولو كان الأوروبيون صادقين فى دعواهم وقولهم إنهم يريدون تمدين النوع النوع البشرى بأسره وإنهم لا يدخلون بلادًا إلا للأخذ بأيدى أهلها وتسييرهم فى طريق الحضارة والمدنية لسروا بما ينتظرونه من تقدم الجنس الأصفر وارتقائه وفرحوا باليابان وتقدمها وعدوها أكبر عامل من عمال المدنية والإنسانية، ولكن الحقيقة والواقع أن التنافس لا يزال القانون العام فى النوع البشرى، وهو يقضى بأن يعمل كل واحد لخذلان منافسه وتأخره، فلا الأوروبيون يرجون تقدم الشرقيين ولا الشرقيون يحبون دوام سيادة الأوروبيين وصاحب القوة لا يحكم ويفاخر الناس بقوته إلا إذا كانوا أضعف منه وإلا إذا تعادلت القوى تعادلت السيادة وذهب عهد الحاكمين والفاتحين ورأى الفلاسفة ما حلموا به من أول الخليقة سعادة النوع الإنسانى كله فالمنتصرون لليابان ينتصرون للحق والعدل والتقدم والوطنية ويثبتون ارتقاء شعورهم بميلهم للدولة الشرقية التى ألقت على العاملين أفضل دروس الجد والاجتهاد والعمل والاتحاد.

الإدارة والقضاء

كانت اليابان مقسمة قبل عام ١٨٦٨ إلى ثلاثمائة قسم أو "هان" على رأس كل واحد منها حاكم يسمى "داميو" يخضع لسلطة الشجن بصفته نائبًا عن الميكادو، فلما ألغيت حكومة الأشراف والالتزامات وتنازل أولئك الحكام عن حقوقهم القديمة قسمت البلاد إلى أقاليم أو "كن"، وجعل عددها فى بادئ الأمر ٦٨ ثم صار الآن ٤٣ واختصت مدائن طوكيو وأوزاكا بنظام خاص لغاية عام ١٨٩٨ ثم خضعت بعد ذلك التاريخ للنظام العام.

ويحكم كل إقليم مدير يختاره ناظر الداخلية ويشاركه فى السلطة مجلس من الموظفين وفى كل إقليم جمعية منتخبة من الأهالى للنظر فى مصالحهم وتنبيه المدير والمجلس إلى ما يجب القيام به من الأعمال النافعة.

وتقسم الأقاليم إلى "شى" أو مدائن و "جن" أو مقاطعات زراعية وهذه مقسمة إلى "تشو" أو مدائن صغرى و "سون" أو قرى ويقوم بإدارة المقاطعات الزراعية وكيل للمدير.

والفرق بين المدينة والمدينة الصغرى أن عدد سكان الأولى يتجاوز ٢٥٠٠٠ نفس وهى متمتعة باستقلال أكبر وأوسع من الثانية ولناظر الداخلية أن يحرم أى مدينة من الحصول على هذه الصفة وأن يعتبرها مدينة صغرى.

وفى كل مدينة مجلسان المجلس التنفيذى والمجلس البلدى، ويؤلف الأول من عمدة ووكيل ومستشارين، ويتكون الثانى من مندوبين ينتخبهم الأهالى، والعمدة هو موظف له مرتب من الحكومة.. يعينه الميكادو لمدة ست سنوات ويختاره من ثلاثة ينتخبهم المجلس البلدى.. ووكيل العمدة هو موظف أيضًا يعينه مدير الإقليم لمدة ست سنوات بناء على طلب المجلس البلدى.

أما أعضاء المجلس التنفيذى فهم منتخبون من الأهالى البالغين من العمر ثلاثين سنة فأكثر وهم يقومون بأعمالهم بلا مقابل.

وقد قضى النظام الإدارى فى اليابان أن يؤلف المجلس البلدى فى كل مدينة يبلغ عددها خمسين ألف نفس من ٣٠ عضوًا وأن يزاد عدد الأعضاء إلى ٣٦ إذا كان سكان المدينة بين خمسين ألفًا ومائة ألف، وأن ينتخب ثلاثة أعضاء عن كل خمسين ألف نفس إذا جاوز عدد المدينة مائة ألف شخص أى أن المجلس البلدى يكون مؤلفًا من ٣٩ عضوًا إذا كان سكان المدينة ١٥٠٠٠٠ شخص، ومن ٤٢ إذا كانوا ٢٠٠٠٠٠. وهكذا ولكى يكون الإنسان منتخِبًا (بالكسر) يجب أن يكون بالغا من العمر خمسة وعشرين عامًا فأكثر ومقيمًا فى المدينة منذ عامين وممتعًا بكافة الحقوق السياسية وأن يدفع من الضرائب ما لا يقل عن ٢ ين " أى ٢٠قرشًا " فى العام، وقد قرر القانون الإدارى اليابانى منح حق الانتخاب للنساء والشركات التجارية إذا كانت واحدة من ثلاث هى أكثر من يدفع الضرائب بين الأهالى.

ويصح انتخاب أى إنسان للمجلس البلدى ما دام متمتعًا بالحقوق السياسية

وبالغًا من العمر خمسًا وعشرين سنة فأكثر ولا يشترط قيام المنتخب "بالفتح" بدفع ضريبة ما.

ولا ينتقد أعضاء المجلس البلدى شيئًا على خدمتهم وينتخبون لمدة ست سنوات ويجدد انتخاب نصفهم كل ثلاث سنوات، وفى أول كل عام ينتخب أعضاء المجلس البلدى منهم رئيسًا ووكيلاً لمدة سنة، ويجوز لكل واحد من الأهالى أن يحضر اجتماعات المجالس البلدية لأنها علنية وفى المدائن الصغرى والقرى يتولى العمدة رئاسة المجلس البلدى، واختصاصات المجالس البلدية فى اليابان هى كاختصاصاتها فى بقية البلاد المتمدنة لا يعمل عمل إلا بأمرها ولا يصرف درهم واحد بغير إرادتها.

وللموظفين فى اليابان شأن كبير واحترام عظيم خصوصًا الحائزين منهم لألقاب الشرف أو الذين تعلموا فى أوروبا وقد قدمنا أن الميكادو قلد الغرب فى إيجاد لقب برنس أو "دوق" ومركيز وكونت وفيكونت وبارون، والذى أشار عليه بوضع هذه الألقاب هو المركيز إيتو، وقد صدر الأمر بها فى عام ١٨٨٤، وتقرر من ذلك الوقت صرف مرتب سنوى من خزينة الميكادو لأصحابها وتقييدهم بقيود مخصوصة، منها أنه لا يسمح لأحد منهم بالزواج بغير إذن إمبراطورى.

ومع أن الأفكار الحرة والمبادئ العصرية نمت فى اليابان وأينعت فإن الأمة لا تزال منقسمة إلى ثلاثة أقسام، كبار الأشراف أو "كوازوكو" وصغار الأشراف أو "شيزوكو" وهم من الساموراى وعامة الشعب أو "هيمين" واحترام كل طبقة للأرفع منها كبير، وقد بلغ فى عام ١٩٠٠ عدد عائلات كبار الأشراف ٧٠٦ ، وعدد عائلات صغار الأشراف ٤٣٩٣٨٤، ومجموع أفراد الأولى ٣٨٤٥ والثانية ١٦٦٦٣٠١ من الأشخاص.

كانت القوانين اليابانية فى الأزمان الغابرة غير مكتوبة يحفظها كبار العائلات ويعرفها ذوو المقامات حتى قام البرنس "شوتوكو" فى عام ٦٠٤ بعد المسيح بوضع "السبعة عشر قانونًا الأساسية" وفى سنة ١٢٣٢ وضع الشجن "هوجو" دستوره الذى اتبعته اليابان حينًا من الدهر طويلاً ثم جمع " يوشى متسو " فى سنة ١٧١٦ فى كتاب واحد الأوامر العالية والقوانين التى أصدرها كل شجن تولى، وفى سنة ١٧٤٢ ظهر قانون عائلة "توكوجاوا" باسم "المائة

مادة لعائلة توكوجاوا" وهذه المواد كانت خاصة بالمسائل الجنائية ولم يوزع القانون إلا على الوزراء والقضاة لأن قاعدة هذه العائلة فى الحكم كانت " يجب أن لا يعلم الشعب بالقانون بل يطيع طاعة عمياء".

ولما خرجت اليابان من عزلتها وقامت من رقادها ونهضت طالبة نصيبها من مجد الحياة وعزها، أوفدت إلى باريس سبعة من موظفى نظارة العدالة لدراسة الشرائع الفرنساوية وكلفت المسيو "بواسوناد" المدرس بكلية الحقوق بباريس بإلقاء خطب عليهم فى القانونين النظامى والتجارى، ثم رأت وجوب استدعائه إلى بلادها للانتفاع بعمله وفضله وقد اهتم اليابانيون اهتمامًا فائقًا بتنظيم العدالة فى المملكة وجعلها سائرة على أتم نظام حتى يعم العمران وتقتنع أوروبا بأن اليابان صارت دولة متمدنة كبقية الدول وتزيل تلك القيود الثقيلة قيود الامتيازات الأجنبية ولم يهدأ للساسة اليابانيين بال حتى بلغت محاكم بلادهم غاية الرقى وضارعت المحاكم الأوروبية ومحيت تلك القيود ودخلت دولتهم فى عائلة الدول المتمدنة الراقية.

وكان أول ما وجهت الحكومة اليابانية عنايتها إليه وضع قانون العقوبات لأنه الكافل للأمن والسلام والأرواح، فأصدرت عقب ثورة عام ١٨٦٨ منشورًا باتباع قانون عائلة "توكوجاوا" لحين صدور غيره ثم حورته ونشرته "قانونًا جنائيًا مؤقتًا"، وفى سنة ١٨٧١ أصدرت قانونًا جديدًا مشتملاً على ستة أجزاء ألفته من القوانين القديمة والصينية بعد أن خففت من شدة أحكامها، وبعد عامين من نشره واتباعه أظهرت "قانونًا معدلا" مشتملاً على عقوبات لم تذكر فى القانون السابق ومخففًا شدة بعض الأحكام.

ولم تكتف بل رأت من الضرورى وضع قوانين ملائمة للمدنية العصرية التى أخذت تدخلها فى بلادها وكلفت المسيو "بواسوناد" فى عام ١٨٧٤ بوضع مشروع لقانون العقوبات وآخر لتحقيق الجنايات.

وقد قام رجلان فى هذا الانقلاب القضائى العظيم بخدمة اليابان خدمة كبيرة وهما المركيز إيتو والمسيو "أوغى تاكتو" وزير العدالة، فإنهما كانا على الدوام المشرفين على وضع القوانين وتنقيحها المراقبين لأعمال اللجان.

وما شرع المسيو "بواسوناد" فى القيام بما عهدته الحكومة إليه حتى أصدر المسيو "أوغى تاكانو" أمرًا بإنشاء لجنة مؤلفة من رجال التشريع تحت رئاسته

للنظر فيما يضعه واستمرت اللجنة منعقدة والمسيو بواسوناد يحضر جلساتها من سبتمبر عام ١٨٧٥ لغاية يوليه عام ١٨٧٧ وبعد انتهائها من أعمالها قدمت المشروعين للحكومة فرأت وجوب عرضها على لجنة أخرى أكبر من الأولى وبعد تعديل وتغيير وتحوير طبع القانونان فى عام ١٨٨٠ وصدر أمر الميكادو باعتبارهما نافذى المفعول من أول يناير عام ١٨٨٢.

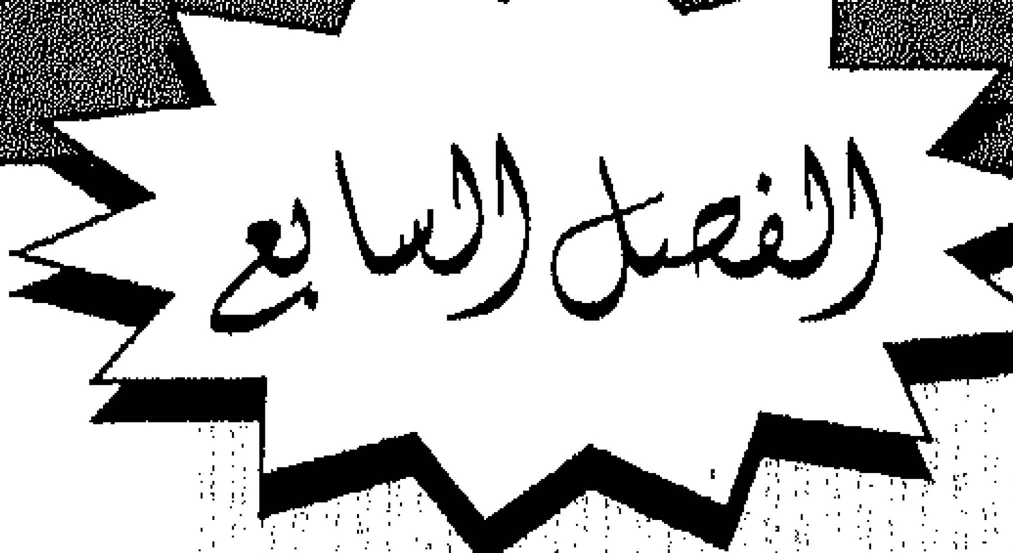
وما إن اطمأنت الحكومة اليابانية باتمام قانونى العقوبات والجنايات حتى كلفت المسيو "بواسوناد"فى عام ١٨٧٩ بوضع مشروع للقانون المدنى وآخر للمرافعات المدنية وعينت لمناقشة موادهما أولاً بأول لجنة من رؤساء محاكم طوكيو وبعض موظفى نظارة الحقانية، واستمرت هذه اللجنة تعمل بجد واهتمام حتى تم وضع القانونين وعرضا على لجنة أخرى من بعض أعضاء اللجنة الأولى ومن بعض الشيوخ وأعضاء مجلس الحكومة وأعضاء مجلس التشريع العام، فأدخلت فيها تعديلاً يناسب حالة البلاد واحتياجاتها ثم أرسلتهما إلى رئيس الوزارة وبعد أن بحث مجلس الوزراء فيهما ومجلس الشيوخ والمجلس الخاص أصدر الإمبراطور أمرًا بهما فى عام ١٨٩٠ وباعتبارهما نافذى المفعول من أول يناير عام ١٨٩٣.

والتفتت الحكومة كذلك فى عام ١٨٨١ إلى وجوب وضع قانون تجارى لأن القانون اليابانى القديم كان لا يميز بين القوانين المدنية والتجارية فألفت لجنة لهذا الغرض من الموظفين الواقفين على المسائل التجارية وكلفت المسيو "هرمان روسلر" المشرع الألمانى الشهير بوضع مشروع لذلك القانون فقام بهذا العمل أحسن قيام وبعد أن أتمت اللجنة النظر فيه وتنقيحه عرضته الحكومة على لجنة أخرى، ثم على مجلس الشيوخ وأصدر الميكادو به أمرًا فى ٢٧ من مارس عام ١٨٩٠ وقرر العمل به من أول يناير سنة ١٨٩١ أى قبل تنفيذ القانون المدنى بعامين، ولكن مجلس النواب أقر فى أول اجتماع له تأجيل اتباعه لغاية أول يناير سنة ١٨٩٣ لتكون القوانين كلها نافذة المفعول مرة واحدة ثم عاد فى سنة ١٨٩٢ وقرر بالاتفاق مع مجلس الأشراف تأجيل تنفيذ القوانين الجديدة إلى أول سنة ١٨٩٧ فاحتج الوزراء على هذا القرار احتجاجًا شديدًا وأشاروا على الميكادو بعدم الموافقة عليه، ولكنه احترم إرادة النواب وكان ما قرروا.

ورأت الحكومة عندئذ من مصلحة البلاد الانتفاع بهذه الفترة لتنقيح القوانين تنقيحًا تامًا فأنشأت فى عام ١٨٩٣ لجنة تحت رئاسة المركيز إيتو للقيام بهذا الغرض فنقحت فعلاً المواد الكثيرة وما دخل عام ١٨٩٧ حتى نفذت القوانين الجديدة وسارت المحاكم على النظام الحديث واعترف الأوروبيون بأن الشريعة اليابانية قريبة من شرائعهم وأنها موافقة لحاجات البلاد ومصالحها، ملائمة للمدنية ومطالبها.

والمحاكم مقسمة هناك إلى درجات ففى اليابان ٢٩٩ محكمة جزئية لقضايا الصلح والمخالفات موزعة بين المدن والقرى و ٤٨ محكمة ابتدائية للنظر فى قضايا الجنح وجميع القضايا المدنية ولتحقيق القضايا الجنائية و ٧ محاكم استئنافية للنظر فى استئناف الجنح والقضايا المدنية، وفى كل ثلاثة أشهر تؤلف محاكم للجنايات فى محاكم الاستئناف وفى المحاكم الابتدائية أحيانًا وهى مكونة من رئيس وأربعة قضاة يختارون من قضاة محاكم أول وثانى درجة.

وقد أنشئت فى عام ١٨٧٥ بطوكيو محكمة للنقض والإبرام وهى تنظر فى القضايا المدنية والجنائية على السواء والقضاة فى اليابان غير قابلين للعزل اللهم إلا إذا صدرت منه أعمال تستحق الأحكام التأديبية أو الجنائية وهم يعولون فى نظر القضايا وإصدار الأحكام على النتائج التى يقدمها المحامون ويجرون فى ذلك على خطة الرومانيين وقدماء المصريين الذين كانوا يخافون تأثير البلاغة والبيان على عقول القضاة.





الخديوى عباس الثانى

التوحد والتوتر والقطيعة

كان فى الثامنة عشرة من عمره حينما جلس على مسند الخديوية حاكما لمصر المحروسة خلفا للخديوى توفيق وكان ذلك فى عام ١٨٩٢، وكانت الظروف المحيطة بمصر غاية فى الصعوبة.. حيث كان الاحتلال الإنجليزى قد مر عليه عشر سنوات سيطر فيها الإنجليز على مجمل الأمور السياسية والاقتصادية والتعليمية والحياتية للشعب المصرى.

لقد بدأ الحاكم الشاب سنوات حكمه بسيادة وهمية أو منقوصة على أفضل تقدير، وكان الخديوى عباس شاباً شجاعاً جريئاً وطنياً وكانت آماله وطموحاته بلا حدود فى تحقيق الاستقلال وإجلاء الإنجليز عن مصر، فى هذه الأثناء كان هناك الزعيم الشاب مصطفى كامل الذى يحمل على كاهله علم الجهاد والنضال والكفاح ويجمع حوله الجماهير خطيباً وكاتباً وداعية للحرية والاستقلال، لقد كان الرجلان ـ الأمير والزعيم ـ يسيران فى نفس الطريق ويؤمنون بنفس الهدف.. إذن لماذا لا يلتقيان ويعضد كلاهما الآخر؟ كان من الطبيعى والمنطقى أن يكون الرجلان فى خندق واحد، لقد بدأت رحلة الكفاح المشتركة للوصول إلى «محطة الاستقلال» تلك المحطة التى كانت هدفا نهائيا للزعيم الشاب مصطفى كامل بينما كانت قاعدة انطلاق للأمير الشاب عباس حلمى لترسيخ دعائم حكمه بعيدا عن الاحتلال الإنجليزى البغيض، بيد أن التقارب السنى بينهما، بالإضافة إلى كونهما شابين فى مقتبل العمر تملؤهما الحماسة والغيرة الوطنية الخالصة، بالإضافة إلى وحدة الغاية كل ذلك كان يحتم أن يتعاون الرجلان وينطلقا من خندق واحد صوب هدف واحد، لقد مرت العلاقة بينهما بثلاثة مراحل :ـ

المرحلة الأولى.......... «مرحلة التوحد»

المرحلة الثانية..........«مرحلة التوتر»

المرحلة الثالثة..........«مرحلة القطيعة»

لقد بدأت المرحلة الاولى لهذه العلاقة وهى «مرحلة التوحد» ـ إذا جازت

التسمية - بعد المقابلة الرسمية الأولى التى تمت فى التاسع من يونيه سنة ١٨٩٦ وقد كانت تلك المقابلة هى البداية الحقيقية لهذه العلاقة التاريخية بين مصطفى كامل والخديوى؛ بيد أن تلك المقابلة قد شهدت تنسيقا وتوزيعا للأدوار كما تم فيها الاتفاق على الخطوط العريضة وملامح الخطة العامة للتحرك وإدارة الحركة الوطنية، ومن وجهة نظرى لا أميل إلى سطحية تفسير ذلك اللقاء بأنه كان لمطلب شخصى أراده مصطفى كامل من الخديوى، فالقراءة التحليلية لسير الأحداث نستقرئ منها أن ما أذيع ونشر عن سبب اللقاء وموضوعه كان تضليلا للإنجليز وتم ذلك بالاتفاق بين الرجلين وحول هذا اللقاء يقول الأستاذ فتحى رضوان معلقا على هذه المقابلة: «وقد كانت المقابلة لسبب يبدو أنه شخصى فقد أساء الإنجليز معاملة على فهمى كامل شقيق مصطفى، وكان إذ ذاك ملازما أول فى إحدى كتائب المشاة بالجيش المصرى المرابط فى ذلك الحين بسواكن، وحاكموه مدعين أنه استقال من الجيش المصرى وهو متهيئ لإحدى الحملات فى السودان وانزلوه من رتبة ضابط إلى رتبة نفر.

انتهز الخديوى وانتهز مصطفى هذه الفرصة ليقابل أحدهما الآخر مقابلة رسمية فيكون من وراء تلك المقابلة تأييد لمصطفى كامل فى حركته وفهم الإنجليز هذا المغزى فاستشاطوا له غضبا وذهب اللورد كرومر إلى سراى عابدين واحتج احتجاجا شديدا عليها ولم يلبس الخديوى أن أصدر عفوه عن على بك فهمى كامل؛ فكان ذلك تحديا جديدا للإنجليز ولقد ظن الكثيرون – أو قل أذاع الإنجليز عن سوء نية أن مصطفى كان أداة الخديوى عباس لا يكسب من وراء تشجيعه وتأييده سوى مضايقة الاحتلال لأنه كان يغل يده عن السلطة المطلقة التى كان يطمع فيها، وقد كان توفيقا لاشك فيه أن يظفر مصطفى كامل بتأييد الخديوى عباس للحركة الوطنية ذلك لأن ضرب الشعب بالحاكم وضرب الحاكم بالشعب هى السياسة التى تضيع على المصريين قدرا كبيرا من قوتهم، ولا شك أن الفضل فى تأييد الخديوى للحركة راجع لمصطفى كامل لأن شخصيته جعلت الخديوى يطمئن اليها ويراها جديرة بمد اليد إليها والوقوف فى صفها ولكن الذى لا شك فيه أن الخديوى لا فضل له فى وطنية مصطفى كامل فهى سابقة على قيام الصلة بين مصطفى

والخديوى وقد بقيت بل زادت بعد أن انفصل الخديوى عن الحركة وتجهم لها.. لكن الثابت أن الخديوى الشاب كان سندا للحركة الوطنية مشاركا وممولا وكان مصطفى كامل هو الباب الذى دخل منه الخديوى إلى آفاق الوطنية والجهاد من أجل الاستقلال وتحقيق الجلاء المنشود، إننى أرى أن الخطاب الذى أرسله مصطفى كامل من باريس إلى محمد بك فريد بتاريخ ٥أغسطس عام ١٨٩٨ يخبره فيه بما تم بينه وبين الخديوى أثناء زيارة الأخير لباريس بمثابة ورقة تاريخية توثق تلك العلاقة فى مرحلتها الأولى؛ خاصة حينما قال لفريد عن الخديوى.. إنه لجدير بأن نتفانى فى محبته.. ونورد نص هذا الخطاب نظرا لأهميته من الناحية التاريخية..

«أخى الأمجد الفريد أعزه الله.. أقبلك ألف قبلة وأهديك أطيب تحية، وصلنى بالأمس خطابك الكريم كما وصلنى يوم الجمعة الماضية ما طلبته منك، فلك الشكر مزدوجا.

شرّف العزيز وسافر - يقصد الخديوى - وتشرفت بمقابلته مرات - هذا الخبر لك وحدك - وعلمت منه أمورا جمة سرتنى للغاية، وشرحت صدرى وحققت لى الأمل ملء فؤاده، وأن ليس لليأس عليه سلطان وساقابله مرة أخرى فى الشهر الآتى، وقد قابل هنا وهناك كل ذى شأن وكل عظيم، واستمال من لا يستمال، فله منا الود والإخلاص والحب الحقيقى، وإنه لجدير بأن نتفانى فى محبته..»

وبدأت ملامح المرحلة الثانية من تلك العلاقة والتى يمكن أن نطلق عليها مرحلة التوتر حيث بدأ اليأس يتسرب إلى نفس الخديوى فهو الذى كان يأمل فى سرعة الجلاء حتى ينفرد بمقاليد الحكم وتصير له السيادة الكاملة لذلك كانت زيارته إلى لندن بمثابة بذور للشك فى توجهات الخديوى الجديدة ورغم ذلك كان مصطفى كامل يتعامل مع الموقف بذكاء وحكمة فهو لم ينس لحظة أن الخديوى هو حاكم البلاد وصاحب الشرعية الحقيقية ولم ينس كذلك ما كان من خلاف واختلاف بين الخديوى توفيق والحركة العرابية وما خلفه ذلك من ضياع للحركة الوطنية برمتها ,لقد فطن مصطفى كامل لذلك فكان يأخذ على الخديوى أخطاءه ولكنه كان يتسامح معه لعلمه بأن الخديوى يصدر فى الأغلب الأعم من أعماله عن عقيدة وطنية سليمة، لكن الزيارتين المتتاليتين

للخديوى إلى لندن فى العام ١٩٠١ تركتا أسوأ الآثار فى نفس مصطفى كامل حيث شعر بأن الخديوى بدأ يمالئ الإنجليز ويسعى إلى مهادنتهم فبعث برسالة إلى مدام جولييت آدم فى العشرين من يونيه عام ١٩٠١ قال فيها «سيدتى المديرة المبجلة:

يسافر الخديوى بعد عشرة أيام إلى ديئون لا إلى لندرة، وكان الإنجليز يؤملون سفره إليها لتقديم واجب الاحترام للملك، ولكن يغلب على ظنى أنه رأى كيف كان عليه تأثير سياحتين متواليتين إلى لندرة، على أنه لا يزال وطنيا فلا تعتقدى فيما يقولونه عنه، نعم إن عنده بعض الاندفاع ولكن هل يمكن أن يستسلم لحماسته بعد حادثة فاشودة ؟».

وهكذا توقع مصطفى كامل أن يضرب الإحباط واليأس حماسة هذا الرجل.. إن تساؤله وهو يكتب لجولييت آدم ويقول «هل يمكن أن يستسلم لحماسته بعد واقعة فاشودة ؟ كان بمثابة توقع حذر لما ستؤول اليه الحالة النفسية والمعنوية للخديوى.

لقد حاولت فرنسا أن توقف التوغل البريطانى فى إفريقيا فارسلت مجموعة محدودة من الضباط الفرنسيين على رأس مجموعة من الجنود السنغاليين لا يتعدون المائة جندى إلى بلدة على النيل الأزرق تسمى فاشودة، وأصبح الصدام بين انجلترا وفرنسا قاب قوسين أو أدنى.. وهو الصدام الذى كان حلما يداعب زعماء الحركة الوطنية فى مصر، لقد ازدادت درجة غليان حزمة الطموحات وأصبحت المسألة المصرية على موعد مع الحل، بيد أن الموقف الفرنسى المعلن من الاحتلال البريطانى لمصر هو المبرر لقراءة الأحداث بهذه الطريقة البسيطة، ولكن ماحدث كان «صدمة لا صدام» لقد تراجعت فرنسا سريعا أمام غضبة الاعتراض البريطانى، فرنسا لا تريد حربا مع الإنجليز نظرا لوجود تعقيدات فى المشهد السياسى فى أوربا خاصة الموقف من ألمانيا وإيطاليا، لقد كان التراجع الفرنسى خالياً من تحقيق أية طموحات مصرية لذلك كان الإحباط واليأس.. إن رهان المصريين كان قائما على أن فرنسا ستتراجع عن فاشودة شريطة انسحاب انجلترا من مصر، لكن فرنسا لم تفعل وتراجعت وانسحبت إلى حيث أتت فى الحادى عشر من ديسمبر فى عام ١٨٩٨ وكان لهذ الانسحاب من الآثار السلبية ما جعل

الخديوى يراجع مواقفه السياسية على كافة المستويات.. ففرنسا لم تعد الملاذ والملجأ للحركة الوطنية التى يدعمها الخديوى ويعتمد فيها على مصطفى كامل ورفاقه وبالطبع يعتمد الأخير على الموقف الفرنسى المناهض للسياسة الاستعمارية للبريطانيين، لكن ما حدث فى فاشودة كان ترجمة حقيقية لموازين القوى الدولية ففرنسا لن تقوى على مواجهة الإنجليز على وجه العموم وليس لديها المبرر الكافى لهذه المواجهة، بيد أن الخديوى قد وجد نفسه مضطرا لفتح صفحة التعاون مع البريطانيين وكان ذلك بالطبع على حساب الحركة الوطنية فى مصر، فبدأ الخديوى ومعه معظم رجالات مصر إلى الارتماء فى أحضان بريطانيا ومحاولة إرضائها وتحويل بوصلة الولاء تجاهها.. بيد أن الجميع قد أيقن أن بقاء الإنجليز فى مصر قضاء محتوم !

لكن.. ما هو موقف مصطفى كامل إزاء ما حدث فى فاشودة ؟ وما هو رد فعله على تحويل بوصلة ولاء الخديوى ومعظم المصريين إلى بريطانيا؟

أرسل مصطفى كامل إلى شقيقه على بك فهمى الذى كان يعمل ضابطا فى حملة السودان رسالة تعليقا على حادثة فاشودة وما تلاها من تغيرات فى الخريطة السياسية الداخلية والخارجية حيث قال «إن الأحوال فى مصر سيئة للغاية بعد مسألة فاشودة، وأظهر بعض الكبراء الجبن وكادوا يخونون بلادا أحسنت إليهم بما لا يحلم به غيرهم، ولكنى ثابت على خطتى حتى الممات، لأن اعتقادى أن ثمر النجاح وإن لم يجنه المدافع الأول أو الثانى فلسوف يجنيه مصرى على مدى الأيام وأننا إذا لم نقطتف ثمر عملنا وجهادنا فى حياتنا فإننا على الأقل نضع الحجر الأول لمن يبنى بعدنا».

بيد أن مواقف الزعماء والقادة الأفذاذ من أصحاب العقائد الراسخة وحملة الرسالات الوطنية تكون مغايرة كثيرا عن مواقف أصحاب المواقف الهشة الذين ليس لديهم رؤية واضحة أو رسالة سامية، هؤلاء الزعماء لا يعرفون الاستكانة واليأس والإحباط، فالأفذاذ لا تقف أمامهم عقبات ولا توهن من عزائمهم الصعوبات، ومصطفى كامل ذلك الزعيم الشاب كان أحد هؤلاء الأفذاذ إنه يقول لشقيقه «.. ولكنى ثابت على خطتى حتى الممات..» هل هناك عقيدة راسخة لا تتزعزع أكثر من هذا ؟ ونلاحظ أن تلك الكلمات

والعبارات ضمن خطاب الزعيم لشقيقه لا ضمن خطابه لأنصاره ولا جزءا من خطبه أمام الجماهير، فالمرء منا عادة ما يصرح بالحقيقة مجردة وهو يتحدث مع ذويه المقربين حيث لا تجمل ولا تلطيف ولا دبلوماسية بل الحقائق مجردة.. هذا هو مصطفى كامل الذى أرسل من باريس إلى فريد بك فى التاسع عشر من أغسطس ١٨٨٩يقول «.. لا يسعنى إلا أن أشكر ودك الصادق النادر المثال فى مصر فهو تعزيتى عن هموم بلادى، وسلواى عن قعود بنى وطنى عن إجابة ندائى والاجتماع حول راية الوطن لإنقاذه وإسعاده.. سأسافر إلى برلين بالرغم من شدة كدرى من عدم وجود إرادة مشتركة بين من يريدون أو من يدعون خدمة الوطن وعدم وجود خطة ثابتة يجرى الكل عليها وسأعمل كل ما فى جهدى لخدمة البلاد وما على إلا الامتثال إلى ارادة الخالق جل شأنه الذى أراد ان أكون الوحيد فى خطتى الفرد المطالب بالاستقلال..».

وأرسل إليه رسالة أخرى فى الرابع من سبتمبر من نفس العام «.. وعلى أى حال فالمستقبل بيد الله يديره كيف يشاء وما علينا لا العمل والمثابرة على المطالبة بحقوق بلادنا فما ضاع حق لمطالب.. وأنه لو اتحد مائة منا لاهتزت الأرض قاطبة لصوتهم فما بالك لو اتحدت كلمة الأمة المصرية كلها وإنى لأحس بكآبة».

وكأن المصائب لا تأتى فرادى فى عام ١٨٩٩ تم سلخ السودان عن مصر بمقتضى اتفاقية السودان التى وقعها وزير الخارجية المصرى بطرس غالى نيابة عن حكومة مصطفى فهمى، ونزلت تلك الاتفاقية كالصاعقة على رءوس الجميع وأضيفت عقدة جديدة إلى عقد المسألة المصرية وأصبحت الحركة الوطنية فى مفترق طرق، لكن زعيم تلك الحركة كان يعرف الطريق جيدا حيث لا حيدة عن الحق ولا تفريط فى المبدأ.

وجاء الاتفاق الودى بين إنجلترا وفرنسا والذى يقضى بأن تطلق فرنسا يد إنجلترا فى مصر والسودان مقابل أن تطلق انجلترا يد فرنسا فى مراكش، وكان الخديوى قد وصل فى تودده إلى الإنجليز إلى مداه وفى تلك الأثناء وصلت العلاقة بين الزعيم مصطفى كامل والخديوى عباس إلى طريق مسدود حيث المرحلة الثالثة وهى «مرحلة القطيعة».

وهنا لا أجد أبلغ ولا أرقى ولا أشجع من ذلك الخطاب التاريخى الذى أرسله مصطفى كامل إلى الخديوى عباس يبلغه فيه بضرورة القطيعة حيث إن الطريق ما عاد طريقا واحدا والغاية لم تعد غاية واحدة..

يقول مصطفى كامل فى رسالته للخديوى:

«مولاى.. تشرفت فى ديفون بالمثول بين يدى سموكم يوم ٢٧ اغسطس ١٩٠٤ورفعت إلى مقامكم السامى أن الحالة السياسية الحاضرة تقضى علىّ بأن أكون بعيدا عن فخامتكم، وأن أتحمل وحدى مسؤلية الخطة التى اتبعها نحو الاحتلال والمحتلين، منعا لتكدير خاطركم الشريف ودفعا لما عساه يقع من الخلاف والنزاع وقد رأيت يامولاى بعد التفكير أنه صار من المحتم علىّ القيام بهذا الواجب وأنه أول عمل يلزمنى تأديته عقب عودتى إلى الوطن العزيز لأن الإنجليز أظهروا فى خلال السنوات الأخيرة من التضييق على جنابكم العالى ما يجعل وجود رجل ينتقد سياستهم فى الصباح والمساء بجانب سموكم داعيا لاعتدائهم على حقوق ذاتكم السنية وحجة لتدخل جديد غير محمود، وإنى بعد أن رأيت احتجاجهم على جنابكم الرفيع بمناسبة المقابلة التى تفضلت جلالة ملكة البرتغال بمنحى إياها ومعارضتهم العنيفة لفخامتكم بسبب الاستقبال الودى الذى نالته مدام جولييت آدم من لدنكم وتصريحهم بأن إنجلترا لا تسمح لجنابكم العالى بإكرام من يعاديها وادعائهم بأن كل ما يكتب أو يقال ضدهم موعز به من سموكم، أعد نفسى مقصرا تقصيرا حقيقيا فى تأدية الواجب نحو مقامكم الرفيع إذا أبقيت صلتى بسموكم على حالها وفضلت نعمة التقرب منكم على القيام بواجب تدعو اليه الوطنية والسياسة، وإنى أرجو أن يعتقد مولاى حفظه الله أنى لم أقصد إلا محض خدمته بما قلته لسموه بشأن أولئك المفسدين الذين يلتصقون بالمعية ويضرون بها أكثر من أعدائها الظاهرين ويدخلون اسمكم الكريم فى كل حادث غير حاسبين للرأى العام حسابا وغير ذاكرين أن عرش الخديوية هو البقية العزيزة لاستقلال البلد وأنه يجب أن يكون على الدوام محاطا بالاحترام التام والإجلال العام، ليقاوم القوتين المحاربتين له ألا وهما الاحتلال والزمان، وإنه ليحلو لى أن أبقى إلى آخر لحظة من حياتى خادما لتلك المبادىء الوطنية العالية التى كنتم سموكم أول الداعين إليها والمنادين

بها وأن تزداد كل يوم اتساعا الهوة التى بينى وبين الذين ادعوا خدمة الوطن ليخدموا مصالحهم ثم انقلبوا عليه بلا خجل ولا حياء..

وإنى أتشرف يا مولاى بأن أرفع إلى سدتكم العلية واجبات الشكران على جليل التفاتكم وسامى رعايتكم وأقدم إلى المقام الرفيع أسمى ما يليق من التجلة والإعظام».

كان هذا الخطاب فى الرابع والعشرين من أكتوبر عام ١٩٠٤ وهو الخطاب الذى يوثق للمرحلة الثالثة وهى القطيعة بين الزعيم والأمير.. لكن تبقى ملاحظة مهمة يجدر بنا أن نوردها بعد قراءة هذا الخطاب الذى يروق لى أن أطلق عليه «خطاب الانفصال».

فمصطفى كامل ورغم شدة ضيقه ويأسه ورفضه ومعارضته لمواقف الخديوى إلا أنه لم يفقد صوابه ولم يدفعه الغضب إلى التخلى عن أدبه الجم واحترامه لمكان ومكانة الحاكم فتجده وهو يخاطبه يستخدم أرقى العبارات وأعذب المفردات وهو لم ينس لحظة فضل الخديوى على الحركة الوطنية فى بدايات حكمه فهو المؤمن بالمبادئ الإسلامية الراقية «ولا تنسوا الفضل بينكم»، لقد كان اللقاء الأخير بين مصطفى كامل والخديوى قبل شهر من هذا الخطاب ففى السابع والعشرين من أغسطس عام ١٩٠٤ كان اللقاء الأخير بين الرجلين.

وازداد الخديوى عباس انحيازا إلى السياسة الإنجليزية وارتباطا بها ونفى عن نفسه تهمة العمل ضد الاحتلال وذكر اللورد كرومر بالخير، وصرح بأن المعتمد البريطانى لا يستطيع حكم مصر وحده وأنه مستعد للتعاون معه وأنه لا فائدة للمصريين من استبدال الاحتلال باحتلال وأن الاحتلال البريطانى أفضل من أى احتلال آخر.

لعمرى إن هذه المواقف لمخزية من رأس الدولة الذى ارتمى فى أحضان الإنجليز ونسى كل مبادئ الحرية والاستقلال.. ولكن وبكل قوة وحزم انتقد مصطفى كامل هذه التصريحات والمواقف المخزية بطريقة علنية وعنيفة لكنها أبدا لم تخرج عن نطاق الادب ولم تكن أبدا لهوى فى نفس الزعيم ولا كانت هناك مآرب شخصية، بل كانت لقضية الوطنية فوق الجميع ونورد هنا نماذج رائعة ينتقد فيها مصطفى كامل المواقف الخديوية وأوردها الرافعى فى كتابه «باعث الحركة الوطنية».

يقول مصطفى كامل «مما يجب علينا إعلانه والجهر به أمام الملأ أن تصريحات الجناب العالى لا تقيدنا بأى حال من الأحوال، لأن مركز سموه غير مركزنا، على أن كل مصرى صادق الوطنية لا يقبل مطلقا أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديوى بمفرده أو بيد المعتمد البريطانى أو بيد الاثنين معا بل يطلب أن يكون حكم هذا الوطن العزيز بيد النابغين والصادقين من أبنائه وأن تكون نظامات الحكومة دستورية ونيابية.. قد قلنا مرارا إن سمو الأمير بعيد عن الحركة الوطنية وأن المجاهدين ضد الاحتلال مستقلون عن سموه كل الاستقلال، فهو إن قال كلمة فى صالح الحركة الوطنية خدم نفسه وعرشه، واستمال أمته إليه، وإن عمل ضدها أضر بنفسه وبعرشه، ونفر أمته منه، ولكنه فى الحالتين لا يستطيع الإضرار بهذه النهضة، لأنها نهضة المطالبين بالحياة والوجود، ومثل هذه النهضة لا يضرها إنسان مهما كان قويا عظيما.. إن مصلحة الشعب المصرى تقضى بان تكون الحركة الوطنية بعيدة عن الجناب العالى، حتى يعلم العالم كله أن المصريين يطلبون بأنفسهم وطوعا لعواطفهم وشعورهم - إصلاح حالة بلادهم وترقية شئونهم ومنحهم الدستور وأن هذه المطالب ليست صادرة بإيعاز من كبير أو أمير..

لقد اتهموا الحزب الوطنى تارة أنه موحى إليه من الدولة العلية وطورا من ألمانيا وتارة أخرى من سمو الخديوى، وقد سقطت التهمتان الأولى والثانية من قبل وهذه الثالثة قد سقطت الآن معها، حان الأوان أن نهنئ أنفسنا...

وأرسل لفريد بك يقول.. أرجوك عدم تفخيم الخديوى فى كتاباتك، فقد علمت عنه مالا يسر ولابد أن تضره السياسة ذات الوجهين ضررا كبيرا، وكلما كان عمل الوطنيين بعيدا عنه كان الفلاح محققا

ولكن مصطفى كامل توقف فجأة وانسحب دون استئذان وترك الحركة الوطنية تصارع الأمواج العاتية.. لقد رحل عن دنيانا وبقى الخديوى الذى كتب مذكراته قبل أن يرحل فى عام ١٩٤٤ وتحت عنوان «مصطفى كامل» قال الخديوى عباس الثانى: «كتب الرجل شهادته للتاريخ وهى شهادة أنصفت رجلا قال تحيا مصر.. تلك الشهادة التى أوضحت بجلاء كم كان مصطفى كامل عظيما فهو بحق من يستحق أن تنسب اليه الحركة الوطنية المصرية».

قال الخديوى عباس الثانى :-

«كان مصطفى كامل هو الذى بدأ نشر الفكرة الوطنية فى شباب مصر، وهو الذى هز الروح المصرية فأيقظها من غفوتها.

" كان محيى الوطنية المصرية، ورسول تلك الفكرة التى كانت قد خُنقت فى مهدها، ولكنها ظلت تسعى إلى الأمام، وقد كسب لعقيدته ولحزبه أغلبية الموظفين وأعياناً ومثقفين، وإجماع الطلبة والعمال. كان فتى خلع عليه الشباب كل نعمة بما فيها نعمة الوهم المقدس، وكان قد آثر الحياة الروحية على الحياة المادية وكان حديث العهد بذلك البلد القديم الذى لم تكن هالات المجد ترفع فيه إلا على القيود ولا يعرف شيئاً عن الوضاعة والمساومات السياسية.

" كان بسيطاً ومستقيماً، وتحت مظهره اللطيف كانت تختبىء روح متفتحة لكل الأحاسيس، وقلب حساس لكل ألوان الرقة والحنان، وزانه الله بالحجى، وكانت بلاغته واضحة وحارة، وكان أسلوبه الرشيق، العامر بالصور، يتنقل من البساطة الإنجيلية إلى بلاغة الخطيب المصقع العظيم، وقد أوتى موهبة الإقناع وسحر الإشعاع الذى يؤتاه الحواريون والأنبياء، وكان الحب الذى يكنه لوطنه ينبع من حماسة لا تفقده سيطرته على عقله. "وليس من شأنى أن أسجل حياة ذلك الحوارى الرفيع الذى كانت براءته الطاهرة - بقدر ثقافته وجدارته - قد فتنت به الجماهير، ولكنى لا يسعنى أن أرد نفسى عن توجيه تحية الإجلال إلى ذكرى وطنى أدين له بساعات فائقة الجمال، ومن المؤكد أنه كان فى بعض الأحيان يضايقنى، فإننا على اتفاقنا الدائم فى الهدف لم نكن دائماً متفقين على الوسائل. " وكان شباب الزعيم الوطنى يسمح له بأن يسترد خطاه ويتطور فى لطف حول الأخطاء التى يحفل بها الشباب، وقد أوشك مصطفى كامل أن يغدو ذات لحظة ضحية الزهو الذى يتربص بكل أولئك الذين يقودون الجماهير ببلاغتهم ويحسون أنها معلقة بأفكارهم، وقد كان مصطفى كامل، فيما عدا موهبته الفذة كخطيب وكاتب، وطموحه المشروع، على خصال وطيدة كانت تكفل التقدير حيثما ذهب، كانت له موهبة الملاحظة التى نماها اختلاطه برجال السياسة فى مصر وفى الخارج، وكان يفهم، وقد درس وعاش فى أوربا، إن بلداً طامحاً إلى الازدهار يجب أن يسهر

بعناية على علاقاته مع البلاد الأجنبية، ولم يهمل مطلقاً ذلك الرأى، فكان صوته بذلك يذهب بعيداً ، وكان يسمع فيما وراء النيل، وكان قد عرف كيف يهيىء لنفسه فى أوربا، وفى فرنسا خاصة، صداقات فعلية، وفى أخريات حياته كان صوته قد بدأ يسمع فى إنجلترا. كان نافعاً لوطنه، وكنت أقدره حتى عندما كان يستحيل على أن أتبعه، إن مهمة الحكم ليست دائماً بالسهلة، ففى الوقت الذى يشاء الحاكم أن يطيع صوت قلبه، يجد نفسه مضطراً إلى الإذعان لحق الدولة، ولقد كان مصطفى كامل حراً وكنت أمنحه تأييدى المطلق، كان يقول بدلاً منى ما يجب قوله، وما لم يكن فى الوسع قوله باسمى.

"وإذا كان قد حدث فى بعض الأحيان أن اتجاهاً غير صائب قد عكر صفو عطفى الذى كان فى أغلب الأحيان يذهب إلى حد التعاون معه، فإن سوء التفاهم كان دائماً يزول سريعاً، إذ يطرد سحائبه الولاء المتصاعد من قوله ومن عمله، إن فضل مصطفى كامل العظيم هو أنه قد حدد المثل الأعلى للأمة، وشجع الجماهير على السعى إلى ذلك المثل الأعلى، ولكن وطنيته كانت تبلغ أحياناً حد التصلب وأكبر ما كنت آخذة عليه أنه ظل مبتعدا بنفسه، وبإرادته عن جميع أولئك الذين كانوا يكافحون حول الراية نفسها ولنفس القضية، وكنت قد حلمت بتقارب بين الشيخ على يوسف ومصطفى كامل، ولكنى لم أستطع مطلقاً أن أحقق هذا الأمل إذ كان يفرق بين هذين الرجلين نوع من الكبرياء، المبالغ فيها، ولقد كان يسعهما أن يتفاهما دون أن يتحابا، وكان لهما من المزايا والفضائل ما يكفى لكى يظفر كل منهما من صاحبه بالتقدير.

لقد كان مع مصطفى كامل الشباب، والطلبة، والمستقبل، على حين كان الشيخ على يوسف يتمتع بالنفوذ على أصحاب المراكز الاجتماعية المهمة، لو أنهما تضامنا ! أى شىء كنا نعجز عن تحقيقه، لو أننا وضعنا حماسة أحدهما فى خدمة تجربة الآخر !

"وإذا كان مصطفى كامل قد تجلى فى أغلب الأحيان فى صورة الحوارى، فليس فى هذه الدنيا، مع الأسف، سياسة بلا أخطاء، وما كان مصطفى كامل إلا بشراً، ومع ذلك فلقد ترك عند موته نموذج حياة كرسها صاحبها كلها

لتحرير مصر، وإن جدارة زميله على يوسف - لو أنه كان قد عرفه - ما كانت لتقلل من شأنه، وما يجدر أن يتشاجر الناس على المجد، عندما يخشى أن يكون الوطن نفسه فدية المعركة. "وكان هذا المتضرم هوى ببلاده، الذى قدر له أن يموت فى زهرة العمر قبل أن يتاح له الوقت لكبح جماح حماسته بقليل من التجربة، قد حصل على معظم ما تمنى من رضاء ذلك النجاح العجيب لرسالته الوطنية، وما من ريب فى أنه قد ثمل بعض الثمول بنجاحه، ولو أن ذلك الثمول كان قد اتحد بحكمة الشيخ على يوسف الشرقية، لكان ذلك قد خدم قضية البلاد فوق ما خدماها متفرقين. " كان مصطفى كامل، كلما وسمه العمر بطابعه، يغدو أكثر قلقاً وأكثر إحساسا بشخصيته، وكانت مبادئه السياسية - بعد أن عانت بضعة تعديلات - قد غدت مصرية دقيقة فى مصريتها، وإذا كان قد تكلم أحياناً عن تركيا أو وجه إلى أوربا نداءاته المجلجة فما كان ذلك إلا ليخفى ثورة لو أن تلاميذه لمحوا منها شيئاً لكان فى ذلك ما أفقده سلطته.

" ولعل التعهدات المتتابعة التى طبعت نشاطه كانت قد نسقت، ولم يكن يريد أن يقطع صلته بالماضى دون فترة انتقال، وكان يخشى أن يعرض النتائج التى حصل عليها للخطر، إذ هو بدا فى صورة المجدد المبالغ فى تجديده. " وأيا ما كان الأمر، فإن أساس تعليمه لم يكن فى الحقيقة عصرياً مفرطاً فى عصريته، بل لعل أفكاره كانت أقرب إلى التقليد الشرقى مما يعتقد أكثر الناس.

" كان قد جرد وطنيته من كل رداء دينى، ولكنه ظل متديناً ومتعلقاً بروح القرآن، أما على يوسف، فإنه برغم ثقافته الدينية البحتة، قد عرف كيف يتخلص من الطابع الإسلامى، الذى بقى عند مصطفى كامل، ومع أنه تربى فى أوربا، فلقد كان يستخدم النظريات الغربية كوسيلة، ولكنه لا يعتبرها غاية فى ذاتها.

" ومات الزعيم الشاب المطالب بالاستقلال المصرى دون أن يحقق خطته، وربما دون أن يكون قد حدد خطوطها الأخيرة، لقد كان على الأخص محيى الروح الوطنية.

" وكانت جنازته رائعة، ومرت مصر عن بكرة أبيها أمام جثمانه، وأقبل من

القرى النائية ألوف وألوف من تلاميذه ليشيعوا النعش الذى حمل زعيمهم إلى مثواه، أولئك الأنصار الذين غدوا، وقد مات الزعيم، الخلفاء على تراثه الوطنى.

" كانت روح مصطفى كامل تلهم شعباً، وقد صار هذا الشعب وارث مثله الأعلى ".

" لقد قيل، فى أيام كفاح مصطفى كامل العنيفة، إنى كنت خصمه، وقيل أيضا إنه كان صنيعتى، وليس هناك ما هو أشد بعدا عن الحقيقة من هذا الذى قيل، إن مصطفى كامل لا ينتمى إلا إلى نفسه، ولقد كان رجلاً من الصفوة، عاش بإيمانه، ومات بإيمانه، أما أنا - عباس حلمى -، فإنى ما كنت أبداً وحيه، ولم يكن صنيعتى، بل رائداً وجندياً يحارب تحت راية مثله الأعلى الذى كان العجائز يرونه زندقة وإلحادا ويتبعه الشباب فى حماس فائر، وإن قلمه البليغ، و «لواءه» المناضل، قد صارا إحدى مفاخر عهدى.

" ومع أن كل شروع فى عمل بالمعنى الذى حلم به مصطفى كامل كان يعترضه دائماً وجود الوكلاء البريطانيين وإرادتهم، فإن عهد حكمى كله قد تأثر بمجهوده الوطنى، وأذكر على سبيل المثال إنشاء الجامعة المصرية الجديدة التى وضعتها تحت رياسة عمى الأمير أحمد فؤاد، لمنحها استقلالاً حقيقياً، فهى الدليل الذى لا ينقض على ذلك، لأنها كانت من وحيه، فإن أول من فكر فى الجامعة هو مصطفى كامل ".

وقال فى موضع آخر :

" إن روح الوطنية قد تحددت بوجه خاص فى عهدى، وقد ظهرت تلك الروح فى إخلاص أكثر زعمائه جلداً وبلاغة - مصطفى كامل - وفى موهبته بما آتاه برنامجاً محدداً.

" يومذاك كنت أمسك بيدى محركات عنصرى الوطنية المتفرقين المتنافرين الحزب المحافظ، حزب أعيان البلاد الذى يأتمر بأمر الشيخ على يوسف، وحزب الشباب المتطرف بزعامة مصطفى كامل، وكان معنى الوطن عند كل من هاتين الجماعتين مختلفاً عن الآخر، فهما لا يستطيعان تحقيقه فى صورة موحدة، ولا فى لحظة واحدة.

" وقد أدركت بعد قليل استحالة ضم الفريقين، وصار لزاماً على أن أسعى عند كل منهما سعياً خاصاً به، وكان هذا ما جعل البعض يقول : إنى كنت أقوم بلعبة مزدوجة.

" ولكنى على العكس من ذلك، كنت أبغى أن أتجنب - ما وسعنى ذلك - ترك هاتين القوتين المتنافستين إحداهما إزاء الأخرى، وأن أحَّد من الانشقاقات فى كل منهما، مستدركاً ما عساه أن يحدث من اختلال.

"وكنت أحرص قبل كل شىء على ألا تبدر منى بادرة تفضيل قد تثير غيرة تجعل أحد الحزبين ينهض لعداء الآخر، وكان تفضيلى مع المعتدلين ولكنى كنت أفهم المتطرفين، ولم استخدم لنفسى لا هؤلاء، ولا هؤلاء، ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا يرفضون مبدأ الاحتلال.

" وقد كان موقفى سبباً فى أن يقال إنى لم أكن مخلصاً لا للوطنيين ولا للإنجليز، ولكن تقلباتى الظاهرية لم يكن لها غير دافع واحد، وهو دافع شخصى على كل حال، لم أكن رفيقاً بالحزب الوطنى عندما كان يندفع إلى شىء من العدوان، ولكنى لم أكمن رفيقاً أبداً ببريطانيا العظمى التى كانت تنشب مخالبها باطراد كل يوم فى الأرض المصرية، وهذا الدافع الوحيد كان حبى لبلادى ".

" لست أبغى أن أنشر هنا من جديد فصول تلك المأساة، فإن من المعروف أن الضباط الإنجليز المشتركين فى المناورات كانوا ينتهزون فرصة أوقات فراغهم كى يخرجوا للصيد، فيقتلوا فى القرى الحمام الأليف، ويحملوه ملء الحقائب، وأن الأهالى قد قاوموا، وتبادل الفريقان الضربات فلاذ أحد الضباط بالفرار خلال المزروعات، ومات متأثراً بضربة الشمس، وعاد بعض الجنود إلى القرية ليقتلوا المزارعين الوادعين، قبل أن يحملوا النبأ إلى رئيسهم.

" ولم يكن فى الأمر، إلى ذلك الحد، غير حادث يؤسف له حقاً، ولكنه ما كان لينتهى بتلك المذبحة الفظيعة التى تلت المحاكمة التى قامت بها المحكمة الخاصة لو أنه عولج فى اتزان، ولم تخن الجميع أعصابهم، وكان كبار الموظفين الإنجليز فى أجازة، كما كان الجنرال قائد القوات غائباً، وأكبر الظن أن ذلك الذى كان يقوم مقامه كان متحمساً ومتطرفاً، فقد أضفى على

الحادث ثوب المأساة، كما أن ممثل اللورد كرومر لم يحسن فهم المسئوليات التى أخذها على عاتقه.

" إنى ليستثير ألمى أن أفصل القول فى هذا الحادث الذى حمل إلى البرق نبأه أثناء استشفائى فى فيينا، فلقد هز نفسى أعنف هزة، سواء من جهة الوقائع التى وقعت إلى، أو من جهة موقف الحكومة المصرية.

" لقد كان الواجب أن يقابل سوء تصرف الإنجليز ووحشيتهم فى الكفة الأخرى بوطنية المصريين وحرصهم على كرامتهم.

"وليس مما يغتفر للإنجليز، بلا ريب، أنهم شكلوا محكمة استثنائية، كى يحاكموا فلاحين وادعين لم يرتكبوا جرماً إلا الدفاع عن حقوقهم وممتلكاتهم ولكن جرمهم فى ذلك لا يقاس بجرم أولئك المصريين الذين قبلوا بغير اعتراض الاشتراك فى نلك المحكمة، وأباحوا للدولة المحتلة تلك الترضيات التى ما كانت لتجرؤ على المطالبة بها لو أنها أحست من جانبهم مقاومة بسيطة.

" إن الوزراء المصريين لم تبدو منهم بادرة للتخلص من ذلك الشرف المحزن، شرف محاكمة مواطنيهم، ولم تند عن شفاههم كلمة طيبة واحدة.

" لقد ضحوا للأجنبى، دون احتجاج، ودون تردد، بأولئك التعساء الذين عهدوا إليهم بمصيرهم، والذين كان عليهم أن يستمعوا إليهم قبل الحكم عليهم، ولم يشر أحد إلى الظروف المخففة لعمل كان أكثر الجرائم استحقاقاً للعفو، وكان فوق ذلك، قد تم من قبل الانتقام له.

" ولا يفوتنى أن أسجل أن المقال الذى نشره مصطفى كامل فى جريدة "الفيجارو" الباريسية فى ١١ يوليه سنة ١٩٠٦ قد أحدث دوياً عظيماً، وأثار ضمير العالم.

" لقد كان ألمى لذلك الأمر كبيراً وفادحاً، وكم عكر صفوى ليالى طويلة، ولم يكن الاندفاع الإنجليزى وضعف الحكومة المصرية قد سمحا لى بفرصة التدخل إلى وقت القضية.

" ولقد فعلت المستحيل لتعويض ضحايا حادث دنشواى الذين لم يشنقوا، ولكن اللورد كرومر أبى قائلاً إن فى ذلك مساساً بشرف الجيش البريطانى،

وكان على أن أنتظر السير إلدون غورست كى أصلح من أثر ذلك الشر.

"وكانت لندن، بعد حادث دنشواى المحزن، قد انتهى بها الرأى إلى استدعاء اللورد كرومر.

"وكان الإنجليز قد أدركوا آخر الأمر، كلما جرت الأحداث، ولما أثارته الدعاية الوطنية عند الشعب من حركة لا تقاوم، أن يوماً سيأتى فيغدو جيشهم الذى يحتل مصر غير كافٍ للمحافظة على الأمن فى البلاد، أو لحماية نفسه من هجوم خارجى.

" فلنطو هذه الصفحة، ويكفى أن الصحافة الإنجليزية والتاريخ قد فضحا منذ ذلك الحين - سفاحى دنشواى، أولئك الذين سلموا المتهمين المساكين للجلادين، خارج القانون، وخارج الإنصاف والعدالة، ولشتى صنوف التنكيل ".

زعيم ورجال





محمد بك فريد

رمز الإخلاص والتضحية

«فقد أصبح القوم كلهم أحياء، دمت لى أخاً وفياً صادقاً ودمت معى خادمين صادقين للوطن المحبوب، الإخلاص والوفاء والتضحية وإنكار الذات هى المكونات الأساسية التى تشكلت منها شخصية ذلك الحوارى العظيم محمد بك فريد.

إنه الشريك الحقيقى لمصطفى كامل فى ذلك المشروع الوطنى الكبير بحثاً عن الاستقلال وطرد الاستعمار، إنه «بعض أو جزء» مصطفى كامل، إنه صديقه الوفى، وداعمه الأول وكاتم أسراره وموضع ثقته لذلك كان هو أقدر من يكمل المسيرة بعد مصطفى كامل.

لقد كانت خطابات مصطفى كامل إلى محمد بك فريد تدل على وضع ومكانة هذا الرجل فى تاريخ الحركة الوطنية.. ففى ٢١ أكتوبر عام ١٨٩٦ ومن فيينا أرسل مصطفى كامل إلى محمد فريد يقول: «إنى مستمر إلى يوم الوفاة على خدمة بلادى، وإن غيرتى على حقوقها تزداد يوما بعد يوم ولا يقلل من عزمى تهاون بقية المصريين أبداً، بل إنى سائر إلى الأمام حتى أنزل القبر وبعد موتى يكون على روحى واجب الاستمرار وواجب دعوة الأحياء إلى العمل، أو إن شئت قل واجب إحياء من هم أموات فى قالب أحياء».

وبعد خمسة أيام ومن مدينة بودابست أرسل مصطفى كامل لفريد قائلاً: «أخى الفريد حفظه الله.. بعد التحية والتسليم والإعراب عن شوق عظيم لابد أنك استلمت كل ما أرسلت إليك وطالعت صدى ما علمت وعلمت بكل ما جرى وكان ولابد أنك سررت وفرحت وأن روحك الطاهرة الشريفة الممتلئة حباً لمصر التعيسة وإخلاصاً رضيت عن روح لا تقل عنها حباً للوطن وإخلاصاً وأخالك تفكر كثيرا فىّ وتود لو تكون معى تطوف البلدان مناديا بنصرة المظلوم رافعا صوتك ضد عدو الوطن الأسيف.. ولكنهم جهلوا أن لى روحا هى من نور الحرية الساطعة لا تستطيع الحياة فى ظلمات الظلم والاستبداد، جهلوا أن روحى تنادى إلى يوم الممات ما شاكلها من الأرواح

الشريفة لتتحد معها على القيام بهذا العمل الشرعى الحق وماذا أقول لك وأنت تحس بما لا يستطيع القلم كتابته وأنت إذا تلوت هذه الأسطر سالت الدموع من عينيك، ماذا أكتب وأنا كلما شاهدت هذه البلاد وشاهدت فيها علم الوطنية عاليا مرفوعا ازداد لهيب فؤادى وتفتت منى الكبد».

ومن اسطنبول وفى الثالث من نوفمبر عام ١٨٩٦ أرسل لفريد يقول ضمن خطابه:

«كنت أحس بواجب مراسلتك، ويسهل شوقى إليك قيامى بهذا الواجب نحوك، وأتلذذ حقا لمكاتبة صديق مثلك أساس مودته محبة الوطن العزيز، أى أشرف وأجل إحساس عند الإنسان».

و من باريس وفى التاسع عشر من يوليو أرسل يقول:

«أخى الأعز حرسه الله بعد تقبيل وجنتيك وإهدائك أعطر السلام، وصلنى هذا الصباح كتابك الكريم فتقبلته بالترحاب والتكريم وكنت فى شغف شديد لاستلامه لغياب أخبارك عنى ثلاثة أيام وليس ذلك بزمن قريب، لقد أدهشتنى فى كتابك شكرك لى على مبادرتى بإجابة طلبك.. إن هذا الشكر من غيرك جميل وواجب ولكنه منك غريب وعجيب فما بيننا من الود والإخاء يجعل مالك مالى ومالى مالك وحياتى حياتك وحياتك حياتى، هذا ما أعتقده وما تعتقده أنت فروحى تناجى روحك بالود والإخلاص وفى كل لحظة وفى كل آن، دمت لى أخا وفيا صادقا ودمت معى خادمين صادقين للوطن المحبوب.. أكتب لك باكر من فيشى وأطل كتابك وأذهب يوم الخميس إلى كوك قبل انطهر تجد منى كتابا أكتبه إليك باكر ليكون منه وداعك وبعض أمور أريد منك عملها فى مصر.. تقبل ألف قبلة من صديقك الأول وأخيك الثانى»

ومن باريس أيضا وفى الثانى والعشرين من يوليو كتب يقول:

«أخى الأعز حرسه الله أقبل وجنتيك ألفا وأهديك سلاماً عاطراً وأسأل لك الصحة الدائمة والسرور الكامل وأدعو الله أن يسرك بشفاء حرمك المصون وسلامة نجلك الأمين إنه سميع مجيب.. أرجوك أن ترسل لى عدد المؤيد المؤرخ ٩ يناير وهو المشتمل على الخطبة التى ألقيتها على شبيبة المدارس يوم احتفالها بعيد جلوس الخديوى لأنى فى حاجة إلى ترجمتها

ووضعها مع المجموعة.. سأكتب لك كل أسبوع مرة على الأقل ولا تنسى العائلة أرسل سلامى إلى كل أفرادها.. دمت ألف مرة لأخيك المخلص».

ومن باريس أيضا وفى العاشر من أغسطس عام ١٨٩٨ أرسل يقول:

«إذا قابلت شوقى بك قِّبله مرتين، وقل له أن يرسل لى ما طبع من ديوانه مع صورته، وأعطه عنوانى.. أقبلك فى الختام ألف قبلة وأرجوك الا تحرمنى من أخبارك وأن تعرفنى عند وصول هذا اليك، دمت لمصر العزيزة ولخادمها الضعيف أخيك» .

و أرسل من باريس إلى فريد بك فى التاسع عشر من أغسطس ١٨٨٩يقول «.. لا يسعنى إلا أن أشكر ودك الصادق النادر المثال فى مصر فهو تعزيتى عن هموم بلادى، وسلواى عن قعود بنى وطنى عن إجابة ندائى والاجتماع حول راية الوطن لإنقاذه وإسعاده.. سأسافر إلى برلين بالرغم من شدة كدرى من عدم وجود إرادة مشتركة بين من يريدون أو من يدعون خدمة الوطن وعدم وجود خطة ثابتة يجرى الكل عليها وسأعمل كل ما فى جهدى لخدمة البلاد وما على إلا الامتثال إلى إرادة الخالق جل شأنه الذى كأنه أراد أن أكون الوحيد فى خطتى الفرد المطالب بالاستقلال..»

وأرسل إليه رسالة أخرى فى الرابع من سبتمبر من نفس العام تقول: «.. وعلى أى حال فالمستقبل بيد الله يديره كيف يشاء وما علينا إلا العمل والمثابرة على المطالبة بحقوق بلادنا فما ضاع حق لمطالب.. وانه لو اتحد مائة منا لاهتزت الارض قاطبة لصوتهم فما بالك لو اتحدت كلمة الأمة المصرية كلها وإنى لأحس بكآبة..».

ومن نابولى وفى التاسع والعشرين من يونيه ١٩٠٧ قال فى خطابه لفريد بك:

«إنى لو أردت أن أشكرك على صدق إخائك وتفانيك فى خدمة المبدأ الذى وهبنا حياتنا له لما استطعت على ذلك سبيلا وحسبى أن أقول إنك خير سلوى لى فى هذه الحياة، التى كثرت أتعابى وهمومى فيها فكنت الأخ الممتاز والعون فى الشدائد».

وبعد حادثة دنشواى وبعد نجاح مصطفى كامل فى فضح ممارسات الاحتلال الإنجليزى.. لقد كان ذلك موضع تقدير وإكبار الأمة بكل أطيافها،

لقد أراد الجميع أن يحتفلوا بالرجل ويقدموا له باقة حب وتقدير، لقد كان محمد فريد بك هو صاحب الفكرة فتشكلت لجنة فى أغسطس عام ١٩٠٦ برئاسته وذلك لتنظيم جمع اكتتاب عام لهذا الغرض، ولما علم مصطفى كامل أرسل من باريس خطابا فى الرابع والعشرين من سبتمبر إلى فريد بك يعتذر فيه عن فكرة تكريمه بقوله:

«شكرا لكم وألف مرة شكرا ولكنى لا أستطيع أن أقبل ثناء لا أستحقه وإكراما لم أفعل شيئا لنيله، ولا يمكننى أن أرضى بأن يكون الشعور الوطنى مما يكافأ الرجل عليه وهو لا يكون رجلاً إلا به.. فخير هدية أقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز والأمة المصرية المحبوبة هى أن تقوم اللجنة التى شكلت بدعوة الأمة كلها وطرق باب كل مصرى لتأسيس كلية أهلية تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء، وتهب الأمة الرجال الاشداء الذين يكثرون فى عداد خدامها المخلصين ممن لا يخافون فى الحق لوما ولا عتابا، ويعملون لمداواة أدوائها وجمع أمرها وبث روح الوطنية العالية فى كافة أبنائها، لأن كل مليم يزيد على حاجة المصرى ولا ينفق فى سبيل التعليم هو ضائع سدى، والأمة محرومة منه بغير حق..» .

بيد أن العلاقة بين فريد بك ومصطفى كامل بدأت قوية إلى أقصى درجة واستمرت كذلك صامدة أمام عواصف السياسة وأنوائها العاتية، وعندما خفت صوت مصطفى كامل وورى التراب وهو فى ريعان شبابه كانت الحركة الوطنية التى بذر غرسها ذلك الفتى النحيل مصطفى كامل ما زالت فى أوجها.. لقد كان صنع ذلك الزعيم إنجازات لا يمحوها غيابه.. فهى تغييرات جذرية فى النخاع المجتمعى.. حيث بث روحاً جديدة فى أوصال مجتمع يغط فى نوم عميق، لقد حاول الزعيم - ونجحت محاولته - أن يوقظ المجتمع ويشحذ الهمم ويضبط مؤشر الوطنية الحقيقية بعيدا عن ألاعيب السياسة وبحورها العميقة.

وكان طبيعيا أن يحمل الراية من بعده من كان يشاركه حملها.. فكان فريد بك هو خليل الجهاد والكفاح مع الزعيم وهو من حمل الراية من بعده والتفت حوله الأمة قاطبة.

لقد القى فريد بك خطبة باكية دامعة وكان حينئذ رئيسا للحزب الوطنى

«حزب الجلاء» وكان هو أول المتحدثين فى حفل التأبين الذى أقيم للزعيم فى ذكرى الأربعين.

يقول فريد بك «إن اجتماعكم هذا لأكبر دليل وأسطع برهان على أن رئيسنا المرحوم مصطفى كامل باشا لم يمت، نعم لم تمت من جمعت كلمته هذه الألوف المؤلفة من الناس بل هذه الملايين العديدة من الخلائق، بعد أن كنت لا ترى اثنين يتفقان على عمل ما، حتى ضرب بتخاذلنا المثل وقالوا إن المصريين اتفقوا على ألا يتفقوا، ولكن الفقيد بث هذه الروح الجديدة بين جميع طبقات الأمة المصرية بثباته وعدم تزعزع عزيمته أمام ما صادفه من العقبات ولاقاه من الصعوبات التى أنا أعلم بها من غيرى.. وضع مصطفى كامل نصب عينيه خدمة مصر وإيقاظها من سباتها منذ كان بمدرسة الحقوق الخديوية بل منذ كان بالمدارس الثانوية، وسار فى طريقه الشريف طريق التفانى فى خدمة البلاد لا يلوى يمنة او يسرة، حتى توج الله أعماله بالنجاح ورأى غرسه يانعا قبل أن يترك هذا العالم الفانى، نعم ان مصطفى كامل لم يمت بل روحه ترفرف علينا وتنظر الينا من الملكوت الأعلى تشجعنا على السير فى الطريق المستقيم الذى رسمه لنا ولن نترك هذا الغراس الشريف غراس الوطنية الحقة يزول أو يعوقه أى عائق عن النمو، ولو فعلنا ذلك لارتكبنا خيانة نحو الوطن المحبوب..إن هذه الفكرة السامية. فكرة خدمة الوطن حتى الممات، كانت تملأ جنانه ووجدانه منذ بدأ عمله، لقد نجح مصطفى كامل فى عمله فقد أصبح القوم كلهم أحياء، أصبح القوم كلهم متفقين على التعاون والتضافر على خدمة هذه البلاد العزيزة، فاستمروا يا إخوانى فى هذا الطريق السوى، ولا يقعدنكم عن العمل تثبيط بعض ضعفاء العزيمة أو انتقاد بعض الجاهلين والمتجاهلين لمقاصدنا الشريفة، فإن سرنا بعزيمة واتحاد لا يلبث أهل القطر أجمعهم أن يصبحوا كالبنيان المرصوص يشد بعضنا بعضا ونلنا ما كان يسعى إليه فقيدنا.. فحق مصر أن تبكيه بدلاً من الدموع دما.. ووجب على كل مصرى أن يضع صورته أمامه ليقتبس نور الحرية من خدماته التى كانت أشعتها تخترق الحجب فتصل إلى أعماق القلوب، ووجب علينا أن نستنير بما كتبه من المواعظ والحكم الوطنية، نعم إن صورته لن تغيب عنا، بل هى منقوشة على صفحات قلوبنا، كما أن أقواله

مكتوبة بأحرف من نور على أفئدتنا لقد كانت شهامته وذكاؤه تنبعث من محياه فتحرك القلوب الجامدة، لقد شهد له ألد أعدائه بقوة التأثير بخلابة منطقه وقوة حجته ونفوذ روحه إلى نفس المتكل فيخرج من لدنه مقتنعا معترفا بفضله ان لم يكن جهرا فسرا.. لقد اجتمعتم هنا لتأبين المرحوم مصطفى كامل وذكر فضائله نظما ونثرا، ولكن أنى للأدباء والشعراء أن يوفوه حقه من الثناء والمديح وهو من النوابغ الذين يبعثهم الله كل حقبة من الزمان لإحياء موات الأمم والقيام بواجب إحياء من هم أموات في قالب أحياء.. إن أحسن تأبين لفقيدنا المرحوم هو أن نسير فى الطريق السوى الذى رسمه ومهده لنا، وأن تضم صفوفنا حتى لا يدخل بينها منافق أو مخاتل، ونسير كرجل واحد إلى فتح قلعة الحرية وامتلاك أبراجها، وتحصينها بالنظام النيابى الدستورى حتى لا يكون إخراجنا منها ثانيا، إن أحسن تأبين لفقيدنا العزيز ترتاح إليه روحه الشريفة الطاهرة هو أن نبرهن للعالم أجمع أن مصطفى كامل لم يمت وأن روحه اتحدت بروح كل فرد منا فأصبحنا كلنا مصطفى كامل..

فيا أيها الفقيد المحبوب ويا أيتها الروح الطاهرة قد تحقق ما كنت تؤمله وما قضيت زهرة شبابك للوصول إليه وأصبحت الأمة بعناصرها الثلاثة - مسلمين ومسيحيين ويهود - كلها متجمعة كرجل واحد متفقة الأفكار والقلوب لا يمنعها من الحصول على رغائبها مانع ولا تقف فى وجهها قوة، فقوة الأمة فوق كل قوة وأمتنا المصرية قد شعرت بقوتها وتركت اليأس ظهريا اتباعا لقوله رحمه الله «لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة».

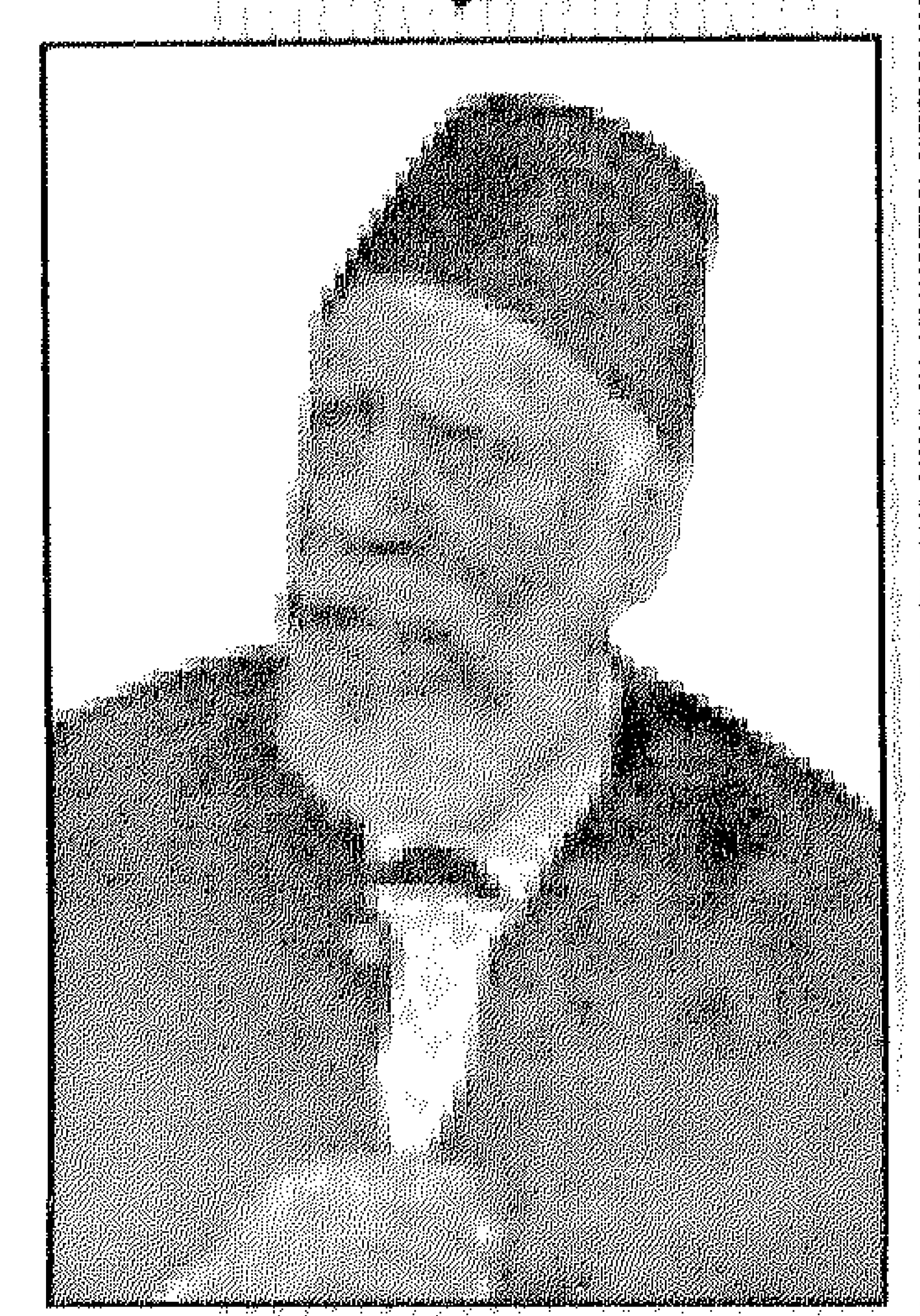
إخوانى:

قال الله فى محكم التنزيل " وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم.. وقال تعالى: «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا» .

تلك كانت كلمات الرثاء الدامعة الباكية التى ألقاها الخليل فى تأبين خليله.

زعيم ورجال







«كيف تمنعنى وأنا ابن الوزير»

«إننى لا أطلب منك إلا ما وجدت أنت من مثلك يوم كنت تلميذاً مثلى وما يدريك ألا أكون عظيماً أخدم وطنى غداً بأكثر مما تخدمه أنت اليوم».

هذه الكلمات التى وجهها التلميذ فى الصف الأول الثانوى «مصطفى كامل» إلى وزير المعارف العمومية «على باشا مبارك» وهو يتظلم نيابة عن زملائه من خلل فى أحد أنظمة الامتحانات أدى إلى رسوبه وزملائه فى الامتحان.

إنها شجاعة لا تحتاج إلى تدليل ولباقة مبكرة تلمحها من بين ثنايا كلماته وعباراته الرصينة، يعلق المؤرخ عبد الرحمن الرافعى على هذه الواقعة بقوله " وكأنه ليس بتلميذ وكأنما الباشا الذى يخاطبه لبس وزير المعارف العمومية وبعدما خرج التلميذ ابتسم الباشا وقال إننى أعجب بشجاعة هذا التلميذ ويلذ لى أن يتكلم أمامى بمثل هذه الشجاعة النفسية، ولذلك لم أخبره بما أمرت اليوم لأجله وكان قد أصدر أمره بما طلب منه من قبل وتركه يخاطبه بمثل هذه اللهجة متلذذا بما كان يعجبه من كلامه وجداله.

ويقص على بك فهمى شقيق الزعيم مصطفى كامل ثلاث قصص تظهر قوة الصلة بين على باشا مبارك وبين مصطفى كامل حيث، يقول إن العلاقة بينهما بدأت ومصطفى تلميذ فى السنة الأولى فى الدراسة الثانوية ففى هذه السنة، تم رفع نسبة النجاح وترتب على ذلك رسوب زملاء مصطفى، وكان هو من الراسبين فلم يستسلم لليأس وقصد من توه إلى مكتب الوزير فأراد الحاجب أن يرده عن الباب فصاح فيه " كيف تمنعنى وأنا ابن الوزير" فأفسح الحاجب الطريق فورا فقال مصطفى وهو فى طريقه إلى الوزير فى حجرته.. ابنه فى العلم.. وعرض مصطفى مظلمته على على باشا مبارك فى جرأة وثبات لفتت نظره وأثارت اهتمامه ولكنه أراد أن يداعب هذا الصبى الصغير فقال " ولكن ماذا أنت فاعل لو أصررت على القرار الذى تتظلم منه ".. فقال التلميذ الصغير :

" أعوذ برجوعك إلى الحق من إصرارك عليه " فقال الوزير " دعك من الاستعاذة بالعدل الذى أعزه من الجور الذى أكرهه وربما كان ذلك القرار

تخفى الحكمة فى وضعه على مثلك ومثل إخوانك واقتضت مشيئتى ألا أعدل عنه فماذا يكون منك؟ فقال مصطفى: أنصرف من حضرتك وأذهب إلى إخوانى فأقول لهم إن الجالس على كرسى وزارة المعارف نسى الأبوة ولم تكف سعة علمه ونزاهة نفسه فى تحوله عن شئ اتضح له الخطأ فيه.. وقد عدل بعد ذلك القرار وخفضت نسبة النجاح كما سبق وأوضحنا.

يقول الأستاذ فتحى رضوان تعليقاً على هذا الحوار «الواقعة على هذه الصورة تكاد تكون بعيدة عن التصديق فالمسألة بين صبى فى السنة الأولى من الدراسة الثانوية أخطأه الحظ فى الامتحان ووزير، قصة غير متفقة مع المألوف لا مألوف ذلك الزمان ولا مألوف هذه الأيام لولا أننى سمعت» - هكذا يقول الأستاذ فتحى رضوان - عن الأستاذ مصطفى الشوربجى بك: إنه كان يزور سعد باشا زغلول وهو وزير المعارف فى أمور تشبه ما كان يتردد من أجلها مصطفى كامل على على باشا مبارك، مما يؤكد أن وزراء العهد الماضى على صرامة تقاليد ذلك العهد وضخامة منصب الوزير وعظم جاهه لم يكونوا يترفعون عن إفساح صدورهم للناشئة فى الجد من الأمور.

والقصة الثانية التى يرويها على بك فهمى عن العلاقة بين مصطفى كامل وعلى باشا مبارك يقول: «وقد حدث أن ضرب ضابط المدرسة مصطفى على ذراعه ضربة موجعة قاسية بلا ذنب ارتكبه إذ اتهمه بخطأ وقع فيه زميل لمصطفى فى أثناء اصطفاف التلاميذ فى ساحة المدرسة، فأسرع مصطفى إلى الوزير وشكا إليه ظلم الضابط إياه فقصد الوزير إلى المدرسة بعربته وإلى جواره مصطفى كامل وحقق الوزير بنفسه فى الأمر وثبت له صدق شكواه وسمع من التلاميذ والمدرسين تزكية لخلق مصطفى وجده؛ مما غضب معه الوزير غضبا كاد يحتم معه فصل الضابط وسمع الوزير مصطفى وهو يخطب يوما فى المدرسة فسرته فصاحته، وأعجب بطلاقة لسانه وقد شهد يوسف بك عرفى أنه رأى مصطفى كامل وهو تلميذ فى المدرسة الثانوية يدخل إلى حجرة الاستقبال فى منزل على باشا مبارك فيصافح الحاضرين وفى مقدمتهم الوزير بيده ويشارك فيما يدور فى المجلس من حديث وأنه رأى مصطفى يطالع للوزير والحاضرين إحدى الصحف بصوت عالٍ مسموع وواضح، ثم استأذن بعد قليل وانصرف، ويعلق الأستاذ فتحى رضوان على

العلاقة بين العملاقين على باشا مبارك ومصطفى كامل بقوله: «ولقد رأيت أن أطيل الوقوف أمام هذه الصداقة التى ربطت اثنين من أكبر المصريين أثرا فى حياة مصر الحديثة وجمعت بينهما على اختلاف الدورين اللذين لعباهما، فعلى باشا مبارك عاون فى خلق مصر فى ميدان الثقافة والتعليم وثانيهما بنى صرحها الوطنى ووضع أساس كفاحها الحديث وليس القصد من هذه الوقفة هو مجرد إثبات هذه العلاقة، بل تسجيل أن مصطفى مدين لها بالكثير فلا شك أن هذا العطف والتشجيع من على باشا مبارك هما أول ما ارتوت منه هذه الشجرة الباسقة فإن افساح المكان له فى هذا المجلس الكبير الذى يضم الوزير والعالم والشاعر والمؤرخ والاستماع إلى ما يقولون وتشجيعه على قراءة الصحف على مسمع من الناس بصوت عال يؤكد فيه فقط حب الخطابة ولم يذهب عنه الروع عند مخاطبة الجموعً، بل قوى عنده حب الاشتغال بالمسائل العامة وتتبعها وفهمها».

يتضح جلياً أن الزعيم الشاب مصطفى كامل كان متفرداً شجاعاً مقداماً متسماً بالثبات واللباقة والأدب لا يهاب أحداً ولا يخشى موقفاً ولا يتنازل عما يراه حقا، لقد بدت ملامح تلك الشخصية منذ سنوات عمره الأولى وها هو يخاطب وزيراً ويجادله ليس ذلك فحسب، بل ويغضب ويغادر مجلس وزير فى حجم على باشا مبارك، إذن الزعامة لا تولد فجأة ولا تظهر مصادفة لكنها استعداد فطرى يصقل بالمهارات الشخصية.

وبعد رحيل على مبارك باشا كتب مصطفى كامل يؤنب الأمة على إهمالها تاريخ هذا الرجل فقال:

«لا شىء يرفع حال مقام الوطنية فى بلادنا مثل إحياء ذكرى الرجال الذين أخلصوا فى خدمتها، وقضوا أعمارهم فى العمل لإعلاء شأنها وتحقيق آمالها ولا شئ يميت الوطن والوطنية مثل تمكن داء النسيان فى أمة وجهلها لتاريخها، وعدم تقديرها للرجال المخلصين فى خدمتها، وقد بليت هذه الأمة المصرية العزيزة بذلك الداء العضال فتراها لا تذكر الرجال إلا إذا كانوا القابضين على أزمة أمورها، أو المحركين لحركة الرأى العام فيها، ولا تهتم بالحوادث إلا عند حدوثها فليس للمصائب فى نفوس أبنائها أثر يبقى وليس كذلك للعظمة الماضية بقية باقية فى الأفئدة والضمائر، فلا غرابة إذا كان

ذلك سبباً من أسباب تأخرها وعلة من علل انحطاطها.. اللهم إن مصر لا تنال من السعادة نصيبها، ولا تبلغ من الاستقلال مطلبها إلا إذا جعل أساس تربية أبنائها تخليد ذكرى النابغين من رجالها، وبثاً فى نفوس الناشئين الاقتداء بهم ومحبة الديار محبة العارف بجمالها، المحيط بأسرار تاريخها، الخبير بعلل تأخرها وأدواء انحطاطها، وإلا فمحال أن يبنى على غير هذا الأساس مجد صحيح وعز دائم..».





سعد باشا زغلول

.. وزير فى مصر

«ألا إن الذين كانوا يحترمون الوزير كقاض ليأسفون على حاضره كل الأسف، وليخافون على مستقبله كل الخوف، ويفضلون ماضيه كل التفضيل؛ ذلك لأن الوزير قائم الآن على منحدر هائل مخيف»

كانت تلك الكلمات القاسية واللاذعة جزءاً من مقال كتبه الزعيم مصطفى كامل، منتقدا وزير المعارف العمومية آنذاك سعد باشا زغلول؛ حيث تمزقت الشعرة الأخيرة فى حبل العلاقة المتهالك الذى كان يجمع الرجلين..

لقد مرت العلاقة بين مصطفى كامل وسعد زغلول بمرحلتين، كما يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه «مصطفى كامل.. باعث الحركة الوطنية»: المرحلة الأولى كانت ودية ومتوازنة إلى حد كبير، فحينما بدأ مصطفى كامل حياته الوطنية سنة ١٨٩٠ كان سعد زغلول لا يزال المحامى النابه سعد أفندى زغلول، وكان منصرفا إلى أعماله فى المحاماة ثم عين سنة ١٨٩٢ قاضيا «مستشارا» فانقطع إلى قضائه بمحكمة الاستئناف واستمرت العلاقة الودية بين مصطفى وسعد حتى عام ١٩٠٦، يحكى فؤاد باشا سليم للمؤرخ عبد الرحمن الرافعى أن سعد بك زغلول كان يتردد على دار والده لطيف باشا سليم، وهناك عرف مصطفى كامل؛ إذ كان طالبا بمدرسة الحقوق ثم تخلف سعد عن جماعة لطيف باشا لما ظهر عليها من طابع المعارضة ضد الاحتلال، على أن علاقته بمصطفى كامل ظلت ودية، وحين صدر «اللواء» عام ١٩٠٠ كان سعد زغلول لا يزال مستشارا بمحكمة الاستئناف وشقيقه أحمد فتحى بك زغلول رئيسا لمحكمة مصر الابتدائية، وقد انقطعت علاقة مصطقى كامل بشقيق سعد زغلول وتحولت إلى خصومة شديدة بعد أن اشترك فى الحكم على المتهمين فى حادث دنشواى؛ حيث كان أحد قضاة المحكمة وهو الذى كتب الحكم بقلمه وازدادت صلته بالوكالة البريطانية ورقى بعد الحكم وكيلا لوزارة الحقانية، فحمل عليه مصطفى حملة شديدة وسماه «قاضى دنشواى» وقال له فى منزل سعد باشا يوم ٢٠ أكتوبر ١٩٠٦ عن حكمه فى قضية دنشواى.

" يحول بيننا وبينك إلى آخر لحظة من الحياة " وعندما تم تعيين سعد باشا

وزيرا للمعارف امتدح مصطفى كامل صفاته وأمل الخير على يده وكتب فى اللواء " لما قابل جناب اللورد كرومر أول البارحة سمو الخديوى المعظم فى سراى التين عرض عليه تعيين سعادة سعد باشا زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية وزيرا للمعارف المصرية فارتاح سمو الخديوى لهذا الطلب لما يعهده من سعادة سعد بك من الفضل والعلم والأخلاق القديمة، وأن ما يعرفه الناس فى أخلاق وصفات سعد بك زغلول وهو فى المحاماة أولا وفى القضاء ثانيا يحملهم جميعا على الارتياح لهذا التعيين الذى صادف مصريا مشهورا بالكفاءة والدراية والعلم الغزير وحب الإنصاف والعدل.. ويضيف مصطفى كامل متسائلا: هل يكون سعد زغلول كبقية الوزراء أمره وأمر المعارف بيد المستر دنلوب أم يكون وزيرا اسما وعملا ويحيى سلطة الوزراء المصريين، اللهم إننا عرفنا سعد بك زغلول فى ماضيه وحاضره أشد الناس تمسكا باستقلاله وقوته وأكثرهم انتقادا على الذين تركوا سلطة مناصبهم لغيرهم وسمعناه يقرع بلهجة حادة الكسالى والمقصرين صغارا كانوا أو كبارا فإذا بقى سعد بك فى وظيفته الجديدة كما هو وكما كان وهو ما نعتقد؛ أملنا خيرا كبيرا للمعارف، ورجونا سريان هذه الروح إلى بقية النظار وعودة الحياة المصرية إلى الوزارة على أنه إذا كان جناب اللورد كرومر اختار سعد بك زغلول وزيرا للمعارف تقديرا لعلمه وإعلانا لتغيير جنابه للسياسة الاحتلالية.. فنحن اليوم لا نبتهج بتعيين سعادة سعد بك زغلول وزيرا للمعارف إلا بأمل أن يكون كما كان على مبارك باشا والفلكى باشا وأمثالهما ممن خدموا العلم فى هذا القطر خدمات خالدة وكانت لهم فى مناصبهم الكلمة النافذة والرأى المتبع ونطالبه قبل مطالبتنا للإحتلال بأن يكون كذلك وأن يكون فى مستقبله كما هو فى حاضره وكما هو فى ماضيه ووالرجل المستقل الذى لا يخدعه منصب ولا مال ".

لكن سرعان ما تبدلت الأمور والمواقف خاصة مواقف سعد باشا وزير المعارف، ولاسيما قراره بالانسحاب من لجنة «مشروع الجامعة المصرية» وهو الرئيس الفعلى لهذه اللجنة، بحجة كثرة مشاغله، وهو ما كان بمثابة تأريخ جديد للعلاقة بين الرجلين حيث بدأ التوتر يغلف أجواء تلك العلاقة فمصطفى كامل لم يكن لديه أية اعتبارات سوى المصلحة العامة، وكان لا

يهتم كثيرا بالعلاقات والاعتبارات الشخصية إذا ما ظهر تعارض بين تلك الاعتبارات واعتبارات المصلحة الوطنية، لذلك فلا عجب أن تتحول العلاقة الودية مع سعد باشا وهو وزير للمعارف إلى علاقة متوترة يتبعها نقد لاذع واتهامات خطيرة .

كتب الزعيم مصطفى كامل معلقا على انسحاب سعد زغلول من مشروع الجامعة " كيف يهتم المستشار فى الاستئناف بمشروع علمى ولا يهتم به ناظر المعارف " وقال أيضا " إن تخليه يظهر الخطر الذى يحيق بالمشروعات العامة إذا كان لرجال لحكومة دخل فيها واعتقادنا أن أقوى ضمانة لأمثال مشروع الجامعة المصرية أن يكون القائم بها هو الأمة دون سواها " ووصلت شدة نقد الزعيم مصطفى كامل لسعد باشا زغلول حين اعترض الأخير على طلب الجمعية العمومية من الحكومة بجعل التعليم فى المدارس الأميرية باللغة العربية بدلا من اللغة الإنجليزية وقال سعد باشا مدافعا عن وجهة نظره " إن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الأجنبية بمحض رغبتها أو اتباعا لشهوتها ولكنها فعلت ذلك مراعاة لمصلحة الأمة.. إذا فرضنا أنه يمكننا أن نجعل التعليم من الآن باللغة لعربية وشرعنا فيه فعلا فإننا نكون أسأنا إلى بلادنا والى أنفسنا إساءة كبرى لأنه لا يمكن للذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوظفوا فى الجمارك والبوستة والمحاكم المختلطة والمصالح العديدة المختلفة"

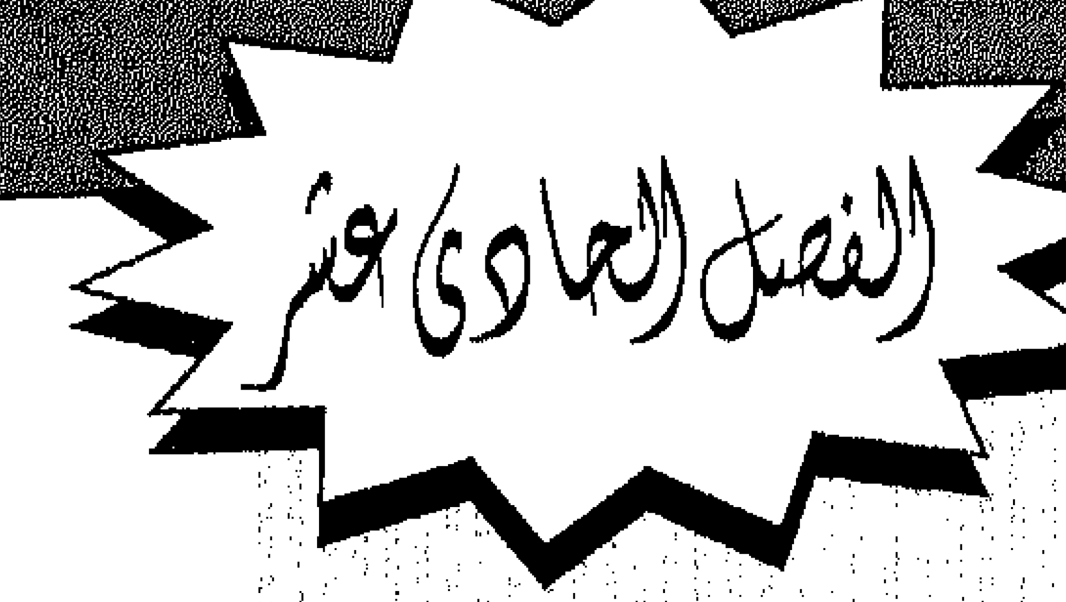
وبعد هذا الموقف الغريب من وزير المعارف سعد باشا زغلول تحول النقد إلى هجوم ضارٍ من خلال مقال عنيف كتبه مصطفى كامل تحت عنوان «فشل وزير».

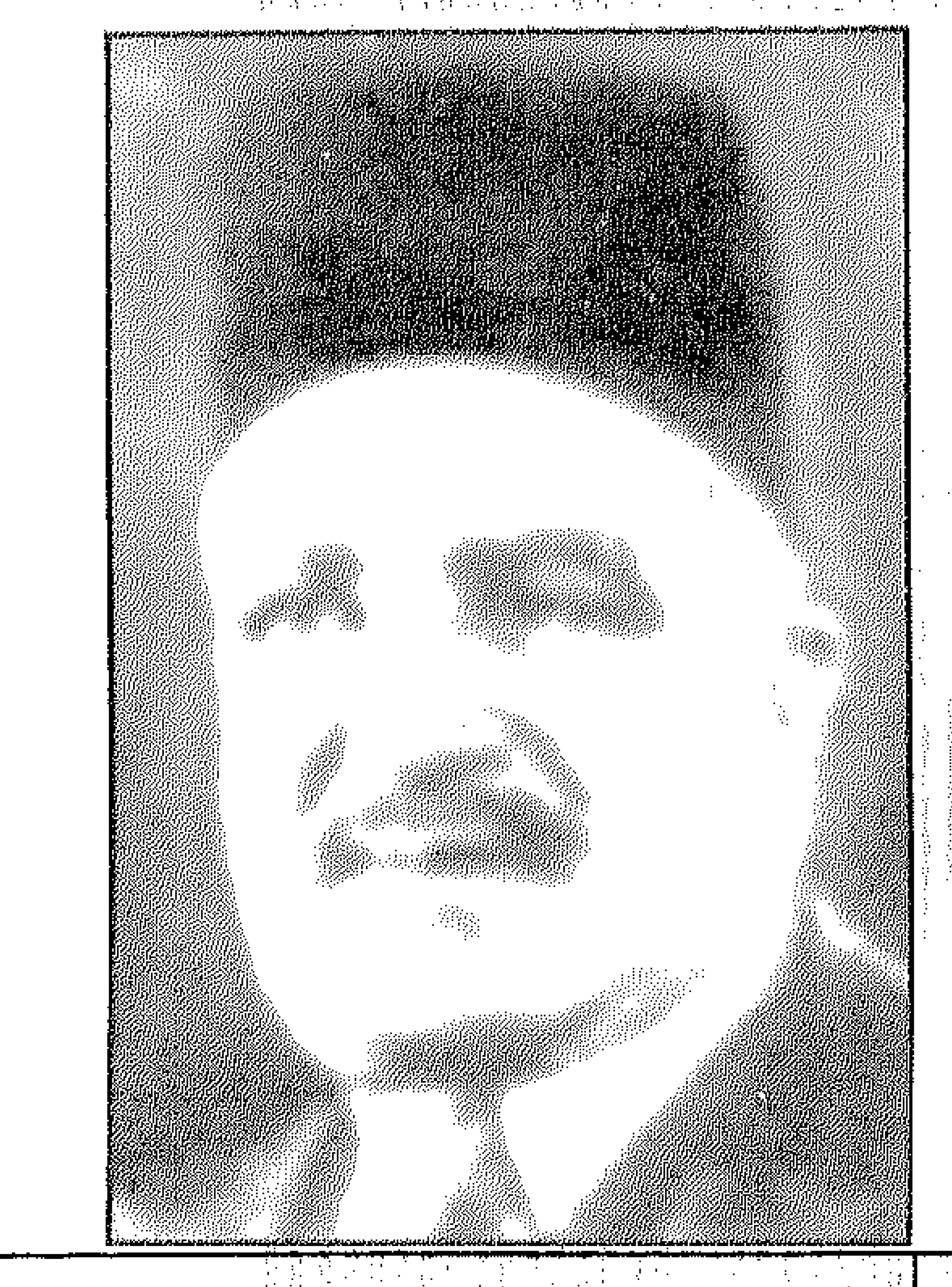
جاء فيه "إن الناس قد فهموا الآن بأوضح مما كانوا يفهمون من قبل.. لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف العمومية صهر رئيس الوزارة مصطفى فهمى باشا الأمين على وحيه والخادم لسياسته وفهموا أيضا لماذا قامت الصحف الإنجليزية والصحف المتحزبة للإنجليز وذرت الرماد فى العيون قائلة إن الوزير الجديد هو من الحزب الوطنى فى حين أن كل شئ من أحواله وشئونه يدل على شدة ميله للسلطة فسعد باشا زغلول قد فشل فشلا عظيما فى الجمعية العمومية ولو كان وزيرا أوربيا يتكلم أمام برلمان لكان قد استقال فى الحال لكنه وزير فى مصر يعتقد أن ثقة اللورد كرومر به كافية

وحدها لحمايته.. ألا إن الذين كانوا يحترمون الوزير كقاض ليأسفون على حاضره كل الأسف وليخافون على مستقبله كل الخوف ويفضلون ماضيه كل التفضيل ذلك لأن الوزير قائم الآن على منحدر هائل مخيف».

وبعد رحيل مصطفى باشا كامل وبعد ثورة ١٩١٩ وقف سعد باشا زغلول ليلقى تحية الإعزاز والإكبار لروح فقيد الوطن فقال..

" أعلم أن البلاد تصبو إلى الاستقلال وأن حركتها الاستقلالية بدأت من زمان طويل خصوصا من يوم أن ظهر فيها المرحوم مصطفى كامل وتلاه المرحوم فريد بك هؤلاء الذين أسسوا وأيدوا ما أسسوا فى النهضة الحاضرة " ذلك ما قاله سعد باشا زغلول فى العشرين من أبريل عام ١٩٢١بفندق شبرد بمدينة القاهرة، وهو ما يؤكد جزما بريادة مصطفى كامل للحركة الوطنية المصرية فى العصر الحديث، لقد اعتبر البعض أن سعد باشا زغلول هو الأب الشرعى للحركة الوطنية المعاصرة لكن ما قاله سعد باشا نفسه يدحض هذا الطرح من الأساس.. يقول سعد باشا زغلول فى عام ١٩٢٣ " لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم.. لا أقول ذلك ولا أدعيه بل لا أتصوره، إنما نهضتكم قديمة تبتدئ من عهد مؤسس الأسرة المالكة محمد على باشا، وللحركة العرابية فضل عظيم فيها، وكذلك للسيد جمال الدين الأفغانى وأتباعه وتلاميذه أثر كبير وللمرحوم مصطفى كامل باشا فضل غزير فيها».





طلعت باشا حرب

رائد الصناعة والاقتصاد

"إن رفع الحجاب وإباحة السفور كلاهما أمنية،

تتمناها القوى الاستعمارية على مر العصور

(طلعت حرب)

كانت المعركة الفكرية حول «تحرير المرأة» حامية الوطيس، وكان طرفا تلك المعركة من أساطين الكلمة والفكر والإصلاح، الفريق الأول يرى الخلاص والنهضة فى اتباع المنهج الغربى، حيث حرية المرأة الكاملة بعيدا عن قيود الحجاب الذى اعتبروه حجابا للعقل لا حجابا للجسد، وكان قاسم أمين هو زعيم هذا التيار يشاركه أحمد لطفى السيد وسعد زغلول وكان الإمام محمد عبده يبارك ويؤيد تلك التوجهات المتحررة، بينما وقف الزعيم مصطفى كامل وطلعت حرب مرابطين حفاظا على الهوية الإسلامية فى مواجهة هذه التيارات الوافدة من الغرب.

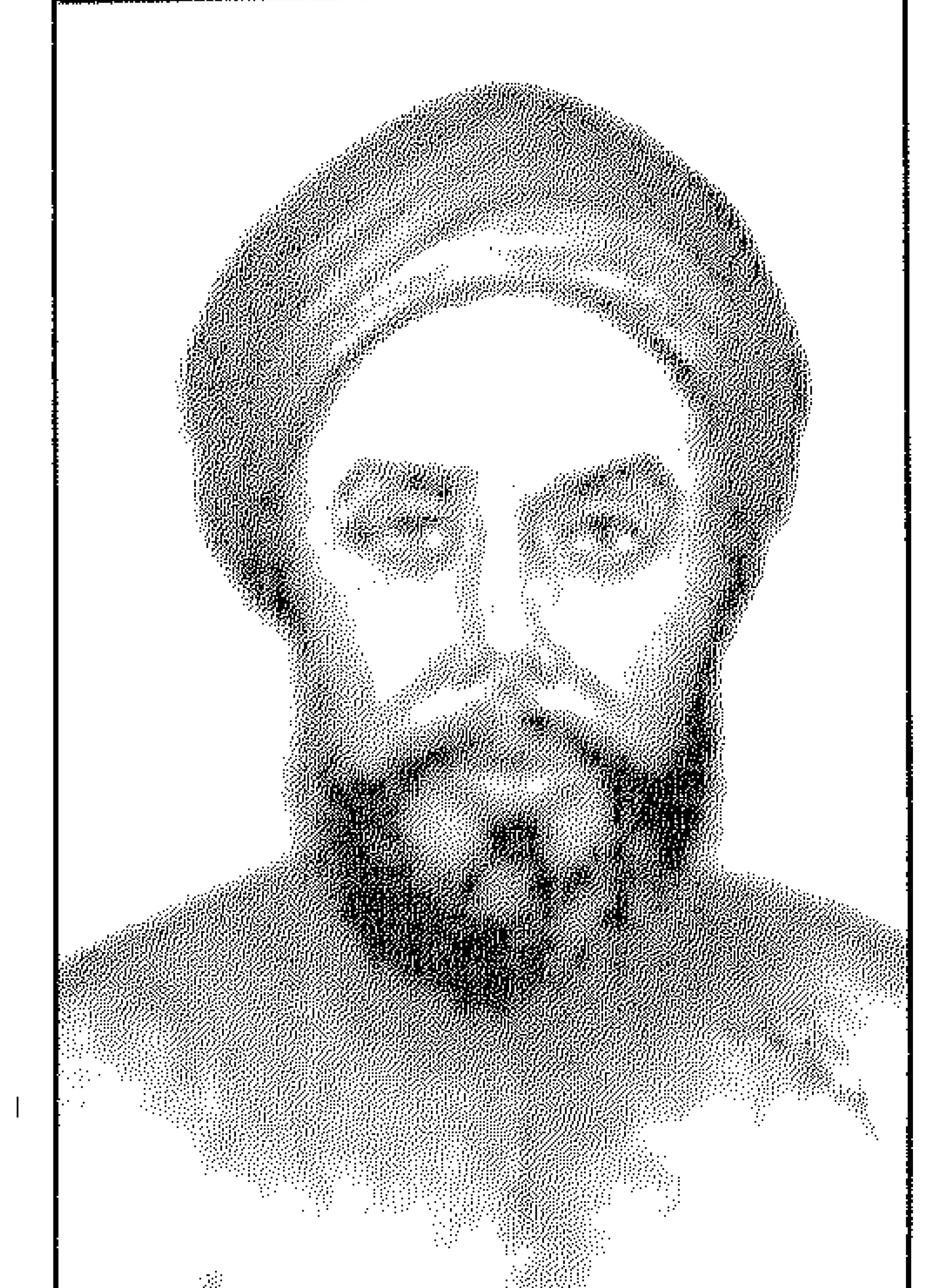
ففى عام ١٨٩٩ صدر كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة» والذى كان بمثابة صدمة قاسية للمجتمع المصرى المحافظ ، ولطمة شديدة على وجه قادة ذلك التيار الشرقى المحافظ، فقد دعا قاسم أمين إلى سفور وجه المرأة ورفع النقاب عنه لأنه ليس من الإسلام فى شيء، وقد وصف الزعيم مصطفى كامل الكتاب بأنه «مهين للمرأة وبأنه يروج لأفكار البريطانيين».

وأصدر طلعت حرب كتابا للرد على كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين بعنوان «تربية المرأة والحجاب» أوضح فيه أن رفع الحجاب وإباحة السفور كلاهما أمنية تتمناها القوى الاستعمارية على مر العصور، واستمرت المعركة سجالا بين الفريقين، وكان مصطفى كامل يكتب فى جريدة اللواء منددا بتوجهات قاسم أمين ورفاقه، ومشجعا لطلعت حرب ورفاقه، واستمر ذلك السجال حتى صدر الكتاب الثانى لقاسم أمين بعنوان «المرأة الجديدة» أكد فيه آراءه مستندا على آراء عدد من العلماء فى الغرب .

نعم لقد كانت رحلة «محمد أفندى طلعت حرب» رحلة جد واجتهاد ومثابرة، لقد بدأ كاتبا وانتهى به المطاف كأعظم اقتصادى مصرى فى العصر الحديث، كان صديقا حميما للزعيم مصطفى كامل الذى وصفه بالكاتب الفاضل محمد أفندى طلعت حرب، وبدأت الطاقات المالية والاقتصادية تتفجر لدى طلعت حرب وبدأ اسمه يلمع فى هذه المجالات.. لقد حقق نجاحات متتالية فى فترات وجيزة وكان مصطفى كامل متابعا ومشجعا ومؤيدا، ولِمَ لا وهو الصديق الصدوق له على طول الخط، وكان الزعيم مصطفى كامل يكتب دائما فى اللواء ويشيد دائما بصاحبه وبأعماله وبإنجازاته وكتب عنه ذات مرة " من الأشياء التى تسر كل مصرى يحب بلاده ما يكون منها شاهدا على كفاءة المصرى فى الأعمال الجسيمة وتقدير الأوروبيين له حق قدره.. حضرة المقدام العامل محمد طلعت بك حرب مدير قلم قضايا الدائرة السنية سابقا هو أول مصرى نقدمه اليوم للقراء انتخب مديرا لشركتين عظيمتين خلفا لعظماء الماليين الأوروبيين،إن الثقة بهذا المصرى الجليل عظيمة كما لاشك فى أن هاتين الشركتين ستصلان إلى شأن بعيد من الرقى والفلاح بما أوتيه حضرة مديرهما الجديد من سمو الإدراك وسعة الاطلاع فى المسائل المالية، فنهنئ الشركتين به ونسأل العلى القادر أن يهبنا الكثيرين من أمثاله ".

لقد كانت البدايات الأولى لطلعت حرب قوية إلى الحد الذى جعل الزعيم مصطفى كامل يشيد به فى «اللواء» ويتنبأ بصعود نجمه فى عالم المال والاقتصاد، وكانت لدى مصطفى كامل رؤية واضحة فالاقتصاد والمال أبدا لم يكن منفصلا عن السياسة، وقواعد النضال السياسى لا يجب أن تغفل الأبعاد الاقتصادية والمالية.

الفصل الثانى عشر



عبد الله النديم

خطيب الثورة العرابية

" ما خلقت الرجال إلا لمثابرة الأهوال، ومصادمة
النوائب والعاقل يتلذذ بما يراه فى ذهول "

عبد الله النديم

لعمرى ما أعمق هذه الرؤية الفلسفية وما أروع تلك المفردات القوية، بيد أن حصاد العمر كان مرارة وأهوالا ومصادمات لكن هذا الرجل كان يتلذذ فى ذهول وهذا ما يدعو بالفعل إلى الذهول، إنه خطيب الثورة العرابية (عبدالله النديم) الذى بقى كوهج تحت الرماد، بعد أن خمدت الثورة العرابية، لقد كان (النديم) بمثابة الذاكرة الحية للثورة العرابية التى تلاشت ولم يبق من آثارها سوى تراث النضال الذى ربما لا يدرى كثيرون عنه شيئا، لقد اختفى عبدالله النديم تسع سنوات كاملة وكانت السلطات تبحث عنه فى أنحاء القطر المصرى وحين وجدته فى مديرية الغربية عومل بطريقة راقية فلم توضع الأغلال فى يديه ولم يتم إيداعه فى الحجز ومن حسن الطالع أن وكيل النائب العام الذى قام بالتحقيق مع (النديم) هو قاسم أمين حيث احتفى به كثيرا ثم أطلق الخديوى سراحه بعد ذلك.

وهنا يقول الأستاذ فتحى رضوان، " ولما أطلق الخديوى سراح عبدالله النديم لم يسع إلى منصب يشغله، وإنما أصدر جريدة (الأستاذ) التى عاودت النفخ فى روح الثورة وفى مناهضة الاحتلال ومدافعته والتنديد بجرائمه وآثامه، والثابت أن مصطفى كامل أخذ من السيد عبد الله النديم الكثير من أسرار الثورة العرابية، ولا شك أنه أفاد من روحه، ولعله استمع إليه وهو يخطب ولا شك أنه استمع إليه وهو يتحدث وقرأ له جريدته وشعره، وتلذذ بزجله وطربت نفسه لمداعباته وانطبعت فى عقله صور من حياته ونضاله وتحرره من قيود الحياة الثقيلة.. قيود المأكل والملبس والمسكن.. ومن الحقائق التى يجب أن تذكر فى هذا السياق أن السيد عبد لله النديم استقبل فى

العدد الصادر من مجلة الأستاذ بتاريخ ٢٨ فبراير عام ١٨٩٣صحيفة المدرسة لتى أخرجها مصطفى كامل فى ١٨ فبراير من نفس العام وكان مصطفى ما زال طالبا فى مدرسة الحقوق ".

بيد أن مصطفى كامل استفاد كثيرا من تجربة العرابيين وتلقى دروسا وعبرا وعظات عن طريق عبد الله النديم الذى اتصل به فور عودته من المنفى، واطلع مصطفى كامل على العديد من أسرار الثورة العرابية وعن الأخطاء العديدة التى وقع فيها العرابيون، بيد أن الدور الذى لعبه عبد الله النديم فى إعادة إشعال الحركة الوطنية مع الزعيم مصطفى كامل كان محورياً وخطيراً.

يقول عبد الرحمن الرافعى فى هذا الصدد " فإن أحاديث عبد الله النديم قد أفادته كثيراً فى تعرف مواطن الخطأ وأسباب الإخفاق فى الثورة العرابية فتجنبها فى جهاده كما عرف شيئا كثيرا من دسائس السياسة الإنجليزية تلك الدسائس التى كان لها دخل كبير فى إخفاق الثورة ووقوع الاحتلال وإنك لتلمح فى حياة مصطفى كامل الوطنية والسياسة مبلغ تجنبه أخطاء العرابيين، فهو لم يفكر فى اتخاذ الجيش أداة للحركة السياسية بل كان يعتمد على قوة الرأى العام وتربية الشعب التربية الوطنية والأخلاقية الكفيلة بتوطيد دعائم الحرية والديمقراطية، وإذ علم أن اصطدام العرابيين بالخديوى توفيق باشا قد مكن للدسائس الإنجليزية من أن توقع الفرقة والانقسام فى مصر فإنه نأى عن هذه السياسة وسلك بالحركة الوطنية سبيل التفاهم مع عباس الثانى وتفادى الاصطدام به برغم ما شجر بينهما من خلاف، وكان ينقم من عرابى استسلامه للإنجليز وأدرك مبلغ تأثير هذا الاستسلام فى حالة الأمة المعنوية فرسم لنفسه خطة المقاومة المستمرة للاحتلال مقاومة لا ضعف فيها ولا هوادة ولا تراجع، وهكذا كانت أخطاء الثورة العرابية درسا لباعث الحركة الوطنية جنبه مواضع الخيبة والإخفاق فى الجهاد والزعامة الحقة هى التى تستفيد من تجارب الماضى وتعتبر بمصائب الوطن فتقيه مواطن الزلل وتسلك بالأمة سبيل الحكمة والرشاد ".

إن سعة أفق الزعيم مصطفى كامل وتنكره لذاته وإخلاصه لقضية وطنه جعلته يبحث عن خطيب الثورة العرابية ويتصل به ويتعاون معه ويحلل أسباب فشل الثورة العربية، ويستخلص منها العبر والعظات التى وضعها نصب عينيه أثناء رحلة جهاده وكفاحه الوطنى.





قاسم أمين

رأيت قلب مصر خافقاً

فقط.. ثلاثة وسبعون يوما هى التى فصلت بين وفاة الزعيم مصطفى كامل والمفكر قاسم أمين، فالأول وافته المنية فى اليوم العاشر من فبراير من العام ١٩٠٨ عن عمر يناهز أربعة وثلاثين عاما، ولحق به الثانى فى الثالث والعشرين من أبريل من العام نفسه عن عمر يناهز الخامسة والأربعين .

لقد اشتعلت معركة فكرية حامية بين الطرفين حول ملف (الحجاب والسفور) فأحدهما وهو الزعيم مصطفى كامل كان شرقى النزعة إسلامى التوجه يؤمن بالحجاب كرمز للطهارة والأخلاق، أما الثانى وهو قاسم أمين فهو كردى الأصل، افتتن بالحضارة الغربية التى عاشها فى بلاد الجن والملائكة بين أنصار الثورة الفرنسية، وكان عشقه للحرية يجعله يغار من الحجاب ويعده عقبة فى سببيل الوصول إليها، لكن وفيما يبدو كان الدوق دار كور الذى طعن فى كرامة المصريين وشكك فى وطنيتهم وهاجم الدين الإسلامى ورماه بالتخلف والرجعية فى كتابة (المصريون) هو الذى دفع قاسم للدخول فى معركته التاريخية والتى لم تنته حتى كتابة هذه السطور .

ففى جريدة المؤيد جاءت ردود قاسم أمين على الدوق دار كور، حيث كتب قاسم أمين تسعة عشر مقالا تحت عنوان أسباب ونتائج / حكم ومواعظ بدا فيها قاسم أمين باحثا فى علل المجتمع مشخصا لأمراضه، بيد أن السنوات الأربع التى قضاها قاسم أمين فى فرنسا جعلته يقف على أسباب تقدم تلك المجتمعات، لقد أيقن الرجل أن الحرية هى البوابة الوحيدة لتقدم المجتمع المصرى، لقد حاول قاسم الذى تأثر أيما تأثر بالإمام محمد عبده وبآرائه الإصلاحية أن يشيع مبادئ الحرية التى رآها وعاشها وتنفسها داخل المجتمع المصرى ورأى أن الدين الإسلامى برىء من الكثير من العادات السيئة داخل المجتمع المصرى، لقد حاول قاسم أن يمارس الحرية الغربية كاملة داخل المجتمع المصرى المحافظ والمتدين فوقع فى المحظور..

جاء كتابه (تحرير المرأة) بمثابة صدمة قاسية وقعت على رءوس الكثيرين،

واستيقظ المجتمع المصرى منتبها على رسائل السفور التى يحاول قاسم أمين نشرها باسم الحرية، اكتشف الجميع أن قاسما لم يكن يعمل بمفرده فقد كان أحمد لطفى السيد وسعد زغلول اللذان يقفان فى خندق الإمام محمد عبده يشاركان قاسم أمين أفكاره ومبادئه ويقفان خلفه بكل مايملكان، وكان طبيعيا أن يخرج مصطفى كامل ذو التوجه الشرقى الإسلامى المحافظ ومعه حواريوه طلعت حرب ومحمد فريد لمواجهة ذلك الوافد الجديد الذى يحمل أفكارا استعمارية فى المقام الأول، فشاع أن الإمام "محمد عبده" هو صاحب فكرة كتابى "قاسم"، وتردد أن اللورد "كرومر" -المندوب السامى البريطانى فى مصر- هو صاحب الآراء التى طرحها قاسم.ويلاحظ أن "قاسم" وغيره من تلاميذ "محمد عبده" كانوا يجتمعون لديه، ويستمعون إلى أحاديثه عن ضعف المسلمين وجهلهم وانتشار البدع بينهم، وأن قاسما اجتمع به عام ١٨٩٧م فى جنيف، وتلا عليه بعض فصول كتابه فى حضور سعد زغلول وأحمد لطفى السيد، ولعل ذلك هو الذى دفع البعض إلى أن يتحدث بهذا الأمر، أما "كرومر" فالثابت أنه عندما تحدث عن المرأة هاجم الإسلام، واعتبره مسئولا عن حقارة منزلتها. اتهم البعض "قاسم أمين" بالمروق من الدين وتحريض النساء على الفساد، حتى إن أحد الأشخاص ذهب إلى بيت "قاسم"، وطلب أن يجتمع بزوجة قاسم على انفراد تطبيقا لدعوته، فشرحت له زوجته أن قاسما لم يدع إلى السفور ولا إلى الخلوة بأجنبى.

وقد شنت جريدة "اللواء" -التى كان يصدرها الحزب الوطنى- على قاسم أمين حملة شرسة استمرت شهورا، وقد وصف الزعيم مصطفى كامل الكتاب بأنه (مهين للمرأة وبأنه يروج لأفكار البريطانيين) وقال مصطفى كامل (إنه قد زار بلادًا أوروبية كثيرة، ودرس أحوال المرأة الغربية؛ فوجد الحرية قد أفسدت على المرأة آدابها، ومحت كثيرا من الأخلاق الفاضلة حتى عمت الشكوى هناك، لكن مصطفى كامل اتفق مع قاسم أمين فى وجوب الالتفات إلى تربية النساء.

أما أقوى الردود فقد وردت من خلال كتاب «فصل الخطاب فى المرأة والحجاب» والذى كتبه محمد أفندى طلعت حرب، إذ أوضح فيه أن رفع الحجاب وإباحة السفور كليهما أمنية تتمناها القوى الاستعمارية على مر

العصور، واستمرت المعركة سجالا بين الفريقين وكان مصطفى كامل يكتب فى جريدة اللواء مندداً بتوجهات قاسم أمين ورفاقه ومشجعا لطلعت حرب ورفاقه، واستمر ذلك السجال حتى صدر الكتاب الثانى لقاسم أمين بعنوان «المرأة الجديدة» أكد فيه آراءه مستندا على أراء عدد من العلماء فى الغرب وأهداه لصديقه سعد زغلول.

لكن وفى كل الأحوال يبقى قاسم أمين أحد العلامات البارزة فى تاريخ مصر وبصرف النظر عن موقفنا من قضية تحرير المرأة وعدم اتفاقنا مع ما ورد بكتابه جملة وتفصيلا إلا أن أحمد لطفى السيد وضع لنا الحل السحرى وهو أن «الخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية» .

وبعد حادثة دنشواى كتب يقول:

«رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا وزورا مخنوقا، ودهشة عصبية بادية فى الأيدى وفى الأصوات، كان الحزن على جميع الوجوه، حزنا ساكنا مستسلم للقوة، مختلطا بشئ من الدهشة والذهول، ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة،، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة، ولكن هذا الاتحاد فى الشعور بقى مكتوما فى النفوس لم يجد سبيلا يخرج منه فلم يبرز بروزا واضحا حتى يراه كل إنسان».

وعند وفاة الزعيم مصطفى كامل قام قاسم أمين قائلا: «١١فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل، هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق، المرة لأولى كان يوم تنفيذ حكم دنشواى، أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب اللواء فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى قوة جماله وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر المصرى، هذا الإحساس الجديد، هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة من دمها وأعصابها هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة، هو الشعاع الذى يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة هو المستقبل».

كان قاسم أمين يشيع مصطفى كامل، وهو لا يدرى أنه يشيع نفسه معه، لقد رحل قاسم أمين بعد أيام من إلقائه هذه الكلمات الباكية وبقيت كلماته الخالدة.

إن الوطنية الصحيحة لاتتكلم كثيرا ولاتعلن عن نفسها.

كلما أردت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامى فى صورة امرأة حائزة لجمال امرأة وعقل رجل.

لو أن فى الشريعة الإسلامية نصوصاً تقضى بالحجاب، على ماهو معروف الآن عند بعض المسلمين، لوجب علىّ اجتناب البحث فيه، ولما كتبت حرفاً يخالف تلك النصوص مهما كانت مضرة فى ظاهر الأمر، لأن الأوامر الإلهية يجب الإذعان لها بدون بحث ولامناقشة. لكننا لانجد نصاً فى الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة، وإنما هى عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم فاستحسنوها وأخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين كسائر العادات الضارة التى تمكنت فى الناس باسم الدين والدين براء منها. فقد جاء فى الكتاب العزيز: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ. ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا. وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾.

- أقل مراتب العلم ماتعلّمه الإنسان من الكتب والأساتذة، وأعظمها ماتعلمها بتجاربه الشخصية فى الأشياء والناس.
- فى الأمة الضعيفة المستعبَدة حرف النفى (لا) قليل الاستعمال.
- إذا رأيت الرأى العام معادياً لكاتب، وأعدّ له خصوماً، يتسابقون إلى نقد أفكاره وهدم مذهبه، وعلى الخصوص إذا رأيتهم ذهبوا فى مطاعنهم إلى السب والقذف، فتحقق أنه طعن الباطل طعنة مميتة ونصر عليه الحق.
- التربية هى التى أنتجت كل الرجال الذين نسمعُ عنهم.





أستاذ الجيل وأبو الليبرالية المصرية

أحمد لطفى السيد

الخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية

كانت توجهاته ليبرالية متحررة على العكس من توجهات الزعيم مصطفى كامل الشرقية الإسلامية المحافظة، ولكن لطفى السيد وضع لنا هذا الميثاق الذى مازال حياً حتى الآن وقال :

«الاختلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية».

ولد قبل مصطفى كامل بعامين، ففى عام ١٨٧٢ ولد أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد، وفى عام ١٨٩٤ تخرج فى مدرسة الحقوق والتقى أثناء دراسته بالإمام محمد عبده، فتأثر به وبآرائه وأفكاره، وكان محمد عبده يرى أن فلسفة مصطفى كامل وحركته الوطنية كحرارة الحمى تذهب وتعود وبعد نظره جنونا ـ كما يقول الأستاذ فتحى رضوان، وكان الإمام محمد عبده لا يرى شيئا فى مصانعة وتأييد رجل كرياض باشا الذى وقف يخطب فى ٢٣ مايو ١٩٠٤ فى حفلة إنشاء مدرسة محمد على الصناعية فقال:

" جناب المحتشم اللورد كرومر أعتذر اليوم عن الحضور فى هذا المحفل لتغيبه عن مصر، كل يعلم ما له من المقام الأرفع والنفوذ الشامل فى هذه البلاد، وبالأخص ما له من اليد الطولى فى كل ماله مساس بالمصالح والمنافع العمومية، فهذه اليد الفعالة قد شملتنا وهى التى كانت لنا معوانا بل متمما ومكملا لهذا المشروع فحق علينا أن نعرف له هذه المبرة ونقدم لجنابه واجب الشكر" رجل يقول كلاما كهذا فلا يمكن أن يتصور عاقل أن رجلا كالإمام محمد عبده تربطه به علاقة، ولكن الحقيقة أن مجموعة محمد عبده ولطفى السيد وقاسم أمين وسعد زغلول وآخرين كانت لها فلسفة مغايرة لفلسفة مصطفى كامل وطلعت حرب ومحمد فريد الذى كان أعلى صوتا من الشيخ محمد عبده وكانت شخصيته أقدر على جمع الجماهير، أما محمد عبده فكان يفضل أن يكون من وراء الحركات الوطنية لا فى صدرها ولا على رأسها، وكان لطفى السيد يناهض التوجه الشرقى الإسلامى عند مصطفى كامل وكان الأخير يناهض تلك التوجهات العلمانية لدى لطفى السيد حيث كان أبا الليبرالية المصرية الحديثة.

يقول أحمد لطفى السيد بعد وفاة الزعيم مصطفى كامل:

«لا أريد أن أطيل القول فى مصطفى كامل فحياته معروفة مشهورة ولكنى أقول موجزا..

إن مصطفى كامل كان شعاره الوطنية ووسيلته الوطنية وغرضه الوطنية وكلماته الوطنية وكتاباته الوطنية وحياته الوطنية حتى لبسها ولبسته فصار بينهما التلازم الذهنى، فإذا ذكرت مصطفى كامل بخير فإنما تطرى الوطنية وإذا قلت الوطنية فإن أول ما يتمثل فى خيالك شخص مصطفى كامل، كأنما هو والوطنية شخص واحد ولقد تمثل ذلك يوم وفاته فى هذه المظاهرة التى لم تعرف لها فى ذلك الزمان مثيلا، فقد اشترك جميع أفراد الأمة فى أمر واحد على رأى واحد بصورة واحدة مع اختلافهم، كل هذا دل على أن الشعور الذى قادهم ليس مذهبا سياسيا ولا طريقة من طرائق المنازعة السياسية بل هو أعلى من ذلك.. هو التضامن القومى والجامعة الوطنية.. إن مصطفى كامل كان تمثال الوطنية ولقد دعوت فى اليوم التالى لوفاته على صفحات الجريدة إلى إقامة تمثال له يشهد بالاعتداد بفضله فى عمله وتخليدا لذكراه واعترافا من الأمة لكل عامل يقف نفسه على خدمتها وتجسد لهذه الروح الطاهرة ولقد شاعت هذه الفكرة بين جميع الطبقات وفتحنا الاكتتاب على صفحات الجريدة وتكفلنا بالقيام على هذا العمل ولو أننا لم نكن من حزبه السياسى لأن مصطفى كان مصريا لجميع المصريين.

عمل وزيرا للمعارف ثم للداخلية، ورئيسا لمجمع اللغة العربية (٢)، وحسب كتاب "أعلام مجمع اللغة العربية" لمحمد الحسينى، ففى أثناء عمل لطفى السيد كرئيس للمجمع عرض عليه الضباط الأحرار فى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أن يصبح رئيسا لمصر لكنه رفض، كما عمل رئيسا لدار الكتب، ومديرا للجامعة المصرية، و يعتبر من قادة التنوير والتثقيف فى مصر فى القرن العشرين.

× طالب باستقلال الجامعة، وقدم استقالته حين تم إقصاء طه حسين عن الجامعة سنة ١٩٣٢، كما قدم استقالته مرة أخرى حين اقتحمت الشرطة حرم الجامعة عام ١٩٣٧.

× نادى باستقلال مصر عن الاحتلال، وكان ضمن وفد مصر الذى طالب بالاستقلال فى مؤتمر السلام فى فرساى.

× نادى بتحديد مفهوم جديد للشخصية المصرية، يستند إلى أساس يختلف عن الرابطة الشرقية والدينية، ويربط بين الجنسية والمنفعة، وكان أهم ما طرحه فى هذا الشأن الدعوة إلى القومية المصرية كأساس لانتماء المصريين، ودعا إلى اللغة العامية بدلا من اللغة العربية الفصحى و ذلك لإنهاء الازدواج فى اللغة عند المصريين.

× نادى بتعليم المرأة، وتخرجت فى عهد رئاسته للجامعة أول دفعة من الطالبات عام ١٩٣٢.

× دعا إلى حرية الفكر وهو صاحب القولة الشهيرة «'الاختلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية».

× أسس حزب الأمة المصرى، و يعتبر من رواد الليبرالية المصرية، وهو من مؤسسى مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

× أطلق عليه لقب أستاذ الجيل لإسهاماته فى التنوير و النهضة.

للطفى السيد عديد من المؤلفات الفكرية منها "صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية"، "تأملات"، "المنتخبات"، "تأملات فى الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع"، كما ترجم عدة مؤلفات لأرسطو منها الأخلاق"، علم الطبيعة"، و "السياسة"، إضافة إلى مذكراته بعنوان "قصة حياتى".





أمير الشعراء أحمد شوقى

وأنا الذى أرثى الشموس إذا
هوت فتعود سيرتها من الدوران

فرسا رهان.. أحدهما أمير للوطنية والنضال والآخر أمير للشعر والبيان، جمع بين قلبيهما الحب والإخلاص، وكان كلاهما مؤمنا ومعجبا بصاحبه، لقد كان الزعيم مصطفى كامل من أشد المعجبين بالأمير أحمد شوقى وكان يصفه بأنه الغدير الصافى فى ألفاف الغاب يسقى الأرض ولا يبصره الناظرون.

وكان أمير الشعراء أحمد شوقى يصف الزعيم مصطفى كامل بأنه حب مصر وصريع غرامها، لقد كان شعر شوقى أحد أهم معالم تلك النهضة الثقافية التى اندمجت وتوحدت مع تلك الصيحة الثورية التى كانت تحلم بالجلاء وتؤمن بأنه حق وتعمل من أجل هذا الحق.

فى عام ١٩٠٢ دعا الزعيم مصطفى كامل إلى الاحتفال بالعيد المئينى لولاية محمد على باشا الكبير وقال " خير الأعياد عند الأمم عيد يذكرها بانتقالها من الظلمات إلى النور وخروجها من الجهالة إلى العلم والحضارة وارتقائها فى سبيل الحياة العالية وارتباطها بعائلة مالكة أجلستها على العرش بإرادتها وصافحتها للنهوض إلى ذرى العلياء ونوال المنن والنعماء، واعتمدت عليها فى إرشادها إلى واجباتها وحقوقها والمقاصد السامية التى يجب أن ترمى إليها.. فليفكر المفكرون فيما يجب على هذه الأمة عمله اعترافا بفضل محبيها وإجلالا للوطن نفسه الذى نهض فى عهده نهضته الكبرى ووثب بين الأوطان وثبة الأسد القاهر فخبر ما يحيى الوطنية فى النفوس ويجمع جموع هذا الشعب العظيم الأسيف ذكرى العظمة الأهلية والمجد الوطنى ولمثل هذا فليعمل العاملون وليتنافس المتنافسون.. «بأى قلب أم بأى ضمير أم بأى لسان أحدثكم اليوم معاشر المصريين عن حماية أبنائنا للوطن ودفاعهم عنه ونضالهم عن حوزته أيام محمد على الكبير وقد حاولت إنجلترا أن تقضى على هذا الملك الجديد وتزيل من سماء المجد والإقبال هذه الشمس المشرقة فأراها يومئذ بنو مصر أى أمة هم وأراهم محمد على أى أمى هو، فطرقت الثغور والبلاد آسفة على فشلها، معجبة بهذا المجد الباهر والعزم القاهر والوطنية الحقة والهمة الحديدية..) .

لقد كانت لهذه الدعوة أكبر الأثر فى نفوس الجميع، فتفاعل معها وبها رموز العمل الوطنى وعلى رأسهم الأمير " أحمد شوقى "ولِمَ لا والداعى إليها هو الزعيم " مصطفى كامل "لقد ألقى شوقى قصيدة من درر قصائده قال فيها :

عَلمٌ أنت فى المشارق مفرد ... لك فى العالمين ذكر مخلد
حبذا دولة وملك كبير ... أنت بانى ركنيهما يا محمد
ولواء فى البر والبحر يعطى ... مظهر الشمس فى الوجود وأزيد
تدخل الأرض فيه قطرًا فقطرًا ... مدخل الناس فى شريعة أحمد
تملأ الأرض صافنات وتجرى ... لك فى البحر كل برج مشيد
هكذا فلينل سماء المعالى ... من سعى فى الورى لمجد وسؤدد
همة تبتنى الممالك شمًّا ... ء ورأى يسوسهن مسدد
وثبات فى الحادثات وعزم ... مثل ريب الزمان لا يتردد
تضع السيف موضعًا يرتضيه ... ومن البأس ما يذم ويحمد
وتصون النوال عن حسن صنع ... لك ينسى ونعمة لك تجحد
لا تبالى بحاسد وعدو ... آية الفضل أن تُعَادى وُتحْسَد
همة الفاتحين حكم وقهر ... ولك الهمة التى هى أبعد
ليس من يفتح البلاد لتشقى ... مثل من يفتح البلاد لتسعد
علمت مصر والحجاز وأرض الـ ... نوب والشام أن عهدك عسجد
أنت إن أحصى النوابغ فى الملـ ... ـك كريم الثنا على الدهر أوحد
أيّدتهم قرابةٌ وقبيلٌ ... وأرى الله وحده لك أيد
فتولاك والليالى حبالى ... وتولاك والحوادث تولد
ورمى عنك والملوك رماة ... نصفهم واجدون والنصف حسد
ركن مصر أقمت بعد انقضاض ... أمة جمعت وأمر توحد

☆☆☆

وعندما تمكن المرض اللعين من الجسد النحيل للزعيم مصطفى كامل زاره أصدقاؤه ومحبوه ومنهم أمير الشعراء أحمد شوقى حيث كان اللقاء مغلفا بالحزن والألم، وكان الشعور بدنو الأجل سائدا، وكان مصطفى مؤمنا بالله وبقضائه وهو على يقين بان الأجل قد انقضى وبأنه على مشارف بداية الرحلة الأبدية للقاء المولى سبحانه وتعالى وطلب مصطفى من شوقى أن يقوم برثائه حين وفاته، وعندما صعدت روح الزعيم إلى بارئها نظم شوقى مرثيته الباكية والتى يعدها الكثيرون أعظم مرثية فى تاريخ الأدب العربى أسماها شوقى (الحياة فى الموت) يقول شوقى :

المشرقان عليك ينتحبان ... قاصيهما فى مأتم والدانى
يا خادم الإسلام أجر مجاهد ... فى الله من خلد ومن رضوان
لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى ... فى الزائرين وروع الحرمان
السكة الكبرى حيال رباهما ... منكوسة الأعلام والقضبان
لم تألها عند الشدائد خدمة ... فى الله والمختار والسلطان
ياليت مكة والمدينة فازتا ... فى المحفلين بصوتك الرنان
ليرى الأواخر ذاك ويسمعوا ... ما غاب من قس ومن سحبان
وجعلت تسألنى الرثاء فهاكه ... من أدمعى وسرائرى وجنانى
لولا مغالبة الشجون لخاطرى ... لنظمت فيك يتيمة الأزمان
وأنا الذى أرثى الشموس إذا هوت ... فتعود سيرتها من الدوران

وكان شوقى يشارك فى الاحتفال بذكرى مصطفى كامل فقال فى عام ١٩٢٥:

إلام الخلف بينكمو إلا ما ؟ ... وهذى الضجة الكبرى علاما ؟
وفيم يكيد بعضكمو لبعض ... وتبدون العداوة والخصاما ؟
وأين الفوز ؟ لا مصر استقرت ... على حال ولا السودان داما
ولَينا الأمرَ حزبًا بعد حزب ... فلم نك مصلحين ولا كراما

جـــعلنـا الحـكم تـوليـــة وعـــزلا ... ولم نَعْـــدُ الجــزاء والانتـــقـــام
وسُـــمّنـا الأمـــر حــين خـــلا إلينا ... بأهـواء النفـوس فـمـا اسـتـقـامـا
شـــهـــيـــد الحق قم تـره يتـــيـــمـــا ... بأرض ضـيـعـت فـيـهـا اليـتـامى
أقـــام على الشـــفـــاه بهـــا غـــريبـــا ... ومـــر على القلوب فـمـــا أقـامـا
ســقـــمـت فلم تبت نفس بخـيـــر ... كـأن بمهـجـة الوطن السـقـامـا
ولم أر مـــثـل نعـــشـك إذ تهـــادى ... فـــغطى الأرض وانتظم الأنامـــا
تحـــمَّـل هـمـــــة، وأقـل دينـا ... وضم مـــروءة وحـــوى زمـــامـــا
ومـــا أنســـاك فى العـــشـــرين لما ... طلعت حـيـالهـا قـمـرا تمامـا
يشـــار إليك فى النادى وترمى ... بعـــينى من أحب ومن تعـــامى
إذا جـــئت المنابر كنت (قُـــسَّـــا) ... إذا هـو فى عكاظ عـــلا السنامـــا
وأنـت ألـذ لـلحق اهـتـــزازًا ... وألطف حـين تنطقـه ابتـسـامـا
وتحـــمل من أديم الحق وجـــهـــا ... صـــراحًـــا ليس يتخـذ اللسـامـا

☆☆☆

أتذكـــر قـــبل هذا الجـيل جيـــلا ... ســـهـــرنا عن مـــعلمـــهم ونامـــا
مِـــهـــارُ الحق بغَّـــضنـا إليــهم ... شكيم القـــيـــصـــرية واللجـــامـــا
لواؤك كـــان يســـقـــيـــهم بجـــام ... وكـــان الشـــعـــر بين يدى جـــامـــا
من الوطنيـة اسـتـبـقـوا رحـيـقًـا ... فـضضنا عن مـعـتـقـهـا الختامـا
غـــرسنا كَـرمـهـــا فـزكـا أصـولا ... بكل قـــرارة وزكـــا مـــدامـــا
جـمـعـتـهـمـو على نبـرات صوت ... كنفخ الصـــور حـــركت الرجـــامـــا
لك الخطب التى غص الأعـــادى ... بســـورتهـــا وســـاغت للندامى
فكانت فى مـــرارتهـــا زئيـــرًا ... وكـــانت فى حـــلاوتهـــا بغـــامـــا
بك الوطنيـــة اعـــتـــدلت وكـــانت ... حـــديثًـــا من خـــرافـــة أو منامـــا
بنيت قـــضـــيـــة الأوطان منهـــا ... وصـــيـــرت (الجـــلاء) لهـــا دعـــامـــا

الفصل السادس عشر

شاعر النيل حافظ إبراهيم

فيا نيل إن لم تَجْرِ بعد وفاته
دما أحمرا لا كنت يانيل جاريا

فى عام ١٩٠١ ظهر الجزء الأول من ديوان شاعر النيل حافظ إبراهيم ، وكان الزعيم مصطفى كامل من أشد المعجبين به وبأشعاره، وكان حافظ إبراهيم مؤمنا بوطنية مصطفى كامل وزعامته ورسالته وكانت قصائده بمثابة مرآة للحركة الوطنية التى أسسها وخاض غمارها الزعيم مصطفى كامل.

قام مصطفى كامل بنشر هذا الديوان فى جريدة اللواء، وفى عام ١٩٠٣ قام مصطفى كامل بتعريب كتاب " البؤساء " لشاعر النيل، حيث أبدى مصطفى كامل سعادته وإعجابه الشديدين بهذا الكتاب، وكان شاعر النيل مشاركا فى المسيرة الوطنية للزعيم مصطفى كامل، ففى ٢٩ نوفمبر ١٩٠٦ كانت مصر على موعد مع انطلاق النهضة التعليمية حيث افتتاح مدرسة مصطفى كامل الذى ألقى فيه خطبة بليغة مؤثرة " ليست حاجة مصر إلى شئ فى هذا الزمان إلى حاجتها إلى تخريج رجال متحدى الكلمة مثقفى الرأى عارفين بتاريخها معتبرين بعبر حوادثها ناهضين بها مجددين فى سبيل إسعادها وليس لنا بإنشاء هذه المدرسة غاية غير هذه " وفى هذا الاحتفال قال حافظ إبراهيم تعليقا على خطبة الزعيم :

سمعنا حديثًا كقطر الندى ... فجدد فى النفس ما جددا
أضحى لآمالنا منعشًا ... وأمسى لآلامنا مرقدًا
فديناك يا شرق لا تجزعن ... إذا اليوم ولى فراقب غدا
فكم محنة أعقبت محنة ... وولت سراعًا كرجع الصدى
فلا يئسنك قيل العداة ... وإن كان قيلا كحز المدى
أتودع فيك كنوز العلوم ... ويمشى لك الغرب مسترفدا
وتبعث فى أرضك الأنبياء ... ويأتى لك الغرب مسترشدًا
وتقضى عليك قضاة الضلال ... طوال الليالى بأن ترقدا ؟

أتشقى بعهد سما بالعلوم ... فأضحى الضعيف بها أيدا
إذا شاء بز السها سره ... وأدرك من جريه المقصدا
وإن شاء أدنى إليه النجوم ... فناجى المجرة والفرقدا
وإن شاء زعزع شم الجبال ... فخرت لأقدامه سجدا
وإن شاء شاهد فى ذرة ... عوالم لم تحى فيها سدى
زمان تسخر فيه الرياح ... ويغدو الجماد به منشدا
وتعنو الطبيعة للعارفين ... بمعنى الوجود وسر الهدى
إذا ما أهابوا أجاب الحديد ... وقام البخار له مسعدا
وطارت إليهم من الكهرباء ... بروق على السلك تطوى المدى
أيجمل من بعد هذا وذاك ... بأن نستكين وأن نجمدا؟!
وها أمة (الصفر) قد مهدت ... لنا النهج فاستبقوا الموردا
فيا أيها الناشئون اعملوا ... على خير مصر وكونوا يدا
ستظهر فيكم ذوات الغيوب ... رجالاً تكون لمصر الفدا
فياليت شعرى من منكم ... إذا هى نادت يلبى الندا
لك الله يا (مصطفى) من فتى ... كثير الأيادى كثير العدا
إذا ما حمدتك بين الرجال ... فأنت الخليق بأن تحمدا
سيحصى عليه سجل الزمان ... ثناء يخلد ما خلدا
ويهتف باسمك أبناؤنا ... إذا آن للزرع أن يحصدا

وبلغت وطنية حافظ إبراهيم ذروتها حينما شكت مصر من الاحتلال الإنجليزى فأنشد قائلا :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت ... حواشيه حتى بات ظلمًا منظمًا
تمن علينا اليوم أن أخصب الترى ... وأن أصبح المصرى حرًا منعمًا
أعد عهد (إسماعيل) جلدًا وسخرة ... فإنى رأيت المن أنكى وآلمًا
عملتم على عز الجماد وذلنا ... فأغليتم طينًا وأرخصتم دما

إذا أخصبت أرض وأجدب أهلها ... فلا أطلعت نبتًا ولا جادها السما
نهش إلى الدينار حتى إذا مشى ... به ربه للسوق ألفاه درهما
فلا تحسبوا وفرة المال - لم تفد ... متاعًا ولم تعصم من الفقر - مغنما
فإن كثير المال - والخفض وارف - ... قليل إذا حل الغلاء وخيماً

وجاءت حادثة دنشواى كمعين لا ينضب للشعراء والأدباء والوطنيين من جميع التيارات وكان لحافظ نصيب حيث قال :

أيها القائمون بالأمر فينا ... هل نسيتم ولاءنا والودادا
خفضوا جيشكم وناموا هنيئاً ... وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا أعوزتكم ذات طوق ... بين تلك الربا فصيدوا العبادا
إنما نحن والحمام سواء ... لم تغادر أطواقنا الأجيادا
لا تظنوا بنا العقوق ولكن ... أرشدونا إذا ضللنا الرشادا
لا تقيدوا من أمة بقتيل ... صادت الشمس نفسه حين صادا

وبعد أن انتقل الزعيم مصطفى كامل إلى مثواه الأخير، وقف حافظ إبراهيم على قبر الزعيم مصطفى كامل وقال :

أيا قبر هذا الضيف آمال أمة ... فكبر وهلل والق ضيفك جاثيا
عزيز علينا أن نرى فيك مصطفى ... شهيد العلا فى زهرة العمر ذاويا
أيا قبر لو أنا فقدناه وحده ... لكان التأسى من حوى الحزن شافيا
ولكن فقدنا كل شئ بفقده ... وهيهات أن يأتي به الدهر ثانيا
فيا سائلى أين المروءة والوفا ... أين الحجا والرأى ويحك ها هى
هنيئا لهم فليأمنوا كل صائح ... فقد أسكت الصوت الذى كان عاليا
ومات الذى أحيا الشعوب وساقه ... إلى المجد فاستحيا النفوس البواليا
مدحتك لما كنت حيا فلم أجد ... وإنى أجيد اليوم فيك المراثيا
عليك وإلا ما لذي الحزن شاملا ... وفيك وإلا ما لذا الشعب باكيا
يموت المداوى للنفوس ولا يرى ... لما فيه من داء النفوس مداويا

وكنا نيامًا حينما كنت ساهدا فأسهدتنا حزنا وأمسيت غافيا
شهيد العلا لازال صوتك بيننا يرن كما قد كان بالأمس داويا
يهيب بنا: هذا بناء أقمته فلا تهدموا بالله ما كنت بانيا
يصيح بنا: لا تشعروا الناس أننى قضيت وأن الحى قد بات خاليا
يناشدنا بالله ألا تفرقوا وكونوا رجالا لا تسروا الأعاديا
فروحى من هذا المكان مطلة تشارفكم عنى وإن كنت باليا
فلا تحزنوها بالخلاف فإننى أخاف عليكم فى الخلاف الدواهيا
أجل أيها الداعى إلى الخير إننا على العهد مادمنا فنم أنت هانيا
بناؤك محفوظ وطيفك ماثل وصوتك مسموع وإن كنت نائيا
عهدناك لا تبكى وتنكر أن يرى أخو البأس فى بعض المواطن باكيا
فرخص لنا اليوم البكاء وفى غد ترانا كما تهوى جبالا رواسيا
فيا نيل إن لم تجر بعد وفاته دما أحمرًا لا كنت يانيل جاريا
ويا مصر إن لم تحفظى ذكر عهده إلى الحشر لازال انحلالك باقيا
ويا أهل مصر إن جهلتم مصابكم ثقوا أن نجم السعد قد غار هاويا
ثلاثون عاما بل ثلاثون ذرة يجيد الليالى ساطعات زواهيا
ستشهد فى التاريخ أنك لم تكن فتى مفردا بل كنت جيشا مغازيا

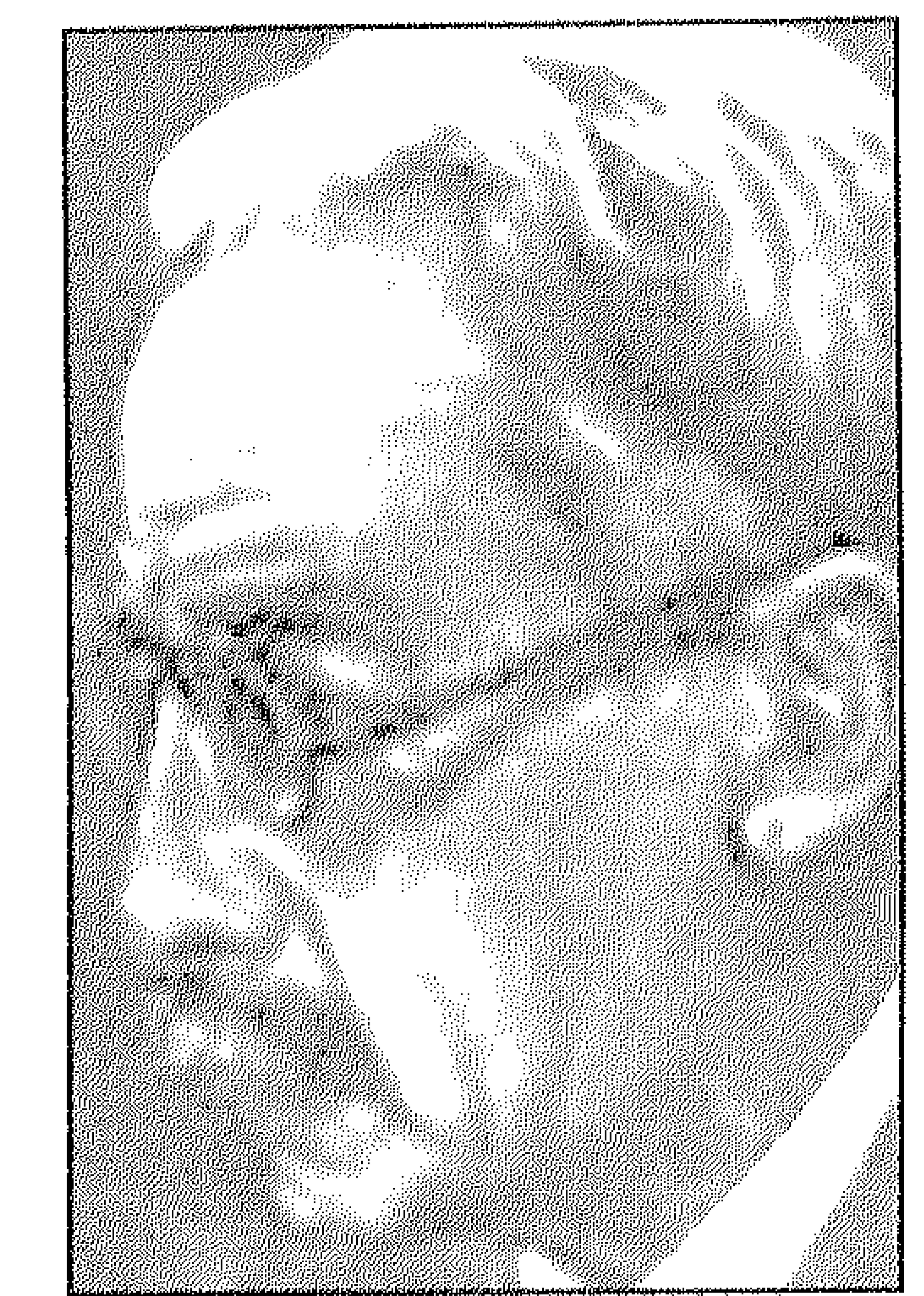
واستمر شاعر النيل حافظ إبراهيم على عهده وحبه لصديقه الزعيم مصطفى كامل وقد شارك فى نعيه ورثائه فى ذكراه الأولى ١٩٠٩ وقال :

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا واقضوا هنالك ما تقضى به الذمم
هنا جنان تعالى الله بارئه ضاقت بآماله الأقدار والهمم
هنا فم وبنان لاح بينهما فى الشرق فجر تحيى ضوءه الأمم
هنا فم وبنان طالما نثرا نثرا تسير به الأمثال والحكم
هنا الكمى الذى شادت عزائمه لطالب الحق ركنا ليس ينهدم
هنا الشهيد، هنا رب اللواء، هنا حامى الذمار هنا الشهم الذى علموا

☆☆☆

يا أيها النائم الهانى بمضجعه ليهنك النوم لا هم ولا سقم
باتت تسائلنا فى كل نازلة عنك المنابر والقرطاس والقلم
تركت فينا فراغًا ليس يشغله إلا أبى ذكى القلب مضطرم
منفر النوم سباق لغايته آثاره عمم - آماله أمم





شاعر القطرين..
خليل مطران

فارقد رقادك إن ربك قد محا
بك ذنب مصر كما رجوت وقد عفا

" مصاب الشرق في رجله المفرد، وبطله الأوحد مصطفى باشا كامل، أيتها الروح العزيزة إن في هذا الديوان الذى اختتمه برثائك نفحات من نفحاتك ودعوات من دعائك، فإلي هيكلك المدفون بالتكريم تحية الأخ المخلص للأخ الحميم، وداع المجاهد المتطوع للقائد العظيم ".

حزن يتقطر وقلب ينفطر ولسان يعبر شعرا ونثرا.. ذلك هو شاعر القطرين خليل مطران الصديق الصدوق للزعيم مصطفى كامل، عاشا صديقين حميمين جمع بينهما وطن وقضية.. حب وإخلاص، لقد فاقت حميمية العلاقة بين القطبين الكبيرين حدود التصور، وكان ذلك له مايبرره فالطريق واحد والأدوات متعددة وانصهار الرجال فى بوتقة واحدة هو السبيل الوحيد لتحقيق أهداف الوطن،

فى الاحتفال بالعيد المئينى لرحيل محمد على باشا الكبير وقف مصطفى كامل خطيبا يقول :

«بأى قلب.. أم بأى ضمير أم بأى لسان أحدثكم اليوم معاشر المصريين عن حماية آبائنا للوطن ودفاعهم عنه ونضالهم عن حوزته أيام محمد على لكبير».

وكان الزعيم قد ألقى خطبة من أعظم الخطب السياسية فى التاريخ العربى.. تابع هذه الخطبة واستمع إليها الشاعر الكبير خليل مطران فكتب مراسلا جريدة الأهرام واصفا إياها بقوله (أكتب اليكم هذه السطور من موضع مشرف على البحر، مجاور له، أسمع من مناداة حبابه، ومناجاة نسماته، وأرى من حركته الدائمة المستمرة ما يخيل لى أن على ظهر كل موجة مهدا، يهز صعدا وخببا، وأن فى المهد أمرأ طفلا، سيكون بعد حين أمرأ كهلا، فهل ذلك الأمرؤ الذى تهزه الأمواج، وتغذيه الشمس وتنميه الليالى، سيكون أمنية مرجوة لمصر تتحقق ؟ وهل المناداة والمناجاة التان أسمعهما أول أصوات البشر التى ستعلو بعد حين ؟ ذلك ما أوهمتنى إياه خطبة مصطفى

بك كامل التى سمعتها البارحة بين جمهور لا يقل عن ثلاثة آلاف نفس مختلفى الجنس والدين، وأكثرهم من المصريين وغير قليل منهم الذين حضروا من القاهرة والريف.. وقف يتكلم فى الساعة التاسعة، وقد ضاق النادى على اتساعه بالناس.. صامتين تشوقا إلى ما سيسمعون منتظمين انتظاما طبيعيا، ليس من عمل شرطى ولا بواب، بل من هيبة الموقف ورجاء ما يتوقع..

لقد كان خليل مطران من أشد المعجبين والمؤمنين بزعامة مصطفى كامل «حياً» وبعد رحيله عبر الشاعر الكبير خليل مطران عن حبه وعشقه وإيمانه بمصطفى كامل ورسالته بتلك القصيدة الرثائية الدامعة والتى عبرت عما يجيش فى صدر الرجل تجاه صديقه وكان مطلعها :

أعلى مكانتك الإله وشرفا ... فانعم بطيب جواره يامصطفى
اليوم فزت بأجر ما أسلفته ... خيرا وكل واجد ما أسلفا

ويقول فى موضع آخر:

فوردت وردك فى الخلود منعما ... والأرض مائدة عليك تأسفا
لم تلف قبلك أمة فى مشهد ... يزور الرجال به المدامع زرفا

ويقول أيضا:

من يبرئ الإسلام من تهم العدى ... ويرد نقد الناقدين مزيفا
يبدى لأعين جاهليه فضله ... ويزيل ما يلد التناكر من جفا
ويثير من غضب الغضاب لمجده ... همما تعيد له المقام الأشرف

وبلغ ذروة تأثره برحيل هذا الزعيم وتأثر الحركة الوطنية فقال:

مصر العزيزة قد ذكرت لك اسمها ... وأرى ترابك من حنين قد هفا
وكأننى بالقبر أصبح منبرا ... وكأنى بك توشك أن تهتفا
مصر التى لم تحظ من نجبائها ... بأعز منك ولم تعز بأحصفا
مصر التى لم تبغ إلا نفعها ... فى الحالتين ملاينا ومعنفا

مصر التى غسلت يداك جراحها — بصبيب دمعك جاريا مستنزفا
مصر التى كافحت لدى عداتها — متصدرا لرماتها مستهدفا
مصر التى أحببتها الحب الذى — بلغ الفداء نزاهة وتعففا

وجاء البيت الأخير فى هذه الرثائية

فارقد رقادك إن ربك قد محا — بك ذنب مصر كما رجوت وقد عفا

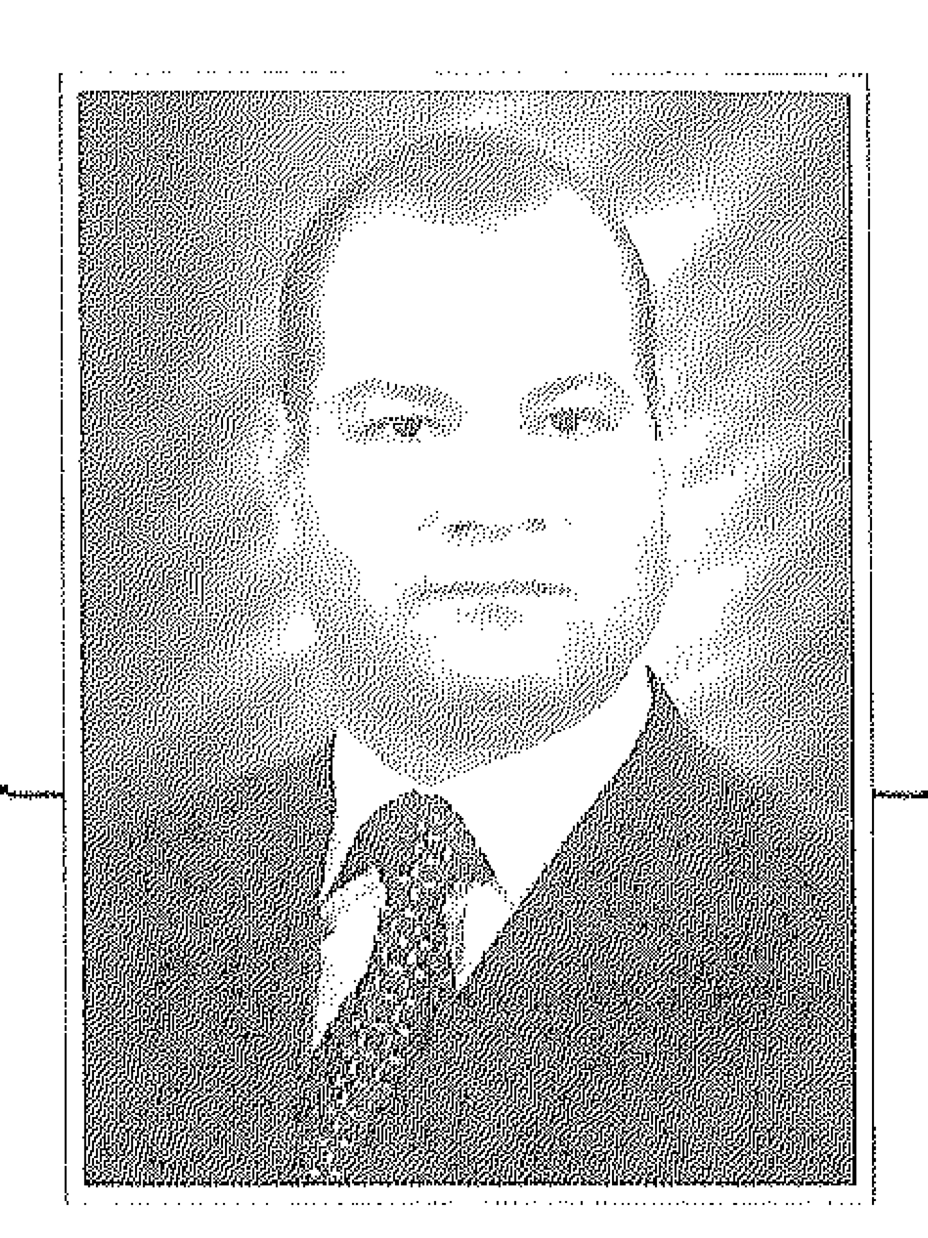
وفى عام ١٩٣٣ وفى ذكرى مرور عام على وفاة شاعر النيل حافظ إبراهيم، أوضح شاعر القطرين خليل مطران أن مصطفى كامل هو الأب الروحى للحركة الوطنية فى مصر رغم مرور كل هذه السنوات وقال :

طرأت حالة تيقظ فيها — لدعاة الهدى ضمير السواد
فإذا (حافظ) وقد بث ما فى — نفسه من تجهم واربداد
وبدا للمنى الجلائل فيها — أفق واسع المدى لارتياد
ما تجلى نبوغه كتجليه — وقد هب (مصطفى) للجهاد
يوم نادى الفتى العظيم قلبى — من نبا قبله بصوت المنادى
وورى ذلك الشعور الذى كا — ن كمينًا كالنار تحت الرماد
فتأتى بعد القنوط الدجوجى — رجاء للشاعر المجواد
مس منه السواد فانبجست نا — ر ونور من طى ذاك السواد
أكبر الدهر وثبة وثبتها — مصر مفتكة من الأصفاد
وثغاء غدا هزيماً فألقى — رعبه فى مرابض الآساد
ما الذى أخرج الشجاعة من حيث — طوتها قرون الاستبداد
وجلا غرة الصلاح فلاحت — تزدهى من غياهب الإفساد
فإذا أمة أبية ضيم — ما لها غير حقها من عتاد
نهضت فجأة تنافح فى آ — ن عدوين أسرفا فى اللداد
أجنبيًا ألقى المراسى حتى — تقلع الراسيات فى الأطواد
وهوانًا كأنما طبع الشعب — عليه تقادم الإخلاد
حلبة يعذر المقصر فيها — والخواتيم رهن تلك المبادى
ليس تغيير ما بقوم يسيرًا — كيف ما عودوه من آماد
غير أن الإيمان كان حليفًا — لقلوب الطليعة الأنجاد
فاستعانوا به على ما ابتغوه — غير باغين من بعيد المراد

المراجع

- عبد الرحمن الرافعى مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية - دار المعارف .
- فتحى رضوان مصطفى كامل - دار الشرق .
- دكتور يواقيم رزق مرقص وراق مصطفى كامل - الهيئة العامة للكتاب .
- مصطفى كامل الشمس المشرقة تقديم د. مصطفى رجب، الهيئة العامة لقصور الثقافة
- د. أحمد سويلم العمرى مصطفى كامل كمدرسة وطنية وسياسية .

الفهرس



المؤلف فى سطور

نشأت محمد الديهى

● حصل على بكالوريوس «اقتصاد عام» تقدير امتياز جامعة الاسكندرية عام ١٩٩٣.

● كاتب ومحلل فى الشئون الاقتصادية والمالية.

● مدير تحرير مجلة انترناشونال

■ **صدر للمؤلف**

● كتاب «قوانين مبعثرة» عن دار الجمهورية للنشر أبريل ٢٠٠٧.

■ **تحت الطبع**

● مستقبل وطن

حيث اختار المؤلف خمساً وثلاثين شخصية من النخب الفاعلة من كافة الاتجاهات والتوجهات داخل المجتمع للإجابة عن السؤال الذى يشغل الجميع.. كيف تنهض الأمة المصرية لتستطيع العبور إلى المستقبل؟

■ **وقريباً:**

● سبع عجاف..

● من سرق ابتسامة الوطن؟

● الطلاق من أول نظرة

● نشر للكاتب ما يقرب من مائة وأربعين مقالاً فى العديد من الصحف المصرية والعربية تدور حول القضايا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

رقم الإيداع : ٢٣٥٩٩ /٢٠٠٨
الترقيم الدولى : I.S.B.N -977-236-656-8

طبع بمطابع دار الجمهورية للصحافة



مركز خدمة الجمهور
155
هل قابلتك مشكلة مع
شركات الإتصالات
هل
طلبت حلا لمشكلتك
ولم تستجب الشركة
ثابت
المحمول
إنترنت
أجهزة محمول
اتصل برقم
155
فنحن نعمل على حمايتك
www.ntra.gov.eg
الجهاز القومى لتنظيم الإتصالات
NTRA
National Telecom Regulatory Authority

هذا الكتاب



«لا شيء يرفع حال مقام الوطنية فى بلادنا مثل إحياء ذكرى الرجال الذين أخلصوا فى خدمتها، وقضوا أعمارهم فى العمل لإعلاء شأنها وتحقيق آمالها ولا شئ يميت الوطن والوطنية مثل تمكن داء النسيان فى أمة وجهلها لتاريخها، وعدم تقديرها للرجال المخلصين فى خدمتها.

تلك هى الكلمات التى كانت سببا مباشراً فى إصدار هذا الكتاب، فمصطفى كامل كقيمة تاريخية يعد هو المفجر الأول للحركة الوطنية المصرية فى العصر الحديث وإنه لحرىّ بنا ونحن نحتفل بمرور مائة عام على رحيل ذلك الزعيم الشاب أن نقدمه كنموذج وقدوة للأجيال الجديدة من الشباب.

كتاب (الجمهورية)



الثمن ١٥ جنيهًا